متجر الكتب

متجر الكتب

المؤلف: طارق ثائر

الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان 2020

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved، is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book، or part thereof، or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information، whether electronic or mechanical، including photocopying، recording، or storage and retrieval، without written permission from the rights holders

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978- 1 -989865- 7 4- 3

رواية

متجر الكتب

المؤلف

طارق ثائر

تنويه

تنويه: إن هذه الرواية وجميع ما ذكر فيها من أحداث ومواقع جغرافية وكذلك المسافات الفاصلة بين موقع وأخر والفترات الزمنية والأوقات إضافة إلى شخصيات الرواية جميعها غير حقيقية، وهي من نسج خيال المؤلف لذا اقتضى التنويه.

المؤلف
طارق ثائر
May **2020 26**

شخصيات الرواية:

- **فلاديمير**: صاحب متجر الكتب في شارع نفسكي.
- **بارثولوميو**: رجل الأمن الخاص بشارع نفسكي.
- **الكسي ميخائيلوفتش**: (الصبي الصغير بطل الرواية (اليوشا الصغير.
- **ميخائيل**: والد الكسى.
- **كرستيانا**: والدة الكسى.
- **زاريتا**: شقيقة الكسى الصغيرة..
- **مارغريتا**: العجوز الشمطاء مالكة العمارة التي تقبع بها عائلة ميخائيل.
- **داكوتا**: رجل عجوز يعمل حارسا للعمارة المذكورة.
- **أندريه**: صاحب محل الخبز.
- **الجنرال**: الرئيس الأعلى لمعسكر سسترورتسك الذي عاصره ميخائيل.
- **ديمتري**: متقاعد عسكري ورفيق قديم لميخائيل في المعسكر.
- **اناتولي**: (جندي برتبة (رقيب اعلى في المعسكر المذكور.
- **ميلان**: شاب تعرف عليه الكسى أثناء العمل في وظيفته.
- **روسيل**: (ضابط برتبة (ملازم ثاني في المعسكر المذكور.

- **سيرجيو**: (ضابط برتبة (نقيب في المعسكر المذكور وهو مساعد للجنرال الجديد.
- **يوري، زاتوف، ارثير**: أصدقاء الكسى خلال عمله في وظيفته.
- **كلارا**: صديقة كرستيانا ورفيقتها المقربة وهي أحد زبوناتها.
- **ألبرت**: والد كلارا وهو من ملاك الأراضي الأثرياء.
- **ألكسندر**: خطيب كلارا.
- **دانييل**: رفيق الكسى المقرب أثناء فترة دراسته الثانوية.
- **ديفيد**: والد دانييل وهو صاحب مكتبة أدبية لنشر الكتب.
- **نانسي**: معلمة الكسى في المدرسة الداخلية.
- **بافل**: صديق الكسى في المرحلة الأولية لمدرسته الداخلية.
- **جوزيف**: فتى غريب الأطوار ومصاب بمرض جلدي في المدرسة الداخلية.

الفصل الأول

شمال غرب روسي

سانت بطرسبرغ

شارع نفسكي...

10:00 AM

في يوم من أيام يناير قارس البرد تنزل ندف الثلج في شارع نيفسكي وأصوات عجلات عربات الحوذيين مع صوت وقع حوافر جيادها أصوات عارمة من كل حدب وصوب جلبة وأصوات هرج ومرج وحديث الناس مجتمعة لا يمكنك تمييز الأصوات، هنالك باعة متجولون على أرصفة الشارع يصيحون بأعلى أصواتهم رافعين عقيرتهم لتخرج كلماتهم بصوت مرتفع ليتمكن الجميع من سماعهم، ومن بين جميع هذه الأصوات هناك صوت ناتج عن تلميع حذاء رجل يقف عند ماسح الأحذية كان رجلا نبيلا من الطبقة العليا أما الرجل الجالس فهو مسكين فقير تقتصر مهنته على تنظيف الأحذية يجلس على حافة الرصيف مطأطئ الرأس مشغولا في تلميع ودعك الحذاء بواسطة خرقة بالية ومهترئة ولكنها قادرة على إصدار كل هذا الصوت الممتزج مع الأصوات الأخرى، حتى يمكن سماع صوت نزول ندف الثلج وهي ترتطم على الأرض، وصوت صرير

أبواب المحلات عند دخول وخروج الأشخاص وهنالك بعض من أبواب المحلات تحتوي على أجراس معلقة في نهاية الباب من الأعلى كل هذه الأصوات يمكن سماعها في آن واحد محدثة جلبة فضيعة تؤدي بك إلى حالة من الغثيان لا يمكن تحملها البتة ربما لأن هذه الأصوات ممتزجة ومتداخلة في ما بينها فيصيبك شيء من الغثيان وصم الأذن في نفس الوقت حتى انه لا يمكن التمييز بين هذا الكم الهائل من الأصوات المتنوعة ولكن يمكن تمييز وسماع صوت واحد فقط من بينهم جميعاً يمكن سماع صوت رأسك صوت أفكارك التي تقبع من الداخل والتي تتكلم معك محدثة شيئا من الفوضى والألم داخل الرأس إن مثل جميع هذه الأمور قد يختلف تأثيرها من شخص لشخص آخر بصورة متباينة فقد تحدث هذه الأصوات عند بعضهم فورات من الغضب وحالة من الهستيريا، وبعضهم يبدو عليه الامتعاض عن سماعها ويبدأ بالشتم ويدير رأسه ويرفع منكبيه مشمئزاً مما يحدث، وهنالك أشخاص لا يولونها أي اهتمام حتى إن هنالك بعض الأشخاص من يجد فيها عزائه ويجد فيها شيئا من اللذة والغبطة ولك إن تتصور يا سيدي فهنالك من يجد في كل شيء لذة حتى في أشد الحالات إيلاما وبؤساً وفوضى فإن لديه كل شيء سوي الحياة البائسة يجد فيها لذة الأصوات المزعجة كل شيء مزعج إنها من الخاصيات العجيبة التي تحملها معظم الشخصيات في هذا المجتمع لذلك ينبغي عليك أن تعود نفسك على هذه الخاصية العجيبة التي لا يستطيع أي شخص أن يعمل بها وتتقنها على أكمل وجه وبشكل خاص أصوات الرأس التي لا يمكن إسكاتها أو كفها أبدا مهما حاولت إلى ذلك سبيلاً لا يمكنك إسكاتها عن طريق صم الأذنين فهي نابعة من داخل الإنسان ولكن هنالك طريقة وحيدة

يمكن اتباعها للتخلص من هذه الفوضى التي توجد داخل الرأس وهي أن لا تعير هذه الأصوات أي اهتمام يذكر إن من يتقن هذه الطريقة هم فقط الأشخاص الهينين اللينين الأشخاص البسطاء والسذج الذين يتكلمون ويعملون على سجيتهم كأمثال منظف الأحذية الذي رأيته منذ قليل هم أشخاص فقراء فقط هم من يعملون بها ومبدؤهم في هذه الحياة البائسة هو ((**توقف عن الاهتمام بكل شيء وعش بسلام**))،

لكن في شارع نيفسكي يمكن رؤية عكس هذا الشيء في تعابير وجوه الأشخاص الموجودين في هذا الشارع من إمارات البؤس والوجوه الكالحة الشاحبة شحوب الموت وجوه حزينة يمشون مطأطئين رؤوسهم إلى الأسفل موجهين نظرهم نحو الأرض غارقين في تفكيرهم والأصوات التي تقبع داخل رؤوسهم النابعة من عقولهم ووعيهم المريض المتشائم يمكن أن تلاحظ هذا الشيء بمجرد اختلاس رؤية سريعة نحو وجوههم ولكن ليس جميعهم من يقع في وضاعة التفكير المتشائم والأفكار السلبية فهنالك أشخاص رغم بؤسهم الشديد لا يعيرون أي اهتمام لها وهنالك أيضاً بعض الأشخاص تراهم يدفنون رؤسهم بين اكتافهم داخل معاطفهم واضعين ايديهم في جيوب معاطفهم ويسيرون فقط يسيرون ويركزون رؤيتهم باتجاه معين ولا يحيدون نظرهم مطلقاً تراهم مرهقين يستنزفون كل طاقتهم الإيجابية في هذه الحياة وساخطين على حياتهم المنكسرة من شدة الاستياء رأيت منذ قليل مثل هذه النماذج والنوعيات من الأشخاص يسيرون على حافة الرصيف على جانب الشارع وندف الثلج تتساقط فوق رؤسهم لا يرتدون قبعة ولا غطاء للرأس ليستروا به رؤسهم العارية لكنهم يحاولون أن يدفنوا رؤسهم داخل معاطفهم البالية لا يظهرون من وجوههم

سوى اعينهم الحزينة المنكسرة التي لم يتبق منها سوى التجاعيد ويحيط بها السواد الحالك من فرط السهر والبكاء والأسى الذي تعرضوا له خلال حياتهم رأيت كل هذا في لمح البصر بمجرد استراقي لنظرة سريعة وقعت على عينيه مباشرة رأيت من خلال هذه النظرة السريعة شتى ما تعرض له من مآسي وآلام في هذه الحياة ومن شتى الانكسارات انكساراً تلو الآخر إن هذا النوع البائس من أنواع البشر يصل إلى أشد حالات انكساره ويتحمل كل صنوف العذاب من الفقر المدقع وفاقة العيش وهو في اشد حاجاته إلى من يحتضنه ويحتويه وألا يتركوه بمفرده فيصل به الأمر إلى إنهاء حياته التي يراها بائسة ومن الممكن أن تكون في نظره غيره جميلة بل شديدة الجمال والرفاهية أنهم الأشخاص أصحاب الرفاهية لا يشعرون بجروح الأشخاص الآخرين مثلهم كالذي كان ينظف ويلمع حذاؤه منذ قليل وهو يرتدي بذلته الرسمية الأنيقة والفارهة ذات اللون الرمادي بأزرار مذهبة ومعطف أسود حالك لا يشوبه شائبة بقلنسوة تحتوي على فراء فاخر وحده الله يعلم من أي فراء صنعت، يرتدي ثيابه الفاخرة وهو دافئ بداخلها ومطمئن على حياته السعيدة وعلى حياة من يخلفه من عائلته يؤمنوا مستقبلهم ومستقبل عائلاتهم وغيرهم من البشر في ضنك ومرارة العيش رأيته بوجهه الدائري ذو اللون الأحمر القاني كأنه يقطر الدم من وجهه ويبدو على وجهه إمارات السعادة والحبور من يعلم ربما لم يكن سعيداً فقط لأنه أفرط من شرب الخمر ربما تجده ثملا وأخذ منه الشراب كل مأخذ ووصل إلى مرحلة النشوة أو ربما أنا أراه هكذا ويبدو لي في مثل هذه الحالة البهجة لربما ينظر إليه غيري ويجده في حالة من البؤس الشديد أو كما ذكرت آنفاً بأنه من الأشخاص الذين يجدون اللذة والنشوة في أي امر من الأمور حتى في أسوأ

حالاتهم لقد رأيت في هذا الشارع جميع صنوف البشر واكثر الاشخاص الذين كانوا يثيرون شفقتي عليهم هم الأشخاص المتشردين الذين لا يوجد مكان يأويهم ويحميهم من هذا البرد القارس يا رباه! إنها من الأمور الفظيعة التي يقطر القلب عليها دماً قبل أن تدمع العين إن اشد الناس بؤساً هم من لم يجدوا مكاناً يلتجئون إليه ويحتمون فيه إن لي أمنية اطلبها من الله وأتمنى أن تتحقق لي في يوم من الأيام أن يكون لدي ملجأ كبير جداً يتسع لجميع المتشردين ممن لا يملكون شيئا في هذه الحياة ولايملكون المال الكافي الذي يسد رمقهم لشراء جميع صنوف الطعام والكساء وكل المتطلبات ووسائل الراحة لهم التي هي من حق كل إنسان وأجمعهم لا ابقي أي أحد منهم في الشوارع الموحشة الباردة وانتشلهم من بين أفرشة الثلج والصقيع التي ينامون عليها ويتلفعون بها مثل الأغطية سأقدم لهم الشاي الساخن والوجبات الجيدة واجعلهم يتلفعون بأغطية وشراشف دافئة وأقص لهم شعر رؤوسهم وذقونهم الشعثاء وأغير لهم ثيابهم المتسخة والبالية المهترئة، بحق أنه شيء في غاية الروعة أن يجد الانسان شيئا من الغبطة واللذة في عمله الإنساني الشريف وفضيلته ولكن هل أفعل هذا الشيء لمصلحتي الشخصية أم لشدة حبي للفضيلة؟

لا أعلم ربما افعل هذا الشيء ليس سوى لمصلحتي وفائدتي لا يعلم إلا الله ما في النفس البشرية وطبائعها وغاياتها سواه أنه جنون محض فكيف لي أن أساعد جميع المتشردين والمعدمين أساعدهم وحدي؟

كلا لا أظن بأنني أستطيع فعلها وحدي إنها غاية بعيدة وصعبة المنال، ولكن ليس هم فقط فهنالك الحوذيين فهم لا يقبضون من المال سوى بعض كوبيكات حقيرة لا تساوي شروى نقيرا فهم يتحملون جميع صنوف

العذاب والبرد الشديد وكذلك التقريع والبصق عليهم في اغلب الأحيان ومع كل ذلك لا يحرك الحوذي ساكنا ولا ينبس ببنت شفة، أرجو منك أيها القارئ العزيز أن تغفر لي على سردي وانتقالي إلى مواضيع ليس من ورائها سوى البؤس ولكن ينبغي أن أبين لك يا سيدي الكريم جميع الحقائق في هذا العالم الموحش وليس هؤلاء فقط فهنالك امرأة عجوز بلغ منها الكبر والكهولة بشكل مفرط رأيتها تعبر جادة الطريق بخطى متثاقلة مستندة على عكازها، يا إلهي كم حزنت عليها حينها فصعوبة مشيها تدل على صعوبة حياتها التي عاشتها كم تحملت من عناء الأيام والليالي الطوال لكي تصل إلى هذه المرحلة التي هي عليها الأن من التعب والإرهاق كم تحملت من عذاب وكم سوف تتحمل بعد ذلك فعلاً هؤلاء من يحتاجون إلى الإنسانية بحق ويستحقون أن يعاملوا بلطف وإحسان، أما الأطفال الصغار المعدمين في هذه الحياة أنه ليحزنني ويؤلم قلبي عندما أتحدث عنهم واتذكرهم يا إلهي فقد رأيت منظرا يدعو إلى الحطة فهنالك مجموعة من الأطفال الذين كان لا بد لهم من أن يكونوا أبرياء رأيتهم يتراشقون كلمات نابية ويبصق أحدهم على الآخر يرتدون أسمال مهترئة وممزقة يا إلهي إلى أين ستؤول بهم الحياة سيصبحون مشردين حين يكبرون ويشتد عودهم لا مناص في ذلك، إلى هنا سأكتفي بالحديث عن هؤلاء البائسين وأتوقف عن الإسهاب في حديثي الذي لا طائل من ورائه وسأتحدث عن حالة الشارع المزرية بعماراته المتداعية التي تكاد أن تسقط وروائحها من الداخل العفن والعطور التي تخرج إلى الشارع بمجرد المرور من جانبها وبأقبيتها التي يسكنها الناس والأوساخ المرمية على حافات الطريق والأرصفة التي لا يكاد يلاحظها أي فرد من الناس إنها الحالة الأشد سخطاً بالنسبة لي إنها

الوضاعة والصغر الذي يصل إليها الإنسان والتي تبلغ به أشد حالاتها وأوج عظمتها أنه الإنسان الذي يستحق أن يبصق عليه فعندما يقوم برمي المخلفات والأوساخ في الأماكن العامة فلا أملك من كلام أوجهه إلى هذا الشخص أنه ليس شخصاً ستصبح الدابة أفضل منه بكثير لقد أعطانا الله العقل وميزنا فيه عن سائر الكائنات ولكن حين يفعل الإنسان مثل هذه الأفعال المشينة فسيتجرد من عقله قطعاً، من المحتمل أنه يحمل عقلا داخل رأسه اللعين ولكنه ليس سوى حشرة صغيرة لا فائدة منها ولربما يكون لها فائدة في بعض الأحيان، لا يمكن أن أصف هذا الشخص حتى بأحقر الأسماء التي على وجه الأرض وأكثرها بشاعة حتى أنه لا يمكن أن تنعته بكلمة إنسان فهذا الشيء لا يمت له بصلة وستعاتبك هذه الكلمة لأنك وضعتها على من لا يستحقها هي كلمة كبيرة وهي فقط للذي يحمل صفة الإنسانية في قلبه ويحترم بيئته التي يعيش في كنفها والتي تحتضنه، إلى هنا وصفت ما وقعت عليه عيناي ولكن لا فائدة مرجوة من وصف الأشياء في هذا الشارع البائس، ولماذا بائس؟ ربما في نظري بائس ولكن في نظر غيري جيد، هذا ما تعودنا عليه نحن بنو البشر فنحن لا نحصي غير مآسينا وبؤسنا وشقائنا ولكن لو نهضنا وبدأنا بإحصاء فرحنا وحبورنا واللحظات السعيدة من حياتنا فسنرى ما هو العجب بأم أعيننا، نحن مليؤون بالنعم التي لا نستطيع أن نعدها ونحصيها ولكن لا يقنع الإنسان أبدا بما لديه من هذه النعم، يا إلهي، تحدثت بشكل مطول وأسهبت في حديثي، ولكن ما هذا الذي أقوله لكم؟ هل أقوم بتوجيه النصح إليكم؟ يا لي من شخص أحمق آوه يا إلهي! اغفروا لي خطئي لأن ذاكرتي عادت لي كدت أن أنسى في هذه اللحظات وتذكرت بأنني إنسان... يتبع

الفصل الثاني

شارع ينفسكي

متجر فلاديمير للكتب

الحادثة...

01:00 PM

في هذا اليوم سأروي لكم حادثة ومنظر يحبس له الأنفاس ومن هنا تبدأ المغامرة الحقيقية وحكايتنا التي سنرويها في نفس الشارع الذي ما يزال زاخراً بشتى أنواع البؤس إضافة إلى حالة الشارع المزرية التي ذكرناها فيما مضى، لقد رأيت حادثة سرقة آه! ولكن ما أكثر حالات السرقة في أيامنا هذه ولكن أي سرقة سوف أتحدث عنها إنها عجيبة وتثير الاستغراب، سرقة متجر للكتب هه هه أليس هذا شيئا يدعو إلى الضحك، لكني لا أستغرب ذلك خاصة وبالنظر لصغر سن السارق، إن أي شيء في هذه الحياة متباين ومختلف من شخص إلى آخر إن شيئا كهذا يبدو لي ممتعاً على الرغم من إنني في بادئ الأمر شعرت بالإحباط وانتابتني نوبة من الغضب والامتعاض وشعرت بانقباض في صدري وبدوره أصبح يضغط على قلبي وانحبس لها نفسي، يا إلهي ماذا حدث لي وقتها، ولكن من المحتمل إن بعض الناس يرون هذه الحادثة على إنها فسوق وتشرد

ويرونها بعين بغيضة تقدح شرراً وهو ليس إلا بالصبي الصغير حتى أنهم يقومون بازدرائه ويرون أنه صبي مشاغب وأنه لص كبيروقح يثير المتاعب ويستحق أن يعاقب ويصفع على وجهه، سأمضي قدماً في سرد سير أحداث السرقة التي هي في نظري عفوية ولا يوجد هنالك ما يثير الاستغراب فيها سأتوقف هنا لوهلة لكي أصور لكم الأحداث والفوضى التي حصلت في الشارع بأدق وكامل تفاصيلها خطوة على اثر خطوة وأجعلكم تغوصون في أعماق الحادثة وتفاصيلها كما لو كنتم حاضرين هذا المشهد، هنالك على جهة الشارع من اليمين يوجد متجر لبيع الكتب أنه المتجر الوحيد الموجود في هذا الشارع وكان القراء متوفرين بكثرة آنذاك وينثالون عليه من كل حدب وصوب كان يبيع بشكل جيد ناهيك عن موقعه الجيد بالنسبة للشارع بين المحلات التجارية وكونه في شارع نيفسكي الذي يعج بالمارة من أمامه، كان المتجر يشغل الطابق الأرضي من العمارة التي تحتوي على طوابق كثيرة، يحتوي المتجر على نافذتين كبيرتين مطلتين على الشارع وتشغل طرفي العمارة بشكل أفقي على جميع مساحة العمارة من بدايتها لغاية انتهائها كانت النوافذ مصنوعة من الزجاج السميك المقاوم للصدمات ولكن لكون هذه النوافذ قريبة من سطح الأرض فأنها كانت دائماً عرضة للكسر بسبب المسافة التي تفصل بينها وبين الأرض أما النافذة التي على جهة اليمين هي أوطئ من النافذة التي على جهة اليسار ومعرضة لخطر الكسر أكثر من التي على جهة اليسار فالنافذتين تبدوان للشخص الذي يحاول دخول المتجر غير متساويتين في الارتفاع مطلقاً، أن سبب عدم تساوي الارتفاعات بين النافذتين يرجع إلى وجود مكتبة خشبية صغيرة مؤلفة من أربعة رفوف قام صاحب المتجر بوضعها تحت النافذة التي على

اليسار لكي تصبح تحت رؤية الناس المارين من أمام المتجر، يبدو لي أن عدم تساوي ارتفاعات النافذتين تعود إلى مصادفة تثير الحفيظة، تتألف المكتبة الخشبية من أربعة رفوف زاخرة بشتى أنواع الكتب المجلدات الكبيرة ذات الأحجام الضخمة ومن بين هذه المجلدات مجلد وحيد يبرز من بين جميع ما يوجد على هذه الرفوف فبمجرد إلقاء نظرة سريعة على هذه الرفوف يمكنك تمييزه بشكل غاية السرعة كانت النافذتان نظيفتين ومصقولتان للغاية أما واجهة العمارة فهي مبنية من أحجار صلدة ومطلية بدهان بني غامق اللون لم يسبق لي أن رأيت عمارة بهذا الجمال الأخاذ وعلي الرغم من جمالها إلا أنها تبدو بسيطة في بنائها ومبتذلة للعيان، يقع باب دخول المتجر في المنتصف بين النافذتين وهي باب خشبية ذات نافذة في نهايتها العلوية مقسمة إلى أربعة أقسام متساوية وزجاجية وتحتوي كذلك على جرس رنان في الجهة العليا يمكنك سماع صوته بمجرد فتح الباب وغلقه وضعه صاحب المتجر ليتمكن من سماع صوته عند دخول وخروج الزبائن، أما من داخل المتجر لا يقل روعة وبساطة عن خارجه كانت هنالك رفوف خشبية ضخمة على جانبي المتجر وعلي طول جدرانها الجانبية تحتوي على أكداس زاخرة بالكتب مرتبة بعناية كلها رتبت بواسطة صاحب المتجر، كان هنالك سلمين مصنوعين من الخشب بارتفاع ثمانية أقدام والشيء الذي يدعو للتعجب أنه سلم يحتوي على عجلات من الأسفل لسهولة نقله من موقع إلى آخر داخل المكتبة يبدو أن فكرة صنع السلمين هي من وحي خيال صاحب المتجر وذلك بالنظر بتقدمه في السن وعدم مقدرته على التحرك والقيام بأعمال مرهقة تدعوه إلى المرض الشديد، كانت الفسحة المتبقية في وسط المتجر واسعة

ويوجد هنالك عمود يظهر في المنتصف ويصل علوه إلى سقف المتجر مصنوع من الأجر أبيض ناصع اللون ومزخرف بصورة أنيقة على الطراز الكلاسيكي القديم يسلب اللب يحيط بالعمود من جميع جهاته وبشكل دائرة كاملة طاولة خشبية مثقوبة من منتصفها لكي يظهر العمود من خلالها وتترتب حول هذه الطاولة مجموعة من المقاعد الخشبية ما يقارب عشرة مقاعد ونيّف كلها مصنوعة من خشب شجرة البندق ومكسوة بغطاء جلدي أسود، توجد على الطاولة جميع مستلزمات القراءة والكتابة الضرورية من المحبرات والأقلام وريشات الكتابة وأنواع من الأوراق المختلفة وأشياء غيرها من اللوازم، أما بالنسبة للوحات والأيقونات المبتذلة التي يضعها أصحاب المتاجر لم يضع صاحب متجر الكتب أي منها واكتفى بوضع أوراق الجدران ذات لون بني غامق لكي يتلاءم لون الجدران مع بقية أثاث المتجر وأيضا من باب اللياقة والكياسة المتبعة، وقف صحاب المتجر كعادته منتصباً ويحمل بيده فرشاة لتنظيف الغبار والأتربة التي تتراكم على الكتب والرفوف، أنه رجل يبلغ سنه سبعون عام ولكنه لا يزال محافظا على قوامه الممشوق وقده المعتدل ووفاره الخارجي باستثناء سقمه الذي كان يعاني منه في مفاصل قدميه لتقدمه في السن ليس إلا، كان يرتدي بذلة رسمية أنيقة ذات لون بني غامق مع ربطة عنق خمرية وحذاء مصنوع من الجلد الأسود اللامع وقفازين بيضاوان ناصعان فهي من العادات التي اوجبها على نفسه صاحب المتجر لأنه يظن أن نظافة الكتب تأتي من عدم لمسها بصورة مباشرة باليد لأن ذلك يؤدي إلى تلف الكتب،

يدعى صاحب المتجر فلاديمير وهو رجل طويل القامة أطول بشيء قليل من طول قامة الرجل الاعتيادية رغم كهولته ففي أغلب الأحيان عندما

يدخل عليه زبون لشراء بعض الكتب ويقوم باختيار كتاب قصي عن متناول اليد بغض النظر عن الرفوف المرتفعة فهي تحتاج إلى السلم فإن باستطاعة فلاديمير أن يصل إلى الكتاب من دون شعوره بأي عناء وأيضاً من غير أن يستعين بالسلم المتحرك فهي تستخدم فقط للوصول إلى أعلى نقطة أي أبعد رف من الرفوف وكذلك لتحريكها بسهولة وعدم بذل أي جهد يسبب إلى فلاديمير ألم في مفاصله لأنه كما تعلمون كل شخص في مثل عمره لا بد أن يصاب بالتهاب المفاصل المقيت ويضيق ذرعاً أثناء حمل السلم خلال فترات التنظيف الدورية، ولكن ما باليد حيلة يمكن أن يقوم بها فلاديمير لأعانته في متجره الواسع، يملك فلاديمير وجها بيضويا ذي بشرة بيضاء بعض الشيء بشعر رمادي كثيف ومجعد يضع علي أنفه الطويل المدبب النهاية نظارة ذات إطار مذهب يحدق من خلالها بعينين نصف مغمضتين ويضع في ثغره الصغير الباسم غليونه الذي كان لا يدخن فيه فقط يضعه بين أسنانه وشفتيه، أن فلاديمير رجل امرد يحلق ذقنه باستمرار ويملك شاربا كثيفا مدببا من نهايته فحينما يتكلم يبدأ نهاية شاربه بالاهتزاز إلى الأعلى والأسفل أنه شيء يدعو إلى الضحك، ولكن مهلاً، آوه يا إلهي! لقد مضيت في شرح تفاصيل كثيرة واستطردت في كشف مطول للغاية ولم أتذكر الحادثة أرجو منك أيها القارئ أن تغفر لي سهوي، ولكن لماذا تغفر لي لقد جرى كل شيء على أحسن حال لأنني ذكرت مسبقاً ووعدتكم بشرح ووصف الحادثة التي وقعت بأدق تفاصيلها لكي يتسنى لحضراتكم احتواء الموضوع من جميع جوانبه والتعرف عليه من جذوره، في أثناء انشغال صاحب المتجر فلاديمير بتنظيف متجره من إزالة الأتربة والغبار من فوق كتبه ورفوفه

تعود فلاديمير على أن يفعل هذا بشكل يومي تقريباً من دون أن يصيبه الملل أبداً، كانت الأجواء هادئة وساكنة في الخارج ولكن الطقس ينذر بالسوء وذلك لشدة قوة هبوب الرياح وتحسباً لمثل هذه الظروف المضطربة وسوء أحوال الطقس وضع فلاديمير قطع من الأكياس الشفافة فوق الرفوف الخارجية التي توجد خارج المكتبة لكي لا يصيب الكتب أي مكروه وتلف بسبب الأحوال الجوية وقام بعمل شق طولي في الكيس لكي يتسنى للزبون القادم لشراء الكتب من الرفوف الخارجية بإخراج الكتاب ليتفحصه، وقف صبي صغير يبلغ سنه تقريباً تسعة أعوام أمام متجر فلاديمير ويقترب من الرفوف الزاخرة بالكتب والمجلدات والتي تقع أسفل نافذة المتجر يحدق إليها ومكث أمامها لا يحرك ساكنا وهو غارق في تفكيره يبدو عليه من الخارج بأنه صبي هادئ ولكن في دخيلة نفسه هنالك صراعات لا يعلم بها إلا الله ويبدو عليه التوتر وهو فاغر فمه يتفحص الكتب وينقل بعينيه ذات اليمين وذات الشمال والعرق يتفصد من على جبينه ومن ثم يسيل على صدغيه على الرغم من شدة برودة الطقس وسرعة الرياح الهوجاء كان وجهه الصغير شاحب شحوب الموت لا يوجد فيه قطرة دم واحدة ويبدو عليه الوجوم الشديد كأنه ينتظر حدوث شيء ما أو أن يفعل هو شيء ولكنه في حالة من التردد وهو خائف من حدوثه ويرتجف قليلاً ويتنفس بصعوبة بالغة كأن هنالك شيء ما في سقف فمه لا يدعه يتنفس بصورة طبيعية حتى أنه لا يمكن لأي شخص من الأشخاص أن يفسر ويشرح حالته النفسية التي يمر بها الصبي في هذه اللحظة ولا يستطيع أن تسبر غور ما يعتمل في خبيئة نفسه وما ينتابه من شعور داخلي يمر به ولكن من مظهره الخارجي يتبين بأنه يمر في مأزق

محتوم يلتفت يمينه وشماله ومن خلفه كأنه يتحدث إلى ذاته هل أخذه أم لا؟ إنني لا أملك المال،

ولكن ماذا سيحصل إذا أخذته؟ هل سوف أعاقب بشدة علي فعلتي هذه؟ ربما سيقتص مني، ماذا سأخبر أمي حين أعود؟ كانت أفكار الصبي مشوشة ومبعثرة داخل رأسه ويمر بصراعات داخلية بين ما يمتلكه من خير وشر وبين الفقر المدقع الذي هم عليه هو وعائلته أنه يفكر بالمخاطر الناجمة عن الموقف الذي سيمر به وهل سينجو أم لا؟ وما الفائدة التي سيجنيها من كل هذا الشيء،

أن دماثته خليقة بطبعه لأن قارئ الكتب حتى وإن كان صغيرا في السن يكون ذو أخلاق وإنسانية وفضيلة صقلت بواسطة قراءته لهذه الكتب إنها حقيقة لا مناص فيها رغم قسوة الحياة ورغم جميع الألم الذي في داخله الذي تضخمه حقيقة واقعه المر عندما تحدق إلى وجهه الطفولي المليء ببراءة الأطفال والبؤس والحزن معاً ينتابك شعور بشدة الألم الذي يعتصر قلبه الصغير وكل ما تحمله من أعباء في هذه الحياة، يا إلهى! كم الحياة قاسية يا للهول، وقف الصبي ببدنه وقده النحيل وعظام وجهه البارزة وطوله الفارع الذي لا يتناسب مع سنه الصغير ناهيك عن وجهه الناعم والمعتدل ذي البشرة البيضاء ولكن يشوبه الشحوب وشعره الأحمر المجعد الطويل الذي ينسدل على أذنيه ورقبته الطويلة ويظهر من تحت غطاء رأسه البالي مصنوعة من القماش أسود اللون وذات مربعات تحتوي على ثقوب من جهتها الخلفية ويرتدي قميصاً أبيضاً وبنطالاً بنياً بحمالة حمراء قانية وجزمة مطاطية حمراء أيضا،

كان قميصه بالي إلى درجة أن لونه أصبح بمرور الوقت يبدو ويعطي

لون مائل إلى الصفرة، وجهه بريء حسن المحيا ووسيم كانت عيناه واسعتين وزرقاء صافية كزرقة السماء وحزينة نوعاً ما وعليها حاجبين كثيفين مطابقة للون شعره وحتى رموشه ويمتلك أنفا صغيرا وناعما وفما كبيرا بشفاه باهتة وبارزة بشكل ملحوظ، أن مظهر الصبي يدل على أن أصوله من الأصول الاسكتلندية أو الايرلندية وإن تساءلت عن اسم الصبي فأنه يدعى (الكسى أليوشا الصغير)،

مكث الصبي أمام رفوف المكتبة الخارجية للمتجر إلى ما يقارب خمس عشرة دقيقة وهو يمحص بنظره المجلدات الكبيرة والجميلة المعروضة من خلال عينيه الواسعتين ويبدو عليه الوجوم الشديد، بدأت راحتا يديه تتعرقان وركبتاه تصطكان بصورة متدرجة وبدت ضعيفتان شيء بعد شيء أما ذراعاه فأخذت تثقلان بعض الشيء أنه اثر فعل الخوف المفرط أصبح يعاني من جرائه صعوبة في البلع بسبب جفاف حلقه يحاول رفع يده لالتقاط كتاب ما من بين هذه الرفوف ولكن قوته لا تسعفه ربما يفكر داخله ويقول سأجرب مرة أخرى رفع يده اليمنى وهي ترتجف خائرة القوى كأنها كانت تحمل أثقال منذ مدة ليست بعيدة اقتربت يده من الكتاب شيئاً فشيء أن عقارب الساعة تركض، مسك الكتاب أخيرا، انتهى الوقت، أصبح الكتاب الكبير الآن في متناول يديه الناعمتين شعر بثقله لم يكن يتصور بأن وزنه ثقيل إلى هذه الدرجة أنه مجلد ضخم غلافه الخارجي مصنوع من الجلد الأسود ومزخرف بخطوط ذهبية اللون انتهت الموجة لديه الآن عاد إلى الواقع وتوقف الوقت بالنسبة إليه أصبح رأسه فارغا من التفكير في الوقت الراهن جف عرقه من على صدغيه و كفيه أصبح جسده الآن باردا كالثلج وانتابته قشعريرة في جسده الواهن اصبح لا يشعر بأطرافه

أراد أن يعيد شتات روحه التي تبعثرت انه يمر الأن بحالة من أحلام اليقظة، وقف الصبي في مكانه لا يبارحه أشبه بتمثال قاموا بتحنيطه لا يعرف ماذا يفعل وانقلب العالم الذي حوله اصبح كل شيء بالنسبة إليه بلا الوان كأنه فقد حواسه جميعاً اصبح الصبي الصغير من دون شعور وبشكل مفاجئ في اقل من لمح البصر عاد إليه شعوره وحواسه وشعر بشيء قوي يمسكه من كتفه الصغير الضعيف وبدأ يهزه بكل قوة وفي هذه الأثناء شعر بيد كبيرة تمسكه من الخلف وأخذت تؤرجح ببدنه الهزيل بشدة وبعد ذلك رفعت اليد من على كتفه وسمع صوت حاد يزمجر من خلفه ويقرعه هيه أنت ماذا تفعل أيها الحشرة الصغيرة؟ لماذا أنت واقف هنا؟ هيا اجب يا دودة الأرض، وما هذا الكتاب الذي تحمله بين يديك؟ اعده إلى مكانه على الفور واشرح لي كل شيء هيا والا القيت القبض عليك في الحال لم يتمكن الصبي أن ينبس ببنت شفه وقبل أن يبادر الصبي بالإلتفاف إلى الخلف شعر بأنه لا يستطيع أن يثبت في مكانه من فرط الخوف ووجهه شحب شحوب الموت أراد أن يتوقف قلبه في هذه اللحظات التعيسة التي يمر بها لم يتحمل الصبي مثل هذه المواقف وعاد يتنفس بصعوبة بالغة وبدأ يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ولم تعد قدميه تحملانه بعد الآن، استدار الصبي ببطيء شديد وهو يحدث نفسه ويقول يا إلهي سوف أتلقى صفعة على وجهي حين أستدير، ماذا افعل الآن؟

بعد أن التفت للخلف لم يتمكن من رؤية شيء سوى الزرقة الداكنة لبزة رجل الأمن تحجب عن الكسى معالم الشارع من خلف الرجل كان جسد الرجل يحجب كل شيء من حول الصبي رفع الكسى رأسه للأعلى بصعوبة ونظر في عيني الرجل الضخم وجده يقدح الشرر من عينيه، وعندما أراد أن

يبدأ بتبرير موقفه إلى رجل الأمن شرع بفتح فمه لكن الكلمات ترفض أن تخرج شعر في تلك اللحظة بغصة في أعلى فمه وبدا يبلع لعابه بصعوبة شعر بالعطش وتيبس حلقه من داخله، تكلم الكسى ولكن بصعوبة أاااانا، سيدي، أنا للللم سيدي لم أقصد، عفواً لم أفعل أي شيء تلعثم الكسي في كلماته من جراء مباغتة رجل الأمن المفاجئ له وهو ما يزال يحمل المجلد الكبير بين يديه الصغيرتين، ارتجف جسد الكسى الصغير النحيل وقام وأفلت الكتاب من بين يديه وبسرعة البرق خفض جسده ويده نحو الأرض استطاع أن يحمله مرة أخرى وأعاده إلى مكانه المخصص داخل الرفوف الخارجية للمتجر وبشيء من السرعة ولكن بعد فوات الأوان تمكن صاحب المتجر فلاديمير من رؤية يد الصبي الصغير وهو يسحبها نحوه إلى الخلف لقد رأى فلاديمير هذا الشيء من خلال النافذة ولكن عينيه اقتصرت على رؤية علوية فقط لم يتمكن من رؤية كفي الصبي وما كان يحمل بهما، ولكن رغم هذا انتاب فلاديمير الشك ليس فقط من الصبي الذي يقف أمام متجره ولكن أيضا من رجل الأمن الذي يقف على رأس الصبي، اقترب فلاديمير ببطيء شديد نحو نافذة متجره الزجاجية وهو ما يزال يحمل فرشاة التنظيف بين يده وبحذر شديد حتى أنه أصبح يسير على رؤوس أصابعه ظناً منه من عدم رؤيته وهو يقترب من النافذة، يا إلهي يا لسذاجته! مد فلاديمير عنقه نحو النافذة محاولاً التقرب من الصبي ورجل الأمن إلى أقرب مسافة تفصل بينهما، لم يكن لدى فلاديمير أدنى فكرة عن الشيء الذي يحصل في الخارج والآن بدت رؤية فلاديمير أوضح من ذي قبل واستطاع رؤية كامل جسد الصبي الصغير وهو يعطي ظهره إلى الرفوف الخارجية للمتجر وبمواجهة رجل الأمن الذي يقف أمامه،

اكتشف فلاديمير الآن وبوضوح تام بأن الصبي الصغير لا يحمل بيده أي من الكتب، أصاخ فلاديمير بسمعه وحاول جاهداً أن يسترق شيء قليل من السمع من خلف نافذة المتجر إلى الحديث الذي يدور بين الصبي الصغير ورجل الأمن ولكن محاولاته باءت بالفشل ضاق فلاديمير ذرعاً وذلك بسبب الصخب وحديث الناس في الشارع،

ارتاب فلاديمير من وجه رجل الأمن الحانق ونظرته نحو الصبي باستهجان ووجه متجهم وكيف يقف وهو وَاضِعٌ كلتا يديه على خصره كأنه بانتظار حدوث شيء ما أو ينتظر شيء من الصبي لكي يخبره به كأنه يبدأ باستجواب الصبي الذي يقف أمامه وهو خائف أو شيء من هذا القبيل، رفع فلاديمير منكبيه مستهجناً الأمر بشدة وازدراء يبدو على وجهه البيضوي وقال بصوت مسموع آوه يا إلهي لا أستطيع أن استمع إلى أي شيء من حديثهما، ولكن لماذا استمع؟ الأمر ليس من شأني وعلي آية حال فإن الصبي لا يحمل بيده كتاب ولم يأخذ شيء من الرفوف لا داعي للقلق فلاديمير، فلتذهبوا إلى الجحيم قفل فلاديمير وعاد أدراجه واستأنف ما كان يؤدي من أعمال عليه القيام بها وعزم على أن لا يولي الأمر الذي يحدث خارجاً أي اهتمام ولكنه لم يتمكن من ذلك وقرر وهو يفكر داخله ويقول سأختلس النظر بين الحين والآخر لا بد من هذا أصاب فلاديمير القلق واخذ يرى عبر النافذة بين الفينة والأخرى وكلما سنحت له الفرصة خوفاً من أن تتم سرقة رفوفه الخارجية فهي ليست المرة الأولى التي يتم فيها سرقتها ولكن ما العمل لابد من أن يعرض بعض الكتب خارجاً هذا ما فكر به صاحب المتجر... يتبع

الفصل الثالث

انقشع الرعب من قلب الصبي الصغير وهدأ نبض قلبه عاد الدم يجري في عروقه وذهب تصلب جسده النحيل وعادت له الحياة من داخله، بعد أن أحدق في عين رجل الأمن بعينيه الواسعتين البريئتين وتحدث داخل نفسه أنا شخصٌ ناضج وفي مقدرتي أن أقف في وجه هذا الرجل وأتصدى له، ولكن ماذا إذا قبض على؟ ولماذا يقبض على؟ لن يستطيع ذلك أبدا، آوه يا إلهي لماذا فعلت هذا الشيء القبيح؟ استمر الكسي في ترديد هذا الكلام داخله وهو لا يزال ينظر إلى عين الرجل حتى أن رجل الأمن بدأ يشعر بالقلق والرهبة اتجاه الصبي الصغير حيث أصبحت تحيط بالصبي هالة من الوقار والثقة بالنفس حتى انعقد لسان الرجل عن الكلام تقريباً لولا أن الرجل خرج عن صمته بهذه الكلمات النابية ليتمكن من معرفة ما كان ينوي الصبي الصغير فعله لا تنظر لي هكذا أيها الصبي الوقح، لا مزيد من التلاعب هيا اعترف بالذنب الذي اقترفته حالاً، هل كنت تنوي سرقة الكتاب أم لا؟ أجابه الكسى وهو ملئ بالثقة وكأنه رجل كبير في السن أبدا يا سيدي أنا لم أقم بهذا الفعل المشين أبدا وعلاوة على هذا يا سيدي بأني لا أجيد القراءة ولا أحب الكتب فكيف لي أن أسرق الكتاب إذن!

شعر رجل الأمن بالحيرة من رد الصبي الصغير المفحم وكذلك من دماثة خلقه وأسلوب كلامه المنمق ورده المرهف الذي يوحي إلى أنه

صبي ومتعلم وجرى تثقيفه على أكمل وجه، ولكن ليس كل من هو متعلم ومثقف نستطيع أن نطلق عليه كلمة إنسان أو أنه يحمل صفاته الحقيقية فهنالك بعض الأشخاص من هم متعلمون وصلوا إلى مراحل ثقافية عالية جداً ومراتب سامية ولكن لا يستحق أن يطلق عليهم كلمة إنسان فالإنسان الحقيقي هو من يملك إحساس وشعور مرهفين ومن يمتلك هذه الصفات الحميدة فأنه يؤدي به إلى الفضيلة والعمل الحسن، ولكن ما هي الفضيلة برأيكم؟ أن بداخل كل إنسان حرب من الحروب الهوجاء وأصوات داخل رأسه وتضارب مستمر بين الخير والشر لا يهدأ مطلقاً، حتى وإن رأيته ذي أخلاق سامية وفضيلة وتجده من أفضل الأشخاص بالنسبة إلى ما تراه عيناك ويشعر به قلبك باتجاه أي شخص من الأشخاص لا بد من أن يصيبه أو يمسه ولو شيء قليل من الشرور في هذا العالم القبيح والبغيض لا يوجد هنالك أحد يعصم من هذه الشرور ينبغي أن يتلطخ بشيء منها عاجلاً أم أجلا، ولكن لم يتبق لدى الإنسان في هذه الحياة سوى شعوره وإحساسه بالفضيلة تجاه أخيه الإنسان فهي من الحواس التي وضعها الله فينا و التي لا تخطيء أبدا وجعل مكانها داخل قلب الإنسان فإن أردت أن تبت في أمر من الأمور المستعصية والتي لا يوجد لها أي من الحلول ليس عليك الا أن تستشيره وتستطيع أن تأخذ نتيجته على محمل الجد هذا هو سر هذه الحياة الوحيد، ينبغي عليك في بعض الأحيان أن تأخذ بنصيحة قلبك النابض لأنه ليس فقط مضخة للدم وان توقفت هذه المضخة عن العمل تتوقف الحياة فالقلب لديه مهام أخرى يتقنها يمكنك يا عزيزي القارئ الاستفادة منها بشكل كبير جداً فهو مركز الشعور والإحساس لدى الإنسان فإن حصل وخيرت بين أمرين اثنين فما عليك سوى أن تسأل قلبك وبكل تأكيد

سيرشدك إلى أحسن الأمرين فعندما يطمئن القلب ويهدأ لأمر من تينك الأمرين فأنا أجزم لك بأن الأمر الذي اطمأن له قلبك هو الأمر الافضل لك لا مناص في ذلك إنها هبة رائعة من الله يعطيها للأنسان،

عاد رجل الأمن من حالة الانشداه التي انتابته يدعى رجل الأمن بارثولوميو أنه رجل طيب القلب وصادق ومن حسن حظ الكسى أنه رجل طيب السمعة وهو إنسان ذو صبغة وسجية مرهفة وسيرة حميدة وهو معروف على امتداد الشارع بأكمله بحسن سيرته وعدم السكوت عن الأمور السيئة أبدا فهو يضطلع بحراسة الشارع لأكثر من خمسة أعوام متتالية لم يسئ إلى أي شخص قط فهو يجيد التعامل مع الجميع، أنه رجل في العقد الخامس من سنه قوي البنية عريض المنكبين بالإضافة إلى أنه طويل القامة ولكن محني الجبهة من إفراطه في الحراسة والوقوف طوال هذه السنوات التي تراكمت فوق ظهره لدى بارثولوميو رأس كبير بعض الشيء ذي بشرة بيضاء ناصعة وشعر رأسه الذي يمكن رؤيته من تحت قبعته فهو خليط مزدوج بين اللون الأسود والرمادي بشكل متساو يضفي على مظهره الجمال والوسامة على الرغم من بلوغه هذا السن ولكنه لا يزال في ريعان شبابه لولا هذا الانحناء الذي في جبهته وجهه العريض الذي يطفح بالدم يبدو أحمر قاني وممتلئ الوجنتين وجهه لطيف وبشوش ولو أنك نظرت إليه مباشرة فستنتابك نوبة من الضحك دون سبب لأن له محيا باسم وعينين واسعتين ذات لون بني ورموش عينيه طويلة وفوقهما حاجبين كثيفين لهما نفس لون شعره المخلوط وله أنف وفم متسق لا عيب فيهما تقريباً وهو من الأشياء التي أضافت وسامةً إلى محياه، يمتلك بارثولوميو شارباً محلوقاً بشكل خفيف ومرتب ويرتدي بزته الرسمية الخاصة به

ذات اللون الأزرق الداكن والتي تتكون من قبعة تحمل شعار فضي اللون والقميص الثقيل المزرر بأزرار ذهبية اللون يصل القميص إلى فوق ركبته بقليل وهنالك أيضا توجد أزرار على نهاية كمّيه ذهبية اللون أيضا ويوجد هنالك تطريز جميل باللون الأبيض على الياقة وحول الأكمام ويرتدي بارثولوميو قفازات مصنوعة من جلد الحيوانات لونهما أسود وحول عنقه هنالك وشاح أسود اللون مصنوعا من الخيوط الصوفية ويحمل فوق كتفه سيفه بواسطة حزام أسود مصنوع كذلك من الجلد ويضع بنطاله من نهايته السفلى داخل حذائه العسكري الطويل الذي يصل إلى منتصف قدمه أسفل ركبته وهو حذاء أسود ملمع بطريقة مذهلة حتى مع تقلب أحوال الطقس والأرض الموحلة فانه يعتني به ويجعله نظيفاً على الدوام أن بزته وأناقته تجعله يبدو على أحسن حال لأنه كان يولي اهتماما خاصا بهندامه وأناقته وقيافته العسكرية، اخذ بارثولوميو يشعر بالارتياح إلى الحديث مع الصبي الصغير بشيء يدعي للتساؤل، أن لدى الكسى الصغير سحر من نوع خاص في طريقة كلامه وحديثه مع الآخرين ربما يعود ذلك إلى فصاحة لسان الصبي وذلاقته في الحديث أو ربما شيء آخر لا يعلمه سوى الله، بعد أن نال الصبي الكسى إعجاب بارثولوميو و تغيرت تعابير وجهه إلى شيء من المرح ثم بعد ذلك تكلم الكسى مقاطعاً بارثولوميو قبل أن يشرع في فتح فمه للتكلم مضيفاً إلى حديثه أنفا عن عدم مقدرته على إجادة القراءة وقال سأخبرك بسر يا سيدي الكريم ولك أن تحكم بنفسك أن كنت أقف هنا لكي أسرق الكتاب أم لا، لقد رأيتني يا سيدي وأنا أحمل كتابا كبيرا لونه أسود هل هذا صحيح؟، سأل الكسى بطريقة عفوية وأجابه بارثولوميو بواسطة إيماءة من رأسه بالإيجاب، ثم استمر الكسى في حديثه قائلاً هل

لك يا صاحب السعادة أن تتخيل في يَوْمٍ ما مضى بأن هنالك قارئ كتب تم اعتقاله لأنه سرق احد متاجر الكتب؟ لا يمكنك أن تتصور هذا الشيء قطعاً انه ضرب من الخيال بدت ابتسامة تعلو وجه بارثولوميو وقام بخفض يديه من على خصره وأصاخ بسمعه وجميع حواسه وجهها نحو الكسى دون شعور منه،

استأنف الكسى حديثه وبدا مشوقاً إلى بارثولوميو أما أنا فأخبرتك بأني لا أجيد القراءة فكيف لي أن اسرق كتابا أن لم اعرف كيف استفيد منه وبالإضافة إلى ذلك فإن القارئ الحقيقي لا يسرق فأنى لي أن أسرق وأنا لست بقارئ أراد بارثولوميو أن ينبس ببنت شفه ولكن الكسى استوقفه وقال له أرجوك يا صاحب السعادة دعني أنهى ما تبقى من السر ولك أن تفعل بعد ذلك ما تشاء فعله فقط دعني أنهى حديثي حتى النهاية وحتى يمكنك أن تزج بي في السجن أو إلى حيث تريد لا يهمني أي شيء بعد ذلك أصاب بارثولوميو بالذهول التام لبلاغة الصبي في اللقاء الخطاب الذي دار بينهم وأصبح ينتابه الشك بأمر الصبي وأنه لا يجيد القراءة فإن له أسلوبا في الحديث والإقناع لا يمتلكها أي إنسان أخر وطريقته في سرد موضوعاته ذات الطابع الروائي التي أذهلت رجل الأمن، من الممكن أن مستقبل الصبي هو كاتب عظيم أو شيء من هذا القبيل،

في أثناء حديث الكسى شرد بارثولوميو بذهنه وبدأ يفكر ويتحدث داخل رأسه وهو يتساءل هل فعلاً ما يقوله الصبي فهو يجيد الكلام كأنه كاتب أشك بصحة ما يقوله لي، آه، يا إلهي الرحيم لا بد من وجود خطأ ما، ماذا حدث لك بارثولوميو لقد فتنت في هذا الصبي اللعين أنه ذكي جداً ومرهف الحس سأسأله سؤالاً آخر بعد واتركه يذهب في حال سبيله،

آوه، ولكن كيف لم أتذكر أن اسأله عن اسمه يا لي من وغد أحمق أجابه بارثولوميو بعد أن عاد إلى وعيه استمر أيها الصبي الصغير كلي آذان صاغية شعر الكسى بالاطمئنان لسماعه هذه الكلمات من رجل الأمن وشعر بالراحة حينما تغيرت ملامح وجه بارثولوميو وبدا عليها الهدوء ولكن في نفس الوقت بدأ الكسى يشعر بالخجل الشديد ووخز الضمير على اعترافه الكاذب وخداعه لرجل الأمن ولكن لا سبيل إليه غير ذلك فإن تم واعترف بفعلته المشينة لكان الآن في عداد المسجونين الأحداث ووضع في مأزق لا يحسد عليه، آه، يا إلهي كم هو مؤسف أن يحدث لنا شيء لم يكن في الحسبان حدوثه، والآن وقع الصبي في هذا المأزق من أفعاله التي لم يحسب لها أي حساب، ولكنه بحصافة فكرة النامي وطلاقة لسانه تمكن الكسى من التخلص من هذا المأزق الذي وقع في نصابه، والآن بعد أن أعطاه بارثولوميو الأذن بالحديث وإكمال بقية سره استأنف الكسى يقول أما الآن سأخبرك ببقية السر، سأسألك سؤال آخر يا سيدي، هل رأيت طوال حياتك أو سمعت بأن هنالك لص يقرأ الكتب؟ لا يوجد يا سيدي مهما كان الأمر ومهما حاولت أن تبحث في ذلك وهذا دليل قاطع على إنني لست بلص فأن كنت لصا كما تدعي سعادتك فتأكد يا سيدي بأني لا اقترب من ناحية الكتب لأنها لا تنفع اللص بشيء فرغ الكسى من حديثة المسهب وتمكن من أقناع بارثولوميو بحججه المقنعة وأدلته القاطعة التي لا سبيل لرجل الأمن إلا أن يصدقها ويؤمن بكلام الصبي الصغير الذي سلب له عقله، وبعد ذلك شعر بارثولوميو بوخز الضمير لتهجمه على الصبي الصغير البريء في بادئ الأمر وتوجيه التهمة إليه بقيامه بالتلصص على متجر الكتب، شعر بالأسف اتجاه الصبي البائس لزجره والزمجرة في

وجهه والان انقلب كل شيء واصبح بارثولوميو يدين إلى الصبي الصغير باعتذار لما قام به من انزال السوء عليه فكر بارثولوميو بهذا الشيء وذلك لما يحمله من فضيلة وأخلاق فاضلة فمن الضروري عليه أن يفعل شيء ما اتجاه الصبي البائس ليرمم جرح كبريائه المرهف، هذا ما كان يدور في رأس بارثولوميو وبدأ يتكلم في داخله لا بد لي من تقديم الاعتذار من الصبي وتقبيله! نعم سوف اقبله، كل هذا بسبب حماقتي التي ارتكبتها،

ولكن سأسأله فأن الحديث معه غاية المتعة وأيضا سأسأله هذا السؤال اللعين انتاب بارثولوميو الفضول الشديد وأراد أن يعلم كيف وصل الكتاب إلى يد الصبي وقرر أن يطفئ فضوله من خلال طرح سؤاله على الكسى وقال له والان يا صديقي الصغير هل لي أن اطرح عليك سؤال واحد فقط أن كان هذا لا يزعجك؟ أجابه الكسى قائلاً بالتأكد سيدي تفضل تكلم بارثولوميو والحيرة تبدو على وجهه بعد أن تأكدت من صحة أقوالك وتبين إنك تصدق الحديث معي ولكن انتابني الفضول الشديد وأريد أن اعرف لماذا كان الكتاب بين يدك؟ هل لك أن تجيبني على سؤالي هذا؟ شعر الكسى ببعض الخوف وبلع ريقه ثم استجمع كل ما يمتلكه من قوة وشجاعة وتحدث مع نفسه لا بد من إيقاف هذا الأمر والآن أما أن يزج بي في السجن وأما أن يتركني وشأني أجابه الصبي في غاية البساطة والسذاجة وقال له كل ما حدث يا صاحب السعادة كان بسبب العاصفة الثلجية والريح الهوجاء التي أدت إلي تساقط بعض الكتب والمجلدات من هذه الرفوف على الأرض وقمت بدوري بالتقاطهم على الفور لكي لا يلتهمها الوحل فحملت الكتاب الذي رأيته بيدي وهو أخر كتاب التقطته من على الأرض ومسحت الوحل بواسطة ملابسي حتى يمكنك أن تلقي نظره عليها لقد

تلطخ قميصي بشيء من الوحل أشار الكسى إلى مكان تلطخ ثيابه بالوحل وتوقف فجأة عن الكلام ونظر إلى بارثولوميو بعينين حزينتين ثم أضاف هل ستعاقبني يا سيدي أم أنك عفوت عني؟ هل ارتكبت خطأ ما من ..... أجبني أرجوك فإن أمي بانتظاري لقد أرسلتني لأحظر رغيفين من الخبز وشقيقتي الصغيرة جائعة جداً شعر بارثولوميو بحزن شديد لسماعه لما قاله الصبي عن عائلته البائسة وشدة الجوع الذي ينتابهم، فأبتسم في وجه الصبي ابتسامة عذبة بفمه المتناسق الجميل ووضع يده الثقيلة على كتف الصبي الواهن ورأى وجهه الشاحب من جراء نقص الغذاء وسوء تغذيته وربت عليه وقال له لا تقلق يا بني لن أقوم بفعل أي شيء لك وامضي لجلب ما تحتاج إليه والدتك وشقيقتك من الطعام فرغ بارثولوميو من حديثه ومن ثم دس يده في جيب قميصه واخرج خمسة كوبيكات من النقود ووضعها بين يديه وغلقها وانحنى على رأسه وطبع قبلة على جبينه جعلت الصبي يعتصر قلبه اَلْمَاً لأنه خدع جل الأمن بكل وقاحة،

استدار بارثولوميو تاركاً الصبي خلفه ووضع يده على سيفه وعاد أدراجه للقيام بما تبقى له من عمل يسترعي القيام بها لبقية يومه، وقف الكسى متسمراً في مكانه لم يبارحه واشتدت العاصفة وبدأت تضرب المكان من جميع الاتجاهات وهو ينظر إلى رجل الأمن مبتعداً عنه وفجأة استدار بارثولوميو إلى الخلف إلى حيث يقف الكسى وتوقف على البقعة التي توقف عندها ولم يتحرك ويخطو خطوة واحدة إلى الأمام جعلت الكسي في حالة من الخوف والهلع الشديد ظناً بأن رجل الأمن عاد ليقبض عليه وبدأ الكسى يحدث نفسه يا للهول! لقد اكتشف أمري، ماذا افعل؟ هل أهرب أم لم يحن الوقت بعد؟ يا إلهي ماذا افعل الآن؟ بقي الكسى

واقفاً وفجأة حدث ما لم يكن يتوقعه الكسى صرخ بارثولوميو بأعلى صوته إلى ناحية الصبي موجهاً حديثه إليه هيه أيها الصبي الصغير، ما هو اسمك يا عزيزي؟ لم يتوقع الكسى حدوث هذا الشيء وانتابه شيء من الذهول وبعد ذلك ابتسم بخوف ورفع عقيرته لكي يتمكن رجل الأمن من سماعه بوضوح وذلك لأن المسافة التي تفصل بينهما أصبحت واسعة جداً وكذلك بسبب صوت العاصفة وأصوات لغط وصخب الناس والجلبة التي في الشارع كلها كانت تمنع وصول الصوت بوضوح، صرخ الكسى وهو يضع كفيه على جوانب فمه ليصل صوته بوضوح أكثر الكسى يا صاحب السعادة اسمي هو الكسى الكسى الصغير... يتبع

الفصل الرابـع

بعد مرور ساعتين كاملتين على مكوث الصبي أمام متجر الكتب كبر الشك في قلب فلاديمير وظل يحدق من خلال نافذة المتجر لا ينظر إلى أي مكان آخر وظل شغله الشاغل وتفكيره منكب على الصبي الصغير خوفاً على رفوفه الخارجية من السرقة وأصبح يردد في دخيلة نفسه ويقول يا إلهي ماذا يفعل هذا الصبي عنده؟ ماذا يريد بحق السماء؟ أرجو أن لا يكون شكي صائباً وفي محله شعر فلاديمير بعدم الارتياح لما يحصل في الخارج وأمتلأ رأسه بالأفكار الفوضوية السيئة وبدت عليه علامات التعب واضحة واخذ الألم يدب في مفاصل قدميه لوقوفه لوقت طويل من الزمن وانهماكه في ترتيب وتنظيف الرفوف من الأتربة والغبار، اقترب من النافذة لمعرفة ما ينوي الصبي الصغير عمله و للحظة من اللحظات توقف وهو يفكر داخله ماذا لو سرق الصبي الصغير أحد الكتب من الرفوف وأخذ يجري بكل ما أتاه الله من قوة وهو صبي صغير يستطيع الجري بسرعة هائلة ليس في ذلك شك وأنا عجوز هرم لا أقوى على الجري خلفه، أذن ماذا على أن افعل عندها؟ آوه يا إلهي ما هذه الأفكار التي ملئت رأسي اللعين! فليأخذني الشيطان اتجه فلاديمير نحو الطاولة في وسط المتجر ووضع عليها فرشاة التنظيف عاد إلى حيث كان يقف وببطيء شديد هذه المرة لكي لا يشعر الصبي الصغير بأن هنالك شخص ما يراقبه، وقف

فلاديمير بمحاذاة النافذة ومد عنقه وبدا كانه كلب صغير داخل قفصه واخذ يرى وينتظر ما يحصل وهو يردد هذه الكلمات هيا أيها الصبي اقض ما جئت من أجله، امضي قدماً فيما تريد فعله هيا ماذا تنتظر؟ هيا هيا، اشتدت العاصفة في الخارج وبدأ الناس منشغلين في جمع بضاعتهم من الشارع كل شخص من الأشخاص انهمك في ترتيب أغراضه الخاصة به وبدا عليهم التوتر الشديد لم يلاحظ أحدهم الآخر فكل شخص مشغول بذاته استمرت العاصفة في الهبوب واحتدمت أكثر وأكثر وأخذت الريح تعصف والمصاريع تصطفق ومن شدة سرعة الرياح جعلت الوحل الناتج من ذوبان ندف الثلج بالتحرك مع اتجاه هبوب الرياح، ظل الكسى ماكثاً في موقعه أمام الرفوف الخشبية وهو يصارع أفكار رأسه السلبية والتي أخذت تدخل حرباً مع أفكاره الإيجابية داخل رأسه المحموم لا يستطيع أن يرسو على جهة معينة ولم يتمكن من الاختيار بين الأمرين، أن عقله الصغير لن يحتمل هذا التفكير المتناقض وخاصة عندما يتوجب على صبي صغير في مثل سنه أن اختياره بين هذين الأمرين فهو من أصعب الأمور وخاصة القرارات المشينة والتي تحمل طابع الشر في كنفها ناهيك عن أنه من عائلة بائسة ومعدمة ومحافظة على تعاليمها الدينية بصورة منتظمة، هذا ما جعل الكسي في حيرة من أمره وخوف من ما ينتظره من انتقادات وتقريع من هم اكبر منه في السن أن هو اقدم على فعل هذا الأمر الشرير، وهو يفكر بوالديه وما سيخبرهم به بعد أن يكتشفوا ما فعله من امر قبيح يجلب العار له ولعائلته المحافظة فطالما كانت والدة الكسي كرستيانا تحذره من الوقوع في شرك الأعمال القبيحة الشريرة وتخبره بأن الله لا يرضى بهذه الأعمال وسيحاسبه على كل عمل شرير يقترفه في يوم من الأيام، لم يستقر الكسى

على رأي لغاية هذه اللحظة كأنه سفينه شراعية في عرض بحر أمواجه عالية ووسط ريح هوجاء تأخذه ذات اليمين وذات الشمال فتارة يقول في خبيئة نفسه سأتناول الكتاب وليحدث ما يحدث، وتارة يقول لا يمكنني ذلك لا أستطيع فعل مثل هذا الأمر، أنه غير أخلاقي وسيعاقبني الله عليه،

ظل الكسى يتخبط كالسمكة التي أخرجوها من الماء تصارع الحياة وترتطم على الأرض من كلتا الجهتين وهي تتوق للرجوع إلى الماء ولكن لن تتمكن من ذلك أبدا،، استمر الكسي في التفكير وعينيه لا تتزحزح عن الرفوف الخشبية للمتجر وهو ينفذ بعينيه إلى داخل الرفوف بعينيه وجميع حواسه وجوارحه في حين أصبح فلاديمير صاحب المتجر أكثر استغراباً وقلقاً من ذي قبل حيث ترك جميع أعماله التي كان منشغلاً بها وانكب على إعارة اهتمامه لهذا الصبي الذي يقف الآن أمام متجره وليس لديه علم بما يخبئه له هذا البائس الصغير ذي القبعة والثياب البالية من مفاجأة وهو ينظر بعينيه الواسعتين وكأنه يرغب في التهام الكتب بنهم لم يسبق أن رأى فلاديمير كهذا الشيء من قبل، لم يتمكن فلاديمير بعد الآن من رؤية الأشياء من حوله بوضوح وبدا كل شيء من حوله إلى كصورة ضبابية فقط يمكنه رؤية الصبي بوضوح تام وفي هذه اللحظات التي أخذت من فلاديمير كل وقته وتفكيره ولم ينفك يردد هذه الكلمات ويتساءل على ماذا يا ترى ينوي الصبي فعله؟ هل حقاً سيقوم بسرقة كتاب من الرفوف؟ ولكن ماذا يفعل بالكتاب في مثل سنه الصغير؟ يا إلهي ماذا ينبغي لي أن افعل؟ هل أخرج وأتحدث معه؟ ولكن ماذا سأقول له؟ إنه ضرب من الجنون ليذهب إلى الجحيم تمنى فلاديمير في هذه اللحظة أن يسبر أغوار تفكير الصبي وما يعتمل في خبيئة نفسه وما ينوي فعله حقاً ولكنه لم يتمكن من

ذلك وظل حانقاً طوال الوقت وهو ينظر عبر النافذة وساخطاً بشدة على الصبي الصغير لا يعلم ماذا يفعل، استمر الكسى بالتحديق نحو الرفوف بعد أن حسم أمره وانتصرت رغبته في اقتناء الكتاب بعد كل هذه الصراعات الداخلية التي خاض غمارها مع نفسه قرر الكسى أن يستعيد المجلد من الرفوف وهو يردد داخله سآخذ الكتاب وليحدث ما يحدث، مضت أكثر من نصف ساعة كاملة وألكسي الصغير في خضم صراع داخلي وهو يعاني أشد العناء مما يعتمل في خبيئة نفسه، اشتدت العاصفة بشكل فضيع ولا يصدق وأخذت أغطية رؤوس الناس تتطاير في الهواء وانهمكوا جميعهم في التقاطها بعضهم استطاع أن يلتقفها قبل أن تسقط على الأرض والبعض الآخر لم يتمكن من السيطرة عليها وسقطت على الأرض الموحلة بعد ذلك التقطها من الأرض وأخذ ينظفها بيده ويعيدها إلى رأسه، نظر الكسى حوله وجال بعينيه ولاحظ بجلاء شدة هبوب العاصفة وتساقط ندف الثلج التي خلطت بقطرات الماء وبدت ملابسه وكأنها انغمرت داخل الماء وأصابها شيء من البلل، أعاد رؤيته نحو الرفوف التي أمامه لاحظ تطاير الكيس الشفاف بفعل العاصفة الذي وضعه فلاديمير حلو الرفوف للمحافظة على الكتب من التلف ارتفع الكيس إلى الأعلى كاشفاً الكتب الجميلة بصورة واضحة التي يتوق الكسى إلى اقتنائها وبدا منظرها لا يقاوم بالنسبة إليه، وبشكل مفاجئ سقط غطاء رأس ألكسي على الأرض بجانب الرفوف انحنى ألكسي للأسف ليلتقطها موجهاً نظره نحو الأرض وبدأ يردد داخله إنها فرصتي الوحيدة الناس منهمكون في هبوب العاصفة ولن يلاحظني أي شخص حين التقط الكتاب من الرفوف واهرب بعيداً سيظنون بأني أهرب خوفاً من العاصفة،

رغم صغر سن ألكسي الذي لا يتجاوز العاشرة إلا أنه يملك عقلاً وتفكيراً لا يملكه إلا الأذكياء والعباقرة من الناس إنها قراءة الكتب يا ساد فبعض الكتب تجعل من الشخص ذكياً بما يكفي وذو عقل في غاية الدهاء والمكر بغض النظر عن سنه الصغير وتتم صقل شخصيته بشكل ملحوظ،

أن القراءة شيء تراكمي تتصور أنك تقرأ ولا تفهم مما قرأته أي شيء وتتساءل بين نفسك هذا السؤال المبتذل ماذا استفدت من قراءتي لهذا الكم الكبير من الكتب؟ ولكن يا عزيزي سأخبرك بأنك استفدت من قراءتك بصورة كبيرة ولكنك لن تلاحظ هذا الشيء فقط من خلال طريقة تفكيرك وعقلك المنفتح وطريقة حديثك مع الآخرين فهي تقوي لغتك وتنمي عقلك بشكل يدعو للحيرة والاستغراب فهي مثلها مثل الطعام الذي تتناوله فسرعان ما يدخل إلى جسم الإنسان فيتحول إلى طاقة كبيرة تتوزع إلى كامل جسده ولكنه لا يعلم هذا الأمر ولا يعيره الاهتمام الخاص، فوراء كل كتاب تقرؤه فكرة معينة وحكمة يمكنك تعلمها وكل حكمة تتعلمها تؤدي إلى بناء شخصية مصقولة من الداخل والخارج ومن جميع النواحي العملية والفكرية، القراءة كالبناء وكل كتاب تقرأه هو بمثابة حجر تضعه لبناء بيت أو صرح كبير وبالإضافة إلى إنها علاج روحي وعقار من العقاقير النفسية التي تعالج حالات الاكتئاب والوحدة فلن تشعر بالوحدة مطلقاً وأنت تحمل كتابا بين يديك فالقراءة هي غذاء للأرواح المنكسرة الوحيدة فكل شيء يمكنك تعلمه عن طريق القراءة فهي كبحر من المعلومات الوفيرة تجعلك شخصاً يعرف ذاته ومن يعرف ذاته سيعرف كل شيء عن هذه الحياة بأسرارها ومكنوناتها الداخلية التي لا يرفع عنها الغطاء إلا لمن عرف نفسه، لا يمكنني أن أنهى الشرح عن هذا

الموضوع الحساس فأنه من المواضيع المثيرة للاهتمام كما انني لا أستطيع إكمالها بأسطر ولا صفحات من الورق ولاحتى بمجلدات ولن أتمكن من معرفة كل شيء فالعالِم هو من تعلم شيء عن كل شيء وذلك من خلال انتقائه المعلومات والموضوعات الأساسية والرئيسية التي تنفعه في حياته العملية بغض النظر عن تخصصه هذا هو التعريف المبسط للإنسان الذي يدعى بالعالِم، لنعد الآن إلى ألكسي الصغير فبعد أن رفع جسده للأعلى والتقط قبعته وأعاد ارتدائها مرة أخرى أصبح أمام النافذة التي يقف عندها فلاديمير وينظر من خلالها بعينيه النصف مغمضتين وهو يتفحص ألكسي عن كثب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، شعر ألكسي بأن هنالك عيناً تراقب تحركاته توجه نحو نافذة المتجر وجد صاحب المتجر يلتهمه بنظراته التي تحمل كمّاً هائلا من السخط نحوه وهو يضع غليونه بين شفتيه بصورة جانبية ويقف بصعوبة متكئاً على حافة النافذة بواسطة يده، أصاب ألكسي توتر شديد وشعر بالخوف وهو يردد في داخله آوه! يا إلهي لقد كشف أمري، ماذا افعل الآن؟

وبشكل مفاجئ ومن دون سابق إنذار توجه ألكسي بعد أن استجمع كامل قواه نحو الرفوف وسحب الكتاب من مكانه المخصص وبكل وقاحة وأمام مجال رؤية صاحب المتجر الذي أصابه الذهول والخيبة وحمل الكتاب بين يديه الصغيرتين وضمه إلى صدره الصغير واستدار إلى الخلف تاركاً المتجر وراء ظهره وغرق بين حشود الناس ولم يتمكن بعدها فلاديمير أن يتتبع اثره فقط تمكن من رؤية وجهته والان شعر فلاديمير بالإحباط الشديد ولا يمكن شرح ما انتابه في هذه اللحظة بالذات من شعور بالاسى على ما فقده حتى انه في بادئ الأمر لم يصدق ما رأته عيناه

وظن بأنها أفكار وتصورات من عقله الخرف المحموم ولكن هذا ما حدث فعلاً وسبق كل توقعاته وتمكن أخيرا من استيعاب الموقف وتقبل ما حدث في هذه اللحظة الراهنة وبدأ يرتجف ويهتز كامل جسده كأنه أصيب بحمى قوية أراد في هذه الأثناء أن يتحرك من مكانه ولكن الأرض ترفض أن تترك قدماه كأنها أمسكت بهما وترفض أن تفلتها ومن شدة ما أصابه الموقف من صدمة جعلته يفتح فمه على مصراعيه فوقع غليونه على الأرض وحاول جاهداً تحريك قدميه وأخيرا تحررت ولكنه شعر بوهن شديد فيهما حاول جاهداً مقاومته لأنه يتوجب عليه ذلك فهو يحب كتبه حباً جماً واكثر من أي شيء أخر في هذه الحياة، توجه فلاديمير إلى ناحية باب المتجر الذي يفضي إلى الخارج للشارع ولكنه وجد نفسه خائر القوى وحالته يرثى لها وهو يردد ويلعن حظه لقد توقعت ذلك، أيها الصبي اللعين، وقبل أن يصل فلاديمير إلى باب المتجر وعندما اختفى الكسي بين الحشود بدأ الكسي بالجري بكل ما تحمله قدميه من قوة وبعد أن فتح فلاديمير باب المتجر الرئيسي على مصراعيه بدأ يجري نحو وجهة الصبي التي توجه إليها استطاع بذلك أن يلمح اثر الصبي ولكن بشيء بسيط جداً وأخذ يجري خلف الصبي وهو يزعق ويهدد بيديه أيها الصبي اللص اللعين سأنال منك وأعذبك على فعلتك الشنيعة التي ارتكبتها واستمر في الصراخ بمليء فاه ويقول سأحطم رأسك ارجع إلي هنا جرى فلاديمير خلف الصبي لمسافة مائة متر تقريباً وهو يتعثر والوحل يتطاير من تحت قدميه ويلطخ بذلته وحذاؤه اللامع الذي لم يعد لامعاً بعد الآن حتى أن نظارته سقطت على الأرض في الوحل وهذا ما جعله يتوقف عن الجري ليس لشعوره بالتعب فقط ولكن لاستمرار ألكسي بالجري السريع دون النظر خلفه أبدا وهو

لا يزال على حافة الرصيف، توقف فلاديمير عن الجري خلف الصبي وانحنى للأمام ومسك ركبتيه الضعيفتين بكلتا يديه لكي يلتقط أنفاسه وهو يجاهد في إخراج بعض الكلمات المتقطعة ولعن نفسه لقد علمت ذلك يا لي من وغد أحمق من دون فائدة، لو كانت قد أمسكت به لقطعته إلى أشلاء صغيرة فليذهب إلى الجحيم ولكن أين نظارتي اللعينة؟ آوه لقد سقطت وأنا أجري، أين هي بحق السماء؟ سأقضي على هذا الفتى الصغير جميع ما حدث لي بسبب هذا الشيطان الصغير أخذ يبحث بعينيه الضعيفتين وهو يجول بنظره نحو الأرض ولكن لم يتمكن من إيجادها لكثرة الوحل والمياه التي على الأرض، بدأ فلاديمير بالسير على طول الشارع بعد أن استعاد أنفاسه وهدأ نبض قلبه وأخذ يسأل أي شخص يصادفه ويسأله عن ما إذا رأى صبياً صغيراً يحمل بيده كتاباً ويجري لكنه لم يتلق الجواب الشافي، قفل راجعاً وعاد أدراجه خائباً منكسراً بلغ به الحزن الشديد أقصى درجة على ما فقده اليوم من أشياء عزيزة على قلبه واعتبر اليوم هو أشد الأيام سوء في حياته، بعد أن عاد إلى متجره وهو مغلوب على أمره وقف بقرب المتجر وإذا به فجأة يرى رجل الأمن الوسيم بارثولوميو يقف أمام متجره يجول برأسه يميناً وشمالاً كأنه فقد شيء ما بدأ يبحث عنه أو كأنه يحاول أن يجد شخصاً ما ولكنه لا يجد ضالته، وصل فلاديمير ووقف عند الرجل وأحذقه بعينين حزينتين مستفهماً ربما عن سبب وقوفه ولكن بدا السؤال غير ذلك وبدأ فلاديمير بالحديث إلى رجل الأمن وقال له أهذا أنت! بماذا أستطيع مساعدتك سيدي؟ أجابه بارثولوميو شكرا لك صديقي ولكني أبحث عن صبي صغير كنت أتحدث معه قبل أكثر من نصف ساعة أمام متجرك ولكن لا أجده الآن! إلى أين ذهب يا ترى؟ توقف بارثولوميو

عن الحديث وبدا عليه الاستغراب وسأل فلاديمير هل تعرفنا سابقاً أنا وأنت يا سيدي؟ فأنك تتحدث معي وكأن لك معرفة سابقة بي أجابه فلاديمير كلا يا سيدي ولكنك معروف على امتداد الشارع بأكمله وأنت كنت تقف قبل قليل أمام متجري ومعك الصبي الصغير كنت أنظر لكم من خلف نافذة متجري اعذر فضولي ولكن الشك انتابني حول الصبي الصغير وبالفعل لقد تبين أن شكي في محله لقد سرق الصبي الصغير من الرفوف الخارجية لمتجري التي كان يقف عندها منذ أكثر من ربع ساعة وهرب بين حشود الناس ولم أتمكن من الإمساك به وتوقفت عن اللحاق به بسبب سقوط نظارتي اللعينة سقطت من على وجهي وتوقفت للبحث عنها والآن خسرت أحد كتبي ونظارتي، آوه،

يا له من يوم لعين وصبي وغد تلعثم بارثولوميو بكلماته وهو يقول لصاحب متجر الكتب ولكن عن ماذا تتحدث يا رجل؟ كيف حصل هذا الشيء؟ لقد كنت اقف مع الصبي وأتحدث معه انه صبي معدم وبائس لن يستطيع فعل هذا، صدقني يا رجل تحدثت مع الصبي وكان صبيا حاذقا وذلق اللسان، عدت هنا الآن من أجله لأتحدث إليه قليلاً لأن مناوبتي قد انتهت ووجدت متعة بالحديث معه وجه بارثولوميو الحديث إلى فلاديمير وهو في حالة من الاستغراب الشديد مما حدث لصاحب المتجر لا يمكن أن يستوعبها أي شخص او يحتويها أي عقل، رد عليه فلاديمير قائلاً هذا ما حصل يا سيدي العزيز، هذا ما حصل بالفعل، استمر بارثولوميو بالحديث إلى صاحب المتجر فلاديمير لا أخفي عليك يا سيد فلاديمير ففي بادئ الأمر ولدى رؤيتي للصبي انتابني الشك حول وجوده بجانب الرفوف وهو يحمل كتاب بين يده ولكن عندما سألته ماذا يفعل بهذا الكتاب أجابني بأنه

سقط بفعل العاصفة وحمله من علي الأرض وأعاده إلى مكانه لسذاجتي قمت بتصديقه فوراً، يا للشيطان الصغير لقد خدعني أنكس فلاديمير رأسه نحو الأرض وهو حزين تماماً ثم بعد صمت لمدة دقيقتين كسر بارثولوميو حاجز الصمت وأضاف قائلاً لا تقلق يا رجل سأجد الصبي وأعيد لك ما سرقه منك وسأعاقبه عقوبة نكراء يستحقها على فعلته، بعد مرور نصف ساعة على وقوفهم خارج المتجر ترك فلاديمير رجل الأمن من غير أن يضيف أي كلمة ولج داخل متجره وهو يشعر بحزن وضيق شديد وحين دخوله المتجر وهو ينظر إلى أرضيته لاحظ وجود غليونه العزيز محطم إلى نصفين عندما سقط من فمه على أرضية المتجر، انحنى فلاديمير والتقطه وأمسكه وهو يحدّق إليه ويقول آه، يا غليوني العزيز لقد أصبحت خردة وحوّلوك إلى أشلاء صغيرة، يا إلهي لقد فقدت أشياء عزيزة على قلبي هذا اليوم، بعد أن دخل فلاديمير متجره ظل بارثولوميو واقفاً أمام المتجر يفكر بما حدث ويقول مسكين هذا الرجل، لم أكن لأتوقع صدور أمر كهذا من هذا الصبي البائس، ربما سيؤثر هذا الشيء سلباً على عملي، ربما سيذهب صاحب المتجر إلى مركز الأمن الخاص بالشارع ويقدم شكوى رسمية، بالتأكيد سأخسر وظيفتي، لا تصبح رجل متشائم بارثولوميو والآن أين اختفى الصبي الصغير يا ترى؟ كأن الأرض انشقت وابتلعته، يا له من وغد صغير وماكر لم أكن أتوقع فعلته أبدا استمرت هذه الأفكار تدور داخل رأس بارثولوميو وفجأة توقف عن التفكير بعد أن شعر بألم في معدته لعدم تناوله أي شيء منذ أول مناوبة له وأصبح يردد بصوت ضعيف يا إلهي لم أتناول الطعام منذ أول مناوبة لي سأذهب لأتناول شيئا ما توجه بارثولوميو إلى محل لتقديم الوجبات البسيطة في نفس الشارع، كان الوقت يشارف

على الظهيرة واخذ الطقس يصحو بعض الشيء، دخل بارثولوميو إلى المحل، جلس وطلب بعض الطعام ليسد جوعه، استمر ألكسي بالجري عبر الشارع متوجهاً إلى ناحيته الأخرى التي تقابل متجر الكتب بعد أن توارى بين حشود الناس مستمراً في جريه منذ أن أخذ الكتاب وهرب ومن دون أن يستدير ليرى هل لا زال صاحب المتجر يجري خلفه أم لا، فبعد أن قطع فلاديمير مسافة مئة وخمسين قدماً فقط من الجري باتجاه الصبي الذي لم يتمكن من رؤيته أبدا توقف جراء سقوط نظارته من على وجهه إضافة إلى شعوره بالتعب الشديد والإعياء فنظراً لسنه الكبير يكون من الصعب الجري لمسافات طويلة،

استمر الصبي بالجري دون توقف ومن دون أن ينظر إلى الخلف وهو يصطدم بالناس بين الفينة والأخرى، ظل يتنقل من رصيف إلى آخر ومن جادة إلى جادة أخرى وعند عبوره جادة الطريق لم يتمكن من رؤية أي شيء عند العبور وإذا بعربة حوذي تمر من خلفه بعدعبوره الجادة وكادت أن تسحقه أرجل الخيل،

شعر بخوف شديد وأراد قلبه أن يتوقف، استدار الحوذي نحو ألكسي ورفع يده وانهال عليه بالشتائم بل بوابل من الشتائم وهذا فقط ما سمعته من الحوذي وهو يقول أيها الصبي الأخرق، يا حشرة الأرض النحيلة، سيدخل الخيل أرجله في أحشائك إن لم تنتبه مرة أخرى، أليس لديك عينان لترى العربة وهي تسير، لم يعيره ألكسي أي اهتمام يذكر واخذ يجري من جديد واصبح صدره الصغير يعلو ويهبط ويكاد قلبه يخرج من بين صدره، عبر ألكسي الجاد وهو يتنفس بصعوبة حاملاً الكتاب وبدأت الناس تغدقه بنظرات استغراب مما يحمله بيده وفي زاوية من أركان الشارع اصطدم

ألكسي بعربة لبائع سمك متجول وسقط على الأرض وكذلك أفلت الكتاب من بين يده على الأرض وتناثرت الأسماك على صدره واتسخت ثيابه من الخلف بالوحل وتمزقت يداه وفي هذه الأثناء توجه بائع السمك نحو ألكسي لمساعدته في النهوض وبالفعل استطاع أن ينهض بمساعدة البائع ومن ثم تناول البائع الأسماك من الأرض وأعادها إلى العربة وقال لألكسي انتبه لخطواتك في المرة القادمة يا عزيزي الصغير دعا كلام البائع إلي انشداه ألكسي وذلك لعدم تقريعه ونعته بألفاظ نابية كما فعل الحوذي معه وشعر ألكسي بجذل وانشرح قلبه على الرغم مما أصابه بكدمات وجروح في يده وحتى بمطاردته وخوفه الشديد أحدق ألكسي إلى عيني البائع تناول كتابه من على الأرض وضمه إلى صدره واستأنف جريه حتى أنه لم يتسن له شكر البائع على حسن تصرفه معه حين سقط على الأرض، لم يشعر بالمسافة الطويلة التي قطعها جريا لخوفه الشديد وخلو رأسه من أي تفكير لقد توقف عقله في هذه اللحظات العصيبة التي مر بها استطاع ألكسي بغريزة الهروب والنجاة من الأخطار أن ينجو من مأزقه الذي وقع فيه، وفجأة يجد ألكسي نفسه أمام باب العمارة التي يسكن بها، استعاد ألكسي وعيه وعادت إليه أفكاره ولم يصدق ما رأته عيناه حتى أنه لم يصدق كيف وصل هو إلى هذه النقطة كأنه كان يحلم طوال الوقت واستيقظ منه الآن، التفت ألكسي حوله ليتأكد من أنه لم يعد أحد يطارده ويجري خلفه، توجه إلى بوابة العمارة الخارجية وهو يردد داخله حمداً لله! كل شيء مضى على نحو حسن، ولكن آوه يا إلهي ما هذه الحماقة التي ارتكبتها .... يتبع

الفصل الخامس

استمر ألكسي بالجري لأكثر من ساعة وهو يتوقف بين الحين والأخر ليلتقط أنفاسه ويأخذ استراحة بين الفينة والأخرى فتارة يتوقف وتارة يجري وأيضا ومن شدة التعب الذي نال منه أكمل ما تبقى من المسافة التي قطعها بالسير ببطيء، تبعد العمارة التي يقطن بها ألكسي عن متجر فلاديمير للكتب ما يقارب نصف فرسخ على امتداد الشارع ذاته، تمكن ألكسي من الجري كل هذه المسافة دون أن يشعر بقدميه وبرغم التعب الذي أصابه إلا أنه لم يعيره أي اهتمام أنه الخوف فمتى انتاب الإنسان الخوف الشديد لم يفكر في أي شيء آخر سوى النجاة بحياته، عند عودة ألكسي إلى العمارة بدأ الليل يهبط واخذ الشفق في السماء يبدو واضحاً، تأخر ألكسي عن المنزل بزمن طويل منذ أن أرسلته كرستيان لجلب بعض أرغفة الخبز ليتناولوها على وجبة الغداء حيث أعطته بعض الكوبيكات وأرسلته منذ ساعات طويلة ولكنه لم يظهر إلى الآن مما جعل كرستيان في قلق وبكاء مستمر، وقف ألكسي أمام باب العمارة وهو لا يزال ممسكاً بالكتاب بين يديه ويجاهد في التقاط أنفاسه واستجماع قواه الخائرة، كانت العمارة مشيدة قديماً ببناء متداع وهي تعود لمالكتها مارغريتا العجوز الشمطاء استأجر ميخائيل والد ألكسي قبو العمارة من العجوز بعشرين روبلاً وهو مبلغ باهظ نظراً لأحوال معيشتهم، لم يكن لدى ألكسي أدنى

فكرة بما يجري داخل المنزل وما حدث لوالدته نتيجة تأخره لساعات طويلة وماذا سيخبرها بعد ذلك ولماذا لم يجلب معه أرغفة الخبز التي عني بها كل هذه الأفكار كانت تجول داخل رأسه عند وقوفه أمام باب العمارة، استعاد ألكسي قواه وهدأ نبض قلبه إلى ما كان عليه ولكنه ظل على حالته المزرية وثيابه المتسخة بالوحل وتمزق يديه وشحوب وجهه، تقدم نحو باب العمارة كان داكوتا العجوز حارس العمارة جالساً على مقعد مصنوع من الحديد صدأ بفعل أحوال الطقس المتقلبة وجده مطأطأ الرأس شبه نائم واضعاً يديه على بطنه الخاسف واحدة على الأخرى، داكوتا العجوز هو حارس العمارة لأكثر من عقد من الزمن وهو رجل عرف بحسن سلوكه ويحبه جميع نزلاء العمارة ومستأجريها،

لدى داكوتا بنية صحيحة وقوية رغم كبر سنه الذي يبلغ ستون عاماً بشعر ابيض ناصع بلون الثلج خفيف من مقدمة رأسه وطويل من الجوانب غير مرتب ينسدل على أذنيه وجهه نحيل خاسف الوجنتين وملئ بالتجاعيد بشرته بيضاء شاحبة بحاجبين خفيفين انفه طويل ورفيع ومستدير النهاية شاربه وذقنه كثيفة وطويلة بيضاء اللون يصل طولها إلى منتصف صدره خافية عنقه النحيل تماماً يرتدي داكوتا نظارة مستديرة وصغيرة فضية اللون يضعها على نهاية انفه المستدير وتحتهما عينيه الشبه مغمضتين والتي تبدو من خلف نظارته بأنها مغمضة بالكامل ومتقاربتين من بعضهما البعض،

يرتدي داكوتا ملابس أنيقة ونظيفة جداً من كنزة صوفية سوداء اللون يمكن أن تلاحظها اسفل من معطفه المفتوح والطويل يصل إلى حد ركبتيه بثلاثة أزرار كبيرة لونه رمادي مع بنطال رمادي أيضا مظهره أنيق جداً ويرتدي حذاء جلدي بني فاتح، داكوتا رجل يعتني بهندامه وترتيب ملابسه

على اكمل وجه، كانت بوابة العمارة مصنوعة من الحديد مفتوحة من جهة واحدة فقط هنالك فسحة صغيرة جداً تفصل بين بوابة العمارة الخارجية وبين باب مدخل العمارة الخشبي يجلس في هذه المساحة الصغيرة الحارس داكوتا على مقعده البالي كان مظهر الباب الخارجية عبارة عن قضبان حديدية أفقية متساوية ولكن الباب منخفض نسبياً يصل ارتفاعها إلى نصب الباب الاعتيادية كانت مفتوحة من جهة اليمين ولكن بشكل غير كامل فقط مسافة قليلة حاول ألكسي الدخول من دون إصدار أي ضجة لكي لا يوقظ داكوتا العجوز، أثناء دفعه للبوابة الحديدية أصدرت صريرا يصم الأذن مما جعل داكوتا يثب على قدميه فجأة وبشكل لا إرادي ومن فوره قام بدعك عينيه بواسطة كلتا يديه ونظر إلى ألكسي رؤية ضبابية فيها شيء من الغواش، لم يتعرف إليه في بادئ الأمر ولكن حينما اتضحت الرؤية لديه ابتسم ابتسامة عذبة إنها ابتسامة داكوتا المعهودة وتوجه بدورة نحو ألكسي وأمسكه من كتفه وقال له آوه! بني أهذا أنت أيها الصغير، حمداً لله لأنك عدت بخير، أين كنت طوال هذا الوقت المتأخر؟ لقد قلقت عليك والدتك أشد القلق وما انفكت تتأوه وتولول وتبكي عليك، أين كنت بحق السماء؟ وما هذا الشيء الذي تحمله؟ أجابه ألكسي ولكن بكلمات مقتضبة لقد أرسلتني أمي لكي أجلب هذا الكتاب،

ورفع الكتاب الكبير بمستوى رؤية داكوتا وأمام وجهه وخفضه بصورة سريعة، بدأ داكوتا يشعر بالحيرة والقلق لرؤية ثياب الصبي الصغير وهي متسخة أشد الاتساخ وأردف يقول ولكن لماذا تأخرت كل هذه المدة الطويلة؟ وماذا أصاب ثيابك لماذا هي بكل هذا الاتساخ يا ولدي أجبني بحق السماء أجابه ألكسي وأصابه الامتعاض من جراء الاستجواب الذي

دخل فيه لتوه مع العجوز فأجابه ألكسي، لقد تعثرت وسقطت في الوحل واتسخت ثيابي بأكملها، دعني أمر من فضلك مر الصبي من جانب داكوتا العجوز فرمقه داكوتا بعينيه التي تشوبها الحيرة والاستغراب من رد الصبي الصغير عليه متعجباً من أسلوب حديثه واخذ يحدث نفسه فليذهب إلى الجحيم، تحدثت إليه لأني كنت قلقاً بشأنه رفع داكوتا منكبيه متعجباً وعاد يجلس إلى حيث كان يجلس على مقعده وأنكص رأسه مرة أخرى واستأنف قيلولته من جديد، بعد أن ترك ألكسي حارس العمارة داكوتا في حيرة من أمره دخل إلى العمارة من خلال الباب الخشبي بعد أن صعد المدرجات الثلاثة التي توجد قبل باب العمارة صعدها بتثاقل وهو لا يزال يحمل الكتاب الكبير بين يديه، تتألف العمارة من ثلاثة طوابق باستثناء الطابق الأرضي الذي يفضي إلى قبو العمارة سكن ألكسي الحالي، جميع الطوابق تحتوي على العديد من الغرف والكثير من النوافذ المطلة على الشارع، كانت مساحة العمارة واسعة جداً ولكن باب العمارة الداخلي ضيق ومرتفع ومصنوع من الخشب الثقيل، عند دخولك إلى العمارة يمكنك مشاهدة سلم حجري بحواجز حديدية صدئة ومائلة إلى السمرة من شدة اتساخه وموقعه في مواجهة باب العمارة وعلي اليسار يوجد هنالك مدرجات متجهة نحو الأسفل تؤدي بك إلى قبو العمارة التي يسكن فيها ألكسي، البناية متداعية بشكل لا يصدق ومن داخلها يمكنك رؤية الجدران المتآكلة بفعل رطوبة المكان ولون الدهان الأبيض الذي تحول إلى صفرة فاقعة تثير الاشمئزاز لون أبواب العمارة أبيض أيضاً وعليه اثأر الأوساخ بشكل يدعو للتقزز أما رائحة المكان خانقة لا تحتمل،

توجه ألكسي خلسة نحو الأسفل ووصل إلى نهاية السلم الحجري

المؤدي إلى القبو وهنالك على جهة اليمين باب خشبية صغيرة بارتفاع منخفض بنية اللون لا يستطيع أي شخص اعتيادي الطول أن يمر من خلالها من دون أن يخفض رأسه قليلاً ولكن نظراً إلى طول ألكسي فانخفاضها لا يضايقه يستطيع المرور من خلالها من دون أن يواجه أي مشكلة في ذلك، حمل الكسي الكتاب بيد واحدة ورفع يده مستعداً لطرق الباب ولكن لحسن حظه تفاجأ بوجود الباب مفتوح قليلا ويخرج من خلاله ضوء الشمعة التي أضيئت لتوها ولكنه تذكر الكتاب الذي يحمله وماذا سيخبر والدته عنه وكيف سيشرح لها ومن أين جاء به، جميع هذه الأفكار جالت في رأسه وهو يقف أمام باب القبو، وبدأ ألكسي يردد في داخله يا إلهي ماذا افعل الآن؟ أين سأخبئ الكتاب يا ترى؟ لا يوجد مكان يمكنني أن أخبئه فيه، هل أرمي به خارج العمارة؟ ولكن ماذا سأخبر داكوتا حين يراني؟ سأدخل وليحدث ما يحدث قرر ألكسي الدخول ولا يعلم ما سيخبر والدته عن أمر الكتاب الذي يحمله وعن حالته المزرية التي عليها، دفع ألكسي الباب بحذر شديد وبكل هدوء قام بمد عنقه من فتحة الباب ليتمكن من رؤية ما تفعله والدته في الداخل فوجدها مولية ظهرها نحو الباب وهي جالسة على مقعدها الخشبي وتتحرك بشكل متكرر وبقلق للأمام وإلى الخلف وبنفاد صبر وهي منهمكة في تطريز قطعة من القماش كانت بين يديها وتصدر أصوات آهات وأنين لا ينقطعان البتة وتتحدث إلى نفسها بين الفينة والأخرى وتردد يا إلهي الرحيم! ماذا حدث لك يا عزيزي الصغير؟ أين اختفيت كل هذا الوقت؟ ارجو ألا يكون قد أصابه مكروها ما، بماذا سأخبر ميخائيل حين يعود؟ آهٰ ما أشقاني يا رباه ما انفكت كرستيان تردد هذه الكلمات ولا تعلم عن ولدها الصغير أي شيء أبدا،

استغل ألكسي هذه الفرصة التي لا تتكرر أبد لأن كرستيان تجلس بعكس باب دخول القبو هذا الشيء حدث في صف ألكسي لكي يتمكن من أن يخبأ الكتاب دون أن تراه والدته وحتى لا تبدأ كرستيان بإغداقه بوابل من التحقيقات والأسئلة التي لا تنتهي، عمل ألكسي فتحة تكفي لدخوله من خلال الباب ودخل من دون إصدار أي ضجة وبدوره تسلل من خلف المقعد الذي تجلس عليه كرستيان وبهدوء تام وعلي رؤوس أصابع قدميه وهو يحمل الكتاب ويضعه على صدره كأنه يحمل طفل صغير ويخاف عليه من السقوط من بين يديه، عند مروره من خلف والدته بمسافة قدمين استطاع رؤية شقيقته زاريتا تجلس على الأرض بمواجهة كرستيان وهي تضع رأسها الصغير على ركبتيها وتحيط بأرجلها بكلتا يديها وتحدق إلى والدتها بعينين شاردتين ولكنها للأسف الشديد لن تتمكن من رؤية أي شيء فهي لا تستطيع الرؤية منذ ولادتها، مر ألكسي من أمامها وهو يفكر في شقيقته ويقول يا لبؤسها المسكينة لا يمكنها رؤيتي! تمكن الكسي أن يعبر إلى بر الأمان وبسرعة البرق قام بدفن الكتاب بين الأفرشة والشراشف الموضوعة على الأرض ووضع فوقه وسادة كبيرة وأعاد ترتيب كل شيء ونهض فوراً وخرج من وراء الستائر وسار ببط ء شديد، وقف الكسي خلف والدته وهي لا تزال تبكي بحرقة شديدة على صغيرها الذي لا تعلم عنه أي شيء وماذا حدث له، وقف الكسي منكساً الرأس ووضع يديه خلف ظهره بثياب متسخة ومليئة بالوحل وكفي يديه مجروحين خبأها خلفه وهو واجم يشعر بالاسى اتجاه والدته البائسة وشقيقته الصغيرة المعدمة، مكث الكسي لمدة دقيقتين كاملة لم ينبس ببنت شفه ولم يتحرك من مكانه بعد ذلك شعرت كرستيانا بتنفس ضعيف يصدر من خلفها،

استدارت كرستيانا برأسها إلى ناحية الصوت تمكنت من رؤية ولدها الصغير،

تركت كرستيانا ما بين يديها من قماش وأدوات خياطة ووثبت على قدميها وبسرعة خاطفة جرت نحو صغيرها احتضنته وبدأت تقبل وجهه وعينيه ورأسه ويديه وهي تبكي بحرقة ومرارة شديدة وتنحب وأخذت تردد وتقول حمداً لله على سلامتك بني الصغير، أين كنت؟ لقد قلقت عليك اشد القلق تفاجأت كرستيانا أثناء تقبيل الكسي بوجود كدمات وجروح على كفيه وقالت آوه يا إلهي ماذا أصاب يديك؟ ما هذه الجروح؟ تكلم بحق الله، هيا تكلم لماذا تبدو بهذه الحالة المزرية؟ ما المصيبة التي حلت بك؟ آه، يا إلهي ما أتعسني، تعال يا عزيزي لانظف يديك توجهت كرستيان مع ألكسي نحو برميل خشبي مملوء بالمياه النظيفة وأخذت قطعة من القماش النظيف جداً وقامت بطويها مرات عديدة وبدأت تغمسها بالماء وتنظف جروح ولدها وهي تبكي ولا تتوقف أبدا بعد ذلك قامت بمساعدته على خلع ثيابه ورميها في حوض للغسيل وأخرجت له ثياب أخرى نظيفة ليرتديها، ارتدى ألكس ثيابه النظيفة وجلس بعد ذلك بجانب شقيقته الصغيرة، التي لا تعلم حتى هذه اللحظة ماذا يدور حولها وماذا حدث لشقيقها الكبير وهي تسأل كرستيان بين الحين والأخر ولكن لم تحصل على إجابة أبدا سبب ذلك حينما كانت كرستيان تنظف وتضمد جروح ألكسي، توقفت كرستيان عن البكاء ونظرت إلى ألكسي بعينين مستفهمتين وهو مطرق الرأس نحو الأرض يجلس بجانب أخته زاريتا التي قامت بمد ذراعها نحو رأس ألكسي وبدأت تتلمسه من شعره ونزولا إلى وجهه ورقبته كأنها تتفحصه وهي تسأل كرستيان ماذا هنالك ماما؟ ماذا

حدث لأخي أليوشا؟ بدأت تتحدث إلى شقيقها ألكسي لأنها لم تحصل على إجابة من والدتها كرستيان وقالت تكلم أخي هل أصابك مكروه ما؟ هل أنت بخير؟ هل كل شيء على ما يرام؟ أجابها ألكسي من دون أن يرفع رأسه ناحيتها أجل زاريتا أنا بأحسن حال لا تقلقي استمرت كرستيان بالتحديق إلى ألكسي بعينين كئيبتين وشعرت بالشفقة على أولادها، كرستيان امرأة تبلغ من العمر خمسة وثلاثون عاماً ولكنها متعبة وبائسة يبدو عليها علامات كبر السن واضحة من تجاعيد وجهها وخصلات رفيعة رمادية اللون تتخلل شعرها ذي اللون الأحمر القاتم مربوط على جانبي رأسها بشكل ضفائر، تبدو كرستيان نحيلة وطويلة القامة وذات بشرة بيضاء ولكنها مائلة إلى الاصفرار لا يحتوي وجهها على قطرة دم واحدة ترتدي نظارة لضعف بصرها نتيجة عملها في الخياطة والحياكة والتطريز، لها عينان ذاتان لون أخضر وحاجبان رفيعان بنفس لون شعرها انفها متناسق رفيع بعض الشيء وتملك شفتين ناعمتين رقيقتين، كانت كرستيانا حينها ترتدي ثوبا ابيض طويل مع غطاء رأس ابيض اللون كذلك، أما ما تحمله من مزاج وسجيتها فأنها واجمة طوال الوقت ومترددة في اتخاذ قراراتها دوماً وتتلعثم دوما في حديثها مع الناس وحتى مع اقرب الناس إليها فهي خائفة من الكلمات التي تخرج من فمها على الدوام ولكنها طيبة القلب، دفن الكسي رأسه بين ركبتيه لمدة ربع ساعة كاملة بجانب زاريتا التي كانت تبكي على شقيقها من دون معرفة السبب، أما كرستيانا فدخلت في صمت مطبق وعقد لسانها وهي تحدق إلى ولدها الصغير وهو مطرق الرأس وتتمنى لو إنها الأن داخل رأسه لمعرفة ما يجوب داخله وهي ترجو أن يبدأ هو بأخبارها ما جرى معه لكي لا تضايقه بأسئلتها المترددة بالإضافة إلى

أن كرستيانا بطبعها لا تتدخل في شؤون أولادها الخاصة ولكنها قررت أن تعرف ما حدث لصغيرها مهما كلفها من ثمن وخاصة بعد أن رأت الكسي على هذه الحالة المزرية ولكنها تذكرت عناد الكسي مما جعلها تغير قرارها وبادرت هي في طرح الأسئلة على ولدها، فخرجت عن صمتها وقالت له ماذا أصابك يا بني؟ لا تشقي قلبي عليك يا صغيري،

اخبرني بما حدث ناشدتك الله رفع الكسي رأسه نحو كرستيانا ومن ثم إلى شقيقته وبدأ ينشج بالبكاء ودفن رأسه مرة أخرى، وثبت كرستيانا من على مقعدها وتوجهت نحو الكسي وضمته إلى صدرها وبدأت هي أيضا في البكاء تلمست زاريتا رأس والدتها وأخذت تبكي وتنحب لا تعلم على ماذا هي تبكي المسكينة البائسة زاريتا فتاة صغيرة تبلغ من العمر خمسة أعوام وهي حادة الذكاء لقد سلبت منها نعمة البصر ولكن منّ الله عليها بالذكاء الحاد والبنية القوية التي لا تتناسب مع سنها الصغير فهي قوية البدن وطويلة القامة نوعاً ما لديها رأس بيضوي متناسق بشرتها بيضاء ناصعة وشعرها احمر كشعر والدتها ولكنه ليس طويلا يصل إلى ذقنها ومجعد بصورة جميلة جداً تملك زاريتا عينين واسعتين بنية فاتحة اللون وأنف جميل وثغر صغير بشفاه عذبة أن تعابير وجهها جميلة جداً لا يسعني وصفه بالكلام ترتدي زاريتا ثياب مشابهة لثياب كرستيان بالضبط، ضاق ألكسي ذرعاً لأنه لم يتمكن من مواجهة والدته بالحقيقة وأخبارها عن فعلته القبيحة التي اقترفها وشعر بالذنب، كانت هذه الأفكار تجوب داخل رأسه

بشكل مبعثر ومشتت لم يتمكن من شرح حالته النفسية التي هو عليها الآن كان يشعر بالخجل الشديد من فعلته كان خائفا من مصارحة والدته

على ما اقترفته يداه وهو في حالة من الإحباط لا يعلم بها سوى الله، أحدق ألكسي في عيني والدته الخضراوين وهو يتأمل وجهها الحنون وحدّث نفسه لا بد من أخبار والدتي، لا أستطيع الكذب عليها، أشعر أن ضميري يؤنبني، ولكن ماذا لو غضبت ولم تعد تحبني عندما تعرف الحقيقة؟ ماذا لو سخطت مني؟ ماذا سأفعل حينئذ؟ آويه يا إلهي! لم أكن أنوي فعل هذا الشيء الفظيع ولكني أكرهت عليه، ما هذا الخداع إنني أخدع نفسي بهذا الكلام لم يكرهني عليه أحد أنا الذي فعلتها بمحض إرادتي، يا لي من شخص بغيض لقد أصبحت لص لا مراء في ذلك، لا بد لها من معرفة الحقيقة، آوه كم أنا خجل من ذلك الأمر، لكن لا سبيل بعد الآن يجب أن أعاقب نفسي علي فعلتي حتى وإن لم يعاقبني أحد، سأخبرها الآن لم يتمكن ألكسي من تقبل واقعه البغيض المنحط وقرر أن يعترف لوالدته بالحقيقة ولا شيء غير الحقيقة البائسة، وثب ألكسي بصورة غير متوقعة من بين يدي كرستيان وبشكل يثير الدهشة مما جعلها هي وزاريتا يكفون عن البكاء وحل صمت مطبق، نظرت كرستيان إلى وجه ألكسي ووجدته يخلو من أي تعابير بشكل يثير الدهشة وقالت آويه! يا عزيزي، ولكن إلى أين؟ يا إلهي ماذا حدث لك؟ لماذا أنت شاحب الوجه هكذا؟ تكلم يا صغيري إلى أين أنت ذاهب بحق السماء؟، تحدثت كرستيان إلى ألكسي وهي تهم بالنهوض خلفه وسرعان ما منعها ألكسي من النهوض وقال لها أرجوك يا أمي لا تتعبي نفسك سأخبرك بكل شيء،

استعادت كرستيان وضعيتها بالجلوس على الأرض بجانب ابنتها الصغيرة وأمسكت بيدها وهي تتبع ألكسي بنظرات متحيرة بعد أن توجه صوب الستارة الفاصلة بين حجرة المعيشة وحجرة النوم،

أن قبو العمارة صغير جداً ومقسم إلى قسمين فقط بواسطة ستارة مخملية رمادية اللون ويبدو القبو كغرفة واطئة السقف بصورة مفرطة جداً وصغيرة لا تبلغ مساحتها سوى خمسة عشر قدماً فقط، ولا يحتوي القبو سوى على اللوازم الضرورية للمعيشة ففي حجرة الجلوس تحتوي على طاولة صغيرة مستديرة ليتناولوا عليها الطعام محاطة بثلاثة مقاعد خشبية قديمة وبالية بالإضافة إلى طاولة مربعة الشكل وأيضا صغيرة الحجم وضع عليها ماكينة يدوية للخياطة خاصة بكرستيان فهذا هو عملها تخيط الأثواب للنساء التابعين للعمارة وأيضا من خارج العمارة وهنالك بالقرب من الطاولة الخاصة بكرستيان يمكنك رؤية مقعد خشبي أخر صغير

تجلس عليه كرستيان خلال فترات عملها وأيضا في أوقات فراغها تجلس عليه لتزجيه الوقت بقراءة الكتب وأيضا الحياكة والتطريز، على الطاولة أيضا يوجد هنالك العديد من لوازم الخياطة المختلفة من خيوط وابر خاصة بالخياطة وعيدان الحياكة وكرات صوفية بألوان مختلفة، فهي شديدة الاهتمام بعملها لتكسب منه لقمة العيش الأموال التي تدفع لزوجها لقاء عمله في وظيفته لا يسد رمق العيش ولا يؤمن الحياة اللائقة لعائلتها حتى أنه لا يكفي لشروى نقيرا، فهي تساعد زوجها لكي يتحملوا هذه الحياة القاسية، أن منزلهم عبارة عن قبو موحش من بناء متداعي جدرانه مغلفة بورق أبيض ولكنه تحول إلى الصفرة الداكنة لمرور زمن طويل منذ أخر مرة استبدل فيها وهنالك أيضا موقد صغير لم يستخدم منذ زمن بعيد في كوة من الجدار الذي يقع على الناحية اليمين، عزم ألكسي أمره وتوجه نحو الستارة المخملية ودخل حجرة النوم وتوجه بدوره نحو الأرض إلى المكان الذي خبأ فيه الكتاب بين الشراشف والأغطية، توجه ألكسي نحو

الزاوية التي يوجد فيها أفرشه تابعة له ولشقيقته زاريتا وهي مرتبة ونظيفة، تحتوي حجرة النوم كذلك على سرير خشبي كبير يسع لشخصين مغطى بشرشف لونه أبيض ناصع ونظيف وعليه وسادتين بيضاوين نظيفة، على الرغم من وضاعة المكان الا إن كرستيان كانت تعتني بنظافته فهو مرتب ونظيف لولا حالة بناء القبو المزري، رفع ألكسي وسادته والشراشف وحمل الكتاب بيده شعر بثقله وبثقل أثمه الذي حمله على عاتقه، شعر بالندم الشديد أعيدت مشاهد هروبه وجريه في الشارع وكذبه على رجل الأمن، عاد إلى واقعه المرير وتوجه إلى حيث تجلس كرستيان وزاريتا، وقف أمام والدته وعينيه إلى الأسفل لا يجرؤ رفعهما والنظر لوجهها وبقي في صمت مطبق لمدة دقيقة كاملة لم ينبس ببنت شفة، نظرت كرستيان إليه وهي في حيرة من أمرها وتنقل بعينيها من عليه إلى الشيء الذي يحمله بيده وبالعكس وهي فاغرة الفم لم تخرج من فمها كلمة واحدة، بعد أن اكتشفت كرستيان ما يحمله ألكسي وعلي حين غرة كسرت حاجز الصمت بينهما وسألت ولدها ما ... ما هذا الشيء الذي تحمله يا عزيزي؟ تكلم صغيري من أين جئت بهذا الكتاب؟، لم يجبها ألكسي على أسئلتها واقتصر بالتحديق لوجهها فقط أدى ذلك إلى دخول كرستيان في نوبة من الغضب وكررت أسئلتها عليه أجب ألكسي من أين لك هذا الكتاب؟ هل قمت ب؟!، كانت هذه المرة الأولى التي تدعوه باسمه ولم تناديه باسمه أليوشا، وضعت كرستيان يدها على فمها واغرورقت عيناها بالدموع وقالت آوه يا إلهي! هل قمت بهذا العمل الفظيع حقاً، وفجأة خرج ألكسي عن صمته وقال نعم أمي هذا ما حدث بالفعل، بدأ بالبكاء وهو يقول لم أكن أريد فعل هذا الشيء أمي، تكلمت كرستيان وهي تبكي وتنتحب لقد أرسلتك

لتجلب لنا بعض أرغفة الخبز وها أنت الآن تجلب لنا هذه المصيبة، آوه يا إلهي ماذا فعلت لأتحمل كل هذا العناء، مسحت كرستيان دموعها وقالت كل هذا الشيء الذي حدث هو من صنع يدي، أنا التي جعلتك على ما أنت عليه، تقدم ألكسي نحوها وأخذ يقبل يدها وقال لا تقولي هذا يا أماه أنا الذي فعلت هذا العمل الوضيع، أرجوك اغفري لي خطئي ولا تغضبي مني، أن لست بلص سأرده لصاحبه لا تقلقي، سأصلح خطئي، أجابته كرستيان وهي شاردة اللب كلا يا صغيري لا تفعل أي شيء ولا تدعو نفسك باللص مرة ثانية أنت لست لصاً، اطلب من الرب أن يغفر لك قال لها الكسي سأفعل ذلك أمي، ولن أكرر هذا مرة أخرى أبدا احتضنته بين ذراعيها وهي تردد أرجو ذلك يا بني أرجو ذلك من كل قلبي .... يتبع

الفصل السادس

بعد مرور أسبوع...

محطة قطار سانت بطرسبرغ

07:45AM

توقفت عجلات قطار السابعة وخمس وأربعون دقيقة صباحا في محطة سانت بطرسبرغ محدثة جلبة كبيرة وصوت مكابح حاد جداً يصم الأذن وتطاير شرار من عجلات القطار على السكة الحديدية أثناء لحظات التوقف، وبعد مرور نصف دقيقة من الزمن فتحت أبواب القطار على مصاريعها وبدأ المسافرون بحزم حقائب سفرهم وجمع أمتعتهم وهموا بالنزول من جميع الأبواب المفتوحة على شكل أفواج، عند رؤية كل مسافر فيهم تجد أن كل شخص يملك حالته النفسية الخاصة به فمنهم من تبدو عليه تعابير الغبطة والجذل وهو مسرور ومنهم من تجده واجما وحزينا أشد الحزن والبعض الآخر يبدو على وجهه التجهم و الازدراء وجميعهم من طبقات اجتماعية مختلفة أما الذين يستقلون عربة القطار من الدرجة الأولى هم الطبقة البرجوازية الذين يشعرون بالزهو والخيلاء والتفاخر بما يمتلكون بهندامهم ومظاهرهم، أن مقصورات الدرجة الأولى هي مقصورات ذات مقاعد وثيرة ومريحة تحتوي على جميع متطلبات ووسائل

الراحة للمسافرين النبلاء ويكون سعر المقاعد من الدرجة الأولى باهظة الثمن مقارنة بمقصورات الدرجة الثالثة التي يسافر على متنها الأشخاص الفقراء والمعدمين التي تكون مقاعد قذرة وخانقة ولا تحتوي على أي من وسائل الراحة مقارنة بمقاعد مقصورات الدرجة الأولى، كان هنالك أعداد كبيرة من الناس بجموع غفيرة في محطة القطار احدثوا صخبا عارما فمنهم من يتعانقون ومنهم من يتحدثون في ما بينهم وبعضهم كان بانتظار وصول عائلته لاستقباله وهنالك أشخاص انكبوا على أنفسهم يجلسون على مقاعد الانتظار وهنالك أشخاص تراهم يلوحون بأيديهم وهم يحيون او يودعون أحدهم الآخر من مسافة قصية، وكان من بين هؤلاء الناس من ينتظر المحطة القادمة لكي يسافر على متن القطار القادم وهو يحمل أمتعته وحقائب سفره بجانبه ويجلس بنفاد صبر على مقاعد الانتظار، امتلأت محطة القطار بأعداد زاخرة من المسافرين وعائلاتهم والقادمين من السفر الذين تحملوا جميع أعباء السفر ومشقاته، بدا أغلب المسافرين متجهمين وشاحبين الوجوه بسبب استنزاف جميع طاقتهم وبدو في حالة مزاجية سوداوية قاتمة،

نزل ميخائيل من بين جموع المسافرين من على مدرجات القطار بتأني كبير كأنه خائف من أن يطأ أرض سانت بطرسبرغ بقدميه وأثناء نزوله بدأ يلتفت في المحطة يميناً ويساراً،

وضع قدميه على الأرض وظل واقفاً في موقعه واخذ نفساً عميقاً ولكن الهواء يدخل إلى صدره بصعوبة بالغة أراد بتنفسه العميق أن يشتت انتباهه وعقله بعدم تذكر ما جرى له من أحداث مضت صباح أمس وهو يصارع ما يعتمل في دخيلة نفسه من ألم يعتصر قلبه ويكابد الفوضى التي تجوب

داخل رأسه من بعد هذا اليوم المشؤوم الذي قسا عليه وأذاقه مرارة العيش، في خلال دقائق بل لحظات قصيرة مضت عليه استنزفت كل طاقته وشبابه وجعلته يبدو منهكاً ومرهقاً وأكبر سناً مما يبدو عليه مقارنة بأقرانه من البشر، لقد مر على ميخائيل يوماً عصيباً جعله في حالة نفسية يرثى لها، وليلة الأمس استلقى ميخائيل على فراشه وهو يشعر بالحزن الشديد لدرجة البكاء على الوسادة، لم يتصور حدوث هذا الشيء له ولم يتوقعه البتة، عندما أرسل إلى ميخائيل للحضور أمام أنظار الرئيس الأعلى للمعسكر تفاجأ ميخائيل من الاستدعاء الذي حدث بصورة غير متوقعة فلم يسبق له في يوم من الأيام أن تم استدعاؤه لمقابلة الجنرال طيلة مدة وظيفته حينها شعر ميخائيل بالقلق الشديد وسرعان ما هدأ من روعه ونفض عنه القلق وملئ نفسه بالأمل وهو يقول سأمضي قدماً مهما كلفني الأمر من ثمن، لم يكن لدى ميخائيل أدنى فكرة من استدعائه من قبل جنرال المعسكر وحين دخوله عليه ومن خلال خضم الحوار الذي دار بينهما تبين الأمر لميخائيل بجلاء وانكشف الغطاء له وبوضوح تام بعد أن أخبره الجنرال بأنه أنهى أعوامه الرسمية في وظيفته وانقضى عمره الافتراضي وأنه أحيل إلى التقاعد، لم يتمكن ميخائيل حينها أن يتقبل الواقع الذي هو عليه فقد سلبت وظيفته التي كان يعول عليها على حين غرة على الرغم من أن هذه الوظيفة براتبها الزهيد لم تؤمن العيش اللائق له ولعائلته وبهذه الروبلات القليلة لم يجدوا ما يسد رمقهم، لم يتمكن ميخائيل بالأموال التي يجنيها حتى من شراء الطعام وهو يعول على كرستيان التي تضطلع تأمين الطعام وأرغفة الخبز أن معيشتهم يرثى لها وتثير الشفقة، عندما وضع ميخائيل قدمه على أرض سانت بطرسبرغ انتابه الشعور بالخزي وعدم سيطرته على

زمام الأمور وهو في حاله من الإحباط التام لما سيقابله ويواجهه من فقر مدقع في المستقبل القريب الذي يقبع في الجانب السيئ وربما في الزاوية القصية من الحياة، بعد أن أخذ يستنشق الهواء بصعوبة فور نزوله من على متن القطار انتابه شعور بأن هنالك شيء مبهم لا يمكن تحليله أبدا وأخذ يخطو خطى بطيئة ومتثاقلة وهو مطرق الرأس نحو الأرض وتوجه إلى أحد مقاعد الانتظار الموجودة في محطة القطار أنه المقعد الوحيد الشاغر من بين جميع المقاعد جميعها كانت مشغولة ومكتظة وزاخرة من قبل أعداد كبيرة من المسافرين وعائلاتهم بشكل لا يصدق، جلس ميخائيل على المقعد ووضع بجانبه حقيبة سفره وهي حقيبة مصنوعة من الجلد البني الداكن تحتوي فقط على ثيابه وأغراض ضرورية للسفر، اطرق رأسه وانحنى به إلى جسده ووضع يده اليمين على جبينه وهو يرتكز بنفس ذراعه اليمين على ركبته، أغمض عينيه الصغيرتين وغرق في أفكار رأسه وبدا عليه من تعابير وجهه البائس بأنه كالميت وهو على قيد الحياة، رفع ميخائيل رأسه إلى السماء وفتح عيناه وتحدث إلى نفسه ورأسه لا يزال موجهاً إلى الأعلى وقال كم الحياة قاسية يا للهول!،

أصبح الألم في داخل قلبه يعتصره عصراً وبدأ يكبر شيئاً فشيئاً لاقتناعه التام بأنه لا يستطيع تقبل واقعه الذي أصبح فيه اليوم والذي آل عليه وكثرة تفكيره الذي أضناه في كيفية تأمين سبل العيش بكرامة ومن دون حدوث خدش في كبريائه، كان مزاجه يتقلب بين لحظة وأخرى ويتغير من سيئ إلى أسوأ فلن يهتم أحد من الناس لأمره ان كان مفلسا او لا أنه يعلم ذلك،

لا احد يكترث لأحد في هذا الوقت للأسف الشديد فالكل منهمك بأعباء الحياة الرتيبة، خفض ميخائيل رأسه ونظر إلى الأمام انه رجل في

العقد الخامس من عمره تقريباً بقامة معتدلة لا طويل ولا قصير مستدير الوجه اصلع الرأس من الأعلى فقط مع وجود شعر خفيف على جوانب رأسه لونه رمادي غير مرتب، تعابير وجهه تدل على انه رجل لا يكترث لأي شيء في هذه الحياة ولكن في حقيقته رجل هادئ من الخارج ولا يتكلم كثيراً ولكن يبدو عليه التوتر من داخله، فهو شارد التفكير ينتابه في بعض الاحيان شيء من فورات الغضب فينتفض بكل ما آتاه الله من قوة ويظهر ما كان يكبته كل هذه المدة ولا يستطيع حينها أن يشرح حالته النفسية التي يمر بها حتى أن الكلمات التي تخرج من فمه تخرج بصعوبة وأثناء اجتياحه ومروره بحالة من حالات الغضب يبدأ بالحديث بصورة لا تنقطع أبدا ويغرقك بوابل من الكلمات من دون أن يتوقف عن الحديث ويخرج لعابه من فمه ويبدأ بالتطاير في الجو بشكل مفرط ومثير للاشمئزاز والتقزز وخاصة الذي يتحدث مع ويقف أمامه وفي هذه الحالة التي يمر بها ميخائيل لا يمكنك أن تفهم من حديثه كلمة واحدة مهما حاولت الإنصات إليه، أن وجه ميخائيل من الوجوه المألوفة فهو ليس وسيما ومظهره لا يشد الانتباه لمن يراه، عينيه صغيرتين ولونهما بني داكن وشعره أسود فاتح مخلوط بخصل رمادية اللون أنفه صغير مستدق أما بشرته ليست بيضاء فهي مائلة للسمرة اخسف الوجنتين وفمه صغير اعتيادي لا يحتوي على أي من الملاحظات ويملك شارب محلوق بشكل خفيف، يرتدي ميخائيل بزة عسكرية بنية اللون مع قبعة واسع بنهاية منخفضة وحذاء مصنوع من الجلد أسود اللون ويرتدي فوق بزته العسكرية معطف طويل أسود اللون كالحا ويحتوي على ثقوب بعضها صغير وبعضها كبير ومن ناحية الكتف اليمين من الجهة الخلفية للمعطف، بعد انقضاء مدة من الزمن تقارب نصف ساعة

كاملة من جلوسه على مقعد الانتظار استعاد بعض أحداث اليوم المنصرم والبائس الذي مر به وتذكر كامل تفاصيله وكل ما حدث له بالأمس حتى وإن مرت سنين طويلة لن ينسى ميخائيل هذا اليوم المشؤوم بالذات إنها جبلة الإنسان الذي خلقت معه وستلازمه لحين موته يستطيع أن يستعيد الذكريات المؤلمة والحزينة بشكل جيد أما الذكريات المبهجة والسعيدة فمن النادر ما يتمكن من استعادتها وتذكرها أو حتى أن تمر على خاطره في يَوْمٍ ما، تمكن ميخائيل أن يتذكر كل شيء بأدق التفاصيل كأنه يراها وهي أمامه في هذه اللحظة الراهنة، فعندما أخبره الجنرال عن أمر إحالته إلى التقاعد وبعد أن انتهى الحديث الذي دار بينهما أدى الرقيب ميخائيل السلام العسكري المبتذل، يشغل ميخائيل رتبة رقيب في المعسكر وكان مشرفاً على توزيع المؤنة والطعام إلى مواقع المعسكر المتمركزة في جميع المناطق المحاطة به أنهى مدة عمله وهو في نفس عمله، أن الرجل العسكري سيان بينه وبين الرجل المستعبد فهو شاء أم أبى لا بد له من عدم مخالفة الأوامر المصدرة له من قبل العناصر الأعلى منه في الرتبة وعلي الرغم من كل ما قاساه من مرارة العيش في كنف الاستعباد لم يتأوه ويولول ولم ينبس ببنت شفة في يوم من الأيام في سبيل تأمين لقمة العيش له ولعائلته المعدمة، بعد أن استدار ميخائيل للخلف وهم متوجهاً نحو باب الغرفة بخطى بطيئة لكي ينصرف فجأة سمع صوت من خلفه يناديه ويستوقفه توقف أيها الرقيب! هنالك شيء عليك فعله الآن، تجمد ميخائيل في مكانه وبحركة سريعة منه عاد أدراجه وتوجه نحو الجنرال ووقف في نفس المكان الذي وقف فيه منذ قليل ونظر بدوره إلى فم الجنرال ليعرف بماذا سيخبره أو بشكل أوضح ماذا سيصدر له الجنرال من أوامر على ميخائيل أن ينفذها،

نظر إليه الجنرال وعلي وجهه تبدو تعابير الازدراء وبثغره الباسم ابتسامة يشوبها التهكم قال له لا بد لك من البدء بإجراءات أحالتك إلى التقاعد فور خروجك من هذه الغرفة والى ستعاقب، يمكنك الذهاب الآن إلى غرفة الرقيب الأعلى اناتولي لكي يبدأ معك الآن هل هذا مفهوم حضرة الرقيب؟،

أجابه ميخائيل بكلمات مقتضبة وبدأ الحزن يغلي داخله وقال له أمرك مطاع حضرة الجنرال، أدى ميخائيل السلام العسكري مرة أخرى وهم بالخروج من غرفة الجنرال استدار للخلف وتوجه نحو الباب وسار بخطى ثابتة لكي يوهم رئيسه الأعلى بأنه لم يتأثر من سماعه لهذا الخبر المؤلم له على الرغم من شعوره في هذه اللحظة بالحزن الشديد وسخطه على الجنرال، أن الجنرال أكبر سناً من ميخائيل ببعض الأعوام يبدو عجوزاً من مظهره الخارجي ولكنه معتدل الجسم ويبدو بصحة بدنية جيدة فهو طويل القامة بصورة مفرطة ومهيبة وعريض المنكبين قوي البنية شعره رمادي بأكمله لا يحتوي على أي واحدة سوداء اللون أو أي ما كان لون شعره فيبدو عليه من هيئته أن شعره كان بني اللون عندما كان صغيراً في السن أما حاجباه فكانا كذلك لونهما بلون شعره تقريباً ولكن بلون داكن يمتلك الجنرال جبهة عريضة وكذلك رأسه وصدغيه وفكه السفلي متسع من الأسفل بعض الشيء يبدو رأسه لمن يراه يأخذ شكلاً مربع ولكن بصورة متناسقة فهو وسيم بشكل ملحوظ بشرته بيضاء مائلة إلى الاحمرار بصورة كبيرة وخاصة عندما ينتابه الغضب فإن رأسه يصبح أشبه بجذوة ملتهبة فالجنرال كثير وسريع الغضب بطبعة أنفه طويل ورفيع معتدل وعينيه خضراوين صغيرتين وشاربه محلوق بشكل خفيف ولونه بلون شعره

يرتدي الجنرال بزته العسكرية بنية اللون مرتبة وأنيقة للغاية برتبها التي على كتفيه لونهما فضي لامعة يحمل بيده عصا خشبية جميلة بطول نصف ذراع وتتصل بنهايتها العلوية بكرة معدنية ذهبية اللون لامعة تسلب الألباب وتخفق لها القلوب، كان الجنرال يعتني بهندامه وقيافته العسكرية بأدق وكامل تفاصيلها ويعطي الاهتمام الكبر إلى حذائه الجلدي أسود اللون الملمع جيداً حيث يمكنك رؤية انعكاس صورتك فيه عندما تقع عليه عينيك من شدة بريقه ولمعانه كأنه ماسة لا تشوبها شائبة أو مرآة مصقولة بشكل جيد للغاية، أما غرفته فهي صغيرة ومعتمة ولكنها مرتبة تحتوي على مكتب صغير مصنوع من خشب شجرة البلوط مستطيل الشكل وعليه شمعة كبيرة وبعض الأوراق التابعة للعمل مرتبة بشكل أنيق وهنالك توجد محبرة موضوعة بجانب الأوراق ووسطها ريشة مستعدة للكتابة والتوقيع بواسطتها كانت هنالك أيضا أوراق رسمية على مكتب الجنرال مجهزة أمامه لكي يقوم بتوقيعها وخلف الطاولة يوجد مقعد خشبي على الطراز الكلاسيكي مصنوع من نفس نوعية الخشب التي صنعت بواسطته، المكتب مبطن المقعد بقماش من المخمل الناعم لونه بني فاتح كانت الغرفة زاخرة بأنواع مختلفة من الصور والأيقونات المعلقة على جدرانها من جميع الجهات غلفت جدرانها بورق حائط أبيض اللون وعلي شكل مربعات صغيرة مزخرفة باللون الأبيض والأسود في وسط كل مربع بنفس النقش وبصورة جميلة وضع أمام مكتب الجنرال مقعدين متقابلين وبينهما مسافة تفصلهما طاولة صغيرة وضع عليها مطفأة سكائر خشبية وضعت في وسط الطاولة أن جميع الأثاث الذي فيها صنع من خشب البلوط الرائع باستثناء بابها فهو أيضا من الخشب لكنه مطلي بطلاء أبيض اللون لا يمكن

معرفة نوعية الخشب ولكن على أية حال فغرفة الجنرال جميلة جداً ونظيفة ورائحتها زكية، هذا ما لاحظه ميخائيل من داخل غرفة الجنرال،

أنهى ميخائيل الأعوام المقررة له في وظيفته داخل معسكر سسترورتسك وهي إحدى القرى الريفية في روسيا بدأ ميخائيل وظيفته في هذا المعسكر وانتهى أيضا في نفس المعسكر ولاقى صعوبة من خلال سفره على متن القطار في كل مرة يذهب فيها إلى عمله وذلك لبعد المسافة الفاصلة بين سانت بطرسبرغ وقرية سسترورتسك، خرج ميخائيل من غرفة الجنرال مشتت الذهن وأصابه ألم في رأسه بشكل مفاجئ كأنه تلقى ضربة موجعة على رأسه وفقد توازنه وانقلبت تعابير وجهه إلى التجهم والعبوس وهو يتخبط لا يعلم ماذا يفعل في هذه اللحظة وكيف سيواجه مصيره المحتوم، أصبح ميخائيل يدخل في غرفة ويخرج من غرفة أخرى لا يعلم ماذا يريد وهو يسأل أي شخص يمر بجانبه عن الرقيب الأعلى أناتولي وأين يمكن أن يجده وقد كره هذا الشخص تحديداً ولقاءه من غير أن يراه لا يعلم لماذا؟ هل يا ترى لأنه الشخص الذي سينهي مسيرته الوظيفية؟ أم أن لدى ميخائيل غاية أخرى لا يعلم بها سوى الله حتى هو نفسه لا يعلم لماذا هو واجم إلى هذا الحد الكبير، آه، يا إلهي كم هو من الصعب مواجهة هذه الحياة البائسة ومجابهة هذه الدنيا الوضيعة من دون وظيفة وبفقر مدقع وأنت لا تملك في محفظة نقودك أياً من المال وخاصة عندما يكون لديك عائلة تكون مسؤولا عنها وملزما بتأمين العيش اللائق لها وأنت لا تملك ما يسد رمقك ورمق عائلتك، هل شعرت بهذا الإحساس يا سيدي؟ هل دخلت بمثل هذه التجربة اللعينة؟ انه شعور يجعلك على حافة الانهيار وربما يذهب بعقلك وتصاب من جرائه بالجنون وبالتالي يؤدي بك إلى

الشروع بأنهاء حياتك لكي تمنع نفسك من رؤية العذاب الحارق الذي يطرق بابك في كل لحظة وأخرى، بعد أن تعجز عن قتل الفقر يلتفت إليك ومن دون أن يشعر بالذنب يقوم بأنهاء حياتك، أن الفقر في اغلب الأحيان يؤدي بك إلى أنهاء حياتك بأي شكل من الأشكال،

ظل ميخائيل يجري بين أروقة مبنى المعسكر وهو يحدث نفسه بصوت مرتفع يدعو للأستغراب ويقول يا إلهي! ماذا سأفعل الأن؟ التقاعد؟ كيف حدث هذا؟ أن الأموال التي أتقاضاها لا تكفي لدفع مستحقات السكن أذن ماذا سيحدث في هذه الحالة وانا رجل متقاعد، لا يمكن هذا أبدا انه ضرب من الجنون، من المؤكد أن الجنرال يمزح معي! لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً، أصابه ذهول تام كأنه دخل في نوبة من الهذيان التي تصيب مرضى الحمى واستمر بإعادة هذه الأفكار داخل رأسه وهو يشعر بالإحباط، ساعد ميخائيل مجموعة من الموظفين الواقفين بارساله إلى ضالته المنشودة أي إلى غرفة الرقيب الأعلى بعد أن استنزف طاقته خلال سيره بين أروقة وغرف المبنى وهو يتفوه بكلمات مثيرة للشفقة لكن لا يمكن لأي احد أن يستغرب ذلك بالنظر إلى حالته التي يمر بها والتي لم يستطع تقبلها إلى هذه اللحظة كل شيء بالنسبة لميخائيل مضى على نحو سيء ولم يكن لديه ادنى فكرة لما سيواجهه اليوم من متاعب لم يكن يفكر فيها ولم يتصور ابدا ان يمر بمثل هذا اليوم العصيب طوال حياته انه أمر مدهش وفظيع بالنسبة لميخائيل ولكن لا مناص منه فالحياة بائسة وعليه أن يتقبل واقعه ويتعين عليه أن يتحمل أعباء الحياة الرتيبة،

توقف ميخائيل عن التفكير والتحدث إلى ذاته بعد أن توقف أما باب غرفة اناتولي الرقيب الأعلى فحين توقف شعر بأن الحياة توقفت بالنسبة

إليه وقبل أن يطرق الباب توقف لوهلة وتحدث داخل نفسه وقال هذه هي نهايتي، هنا وفي هذه الغرفة سوف ينتهي كل شيء، طرق مرتين على الباب وبقى ماكثاً في مكانه بمواجهة الباب بعد ذلك سمع صوتا ينادي تفضل!،

لقد طرق ميخائيل على باب معدنية ثقيلة أحدثت جلبة وضجيج داخل أروقة المبنى،

فهي باب معدنية مطلية باللون الأسود دفع ميخائيل الباب وهرع إلى داخل الغرفة بخطى سريعة ووقف أمام الرقيب الأعلى بعد أن أدى السلام العسكري وقبل أن يفتح ميخائيل فمه وقبل خروج حرف واحد من بين شفتيه منعه الرقيب الأعلى من البدء في الحديث بإشارة من يده وقال له بصوت متهكم وحاد يدعو إلى الضحك اسمك هو الرقيب ميخائيل وأنت هنا لكي ينظم لك كتابك لأنك أحلت إلى التقاعد أليس كذلك هه هه هه نعم انه كذلك على ما يبدو، يبدو ذلك على وجهك، تكلم اناتولي من دون أن يرفع رأسه نحو ميخائيل فقط قام باختلاس نظره واحدة من تحت نظارته حين دخل عليه الغرفة وعندما بدأ اناتولي بالحديث وهو يغمز بعينه اليسرى أدى ذلك إلى أثارة التقزز لدى ميخائيل، أن الرقيب الأعلى هو نوع من أنواع البشر الذي يظن نفسه بأنه شخص ماكر ويوهمهم بذلك وهو محق في هذا فهو يشبه الثعلب الماكر حتى في شكل وجهه فهو يمتلك أذنين كبيرتين وانف صغير مستدق كأنف الثعلب وصوته الحاد المثير للسخرية، جلس اناتولي خلف طاولة زاخرة بأكداس من الأوراق غير مرتبة وقذرة انه شخص قذر ومثير للاشمئزاز وغرفته قذرة، شتان ما بين غرفة الرقيب الأعلى وغرفة الجنرال هناك فرق كبير بينهما من ناحية نظافتهما، يرتدي اناتولي بزته القذرة المليئة ببقع الحبر وآثار الطعام الذي يتساقط من

فمه أما غرفته فرائحتها كريهة خانقة عفنه كأنها تحتوي على جثة متفسخة بالإضافة إلى رائحة جسد أناتولي يمكنك تمييزها فور دخولك للغرفة كأنه لم يستحم لمدة أربعين سنة يا إلهي!، استطاع ميخائيل أن يتحمل حالة الغرفة المزرية وحالة الرقيب الأعلى وتهكمه ورائحة الغرفة التي لو بقي ميخائيل فيها لبضع دقائق أخرى لربما قد يفقد وعيه ولكنه تحمل وأظهر شيئاً من التهذيب وتحمل الرائحة بصعوبة بالغة، نظر ميخائيل إلى الرقيب الأعلى بنظرات استهجان وأراد أن يبصق عليه ويركله على وجهه المتهكم ولكنه تذكر أنه لا بد من أن ينهي ما أمره به الجنرال من دون إثارة المشاكل والعودة إليه لكي يوقع له أوراقه وينتهي بعد ذلك كل شيء بصورة نهائية والى الأبد، رفع اناتولي رأسه البغيض نحو ميخائيل بعد أن كان منهمكا في كتابة الكتب الرسمية، أشار له نحو مقعد خشبي بالي أمام طاولته ودعاه إلى الجلوس وقال له وهو يغمز بعينه اليسرى وصوته الحاد الذي يشبه صوت امرأة والذي لا يتناسب مع مظهره وحجمه اجلس يا رجل إنها آخر جلسة تجلسها في هذا المعسكر هه هه وبمكر قبيح من قبل اناتولي قال لن تتأخر يا رجل سوى بضع دقائق وينتهي كل شيء بالنسبة إليك، وأضاف اناتولي قائلاً أؤكد لك لن تنتهي حياتك المهنية فقط بل ستنتهي حياتك أيضا تذكر هذا أيها الرقيب صدقني هه هه، هيا يا رجل اضحك لا تبقى مكفهر الوجه هكذا سنمر نحن أيضا خلال نفس الطريق الذي تمر به الآن لا تقلق، كان ميخائيل يستشيط غضبا وهو يكز على أسنانه ويهدئ نفسه ويقول إنه ليس سوى أحمق وأنسان حقير متهكم ومستفز لا عليك به ميخائيل، ولكن كم أتمنى أن احطم وجهه القبيح وأوقفه عند حده، اهدأ يا ميخائيل، تحمل، هدأ ميخائيل من روعه وهيجان روحه من الداخل في حين انتهى اناتولي

من تنظيم أوراقه ولم يبق سوى التوقيع بريشة الجنرال وينتهي كل شيء، تحدث اناتولي وهو ينفخ على أوراق ميخائيل ليجف الحبر عليها وقال والان لقد أنهيت حياتك! آوه، عفواً اسف يا رجل سامحني لم أعن ما قلته لك، هه هه هه، يا للهول كنت اقصد أن أقول أنهيت أوراقك،

تكلم وهو يمد يده ويسلمه أوراقه وقبل أن يمسكها ميخائيل سحبها اناتولي نحوه ولكن بقيت يده ممتدة وقال له لا تنسى ما أخبرتك به منذ قليل، تذكر حديثي جيداً يا رجل فسيحدث هذا قريباً جدا.. ها ها ها سلم اناتولي الأوراق لميخائيل وأخذ يضحك ضحكاً مجلجلا وهو يتكئ بمقعده ويرتكز عليه للخلف من فرط الضحك، أخذ ميخائيل أوراقه من بين يدي الرقيب الأعلى وبحركة سريعة كأنه انتشلها من يده بقوة وغضب شديد بعد أن حدق في عينيه بنظرات توحي إلى الاستهجان مما فعله لناتولي من عمل وضيع وفجأة بصق على الأرض واستدار مسرعاً نحو باب الغرفة ليهم بالخروج ومن غير أن ينطق بكلمة واحدة أثناء خروجه مما جعل أناتولي في حالة من الانشداه لما فعله ميخائيل من فعل لم يكن يتوقعه البتة وهو فاغر الفم، لم يأخذ اناتولي ما فعله ميخائيل على محمل الجد وعندما فتح ميخائيل الباب صرخ اناتولي خلفه وقاله له لا تنسى ما قلته لك يا رجل ستنتهي حياتك قريباً تذكر هذا الشيء ها ها ها، خرج ميخائيل من الباب واغلقها خلفه بقوة أصدرت ضجيجا بين أروقة المبنى يصم الأذن وقفل راجعاً إلى غرفة الجنرال كما طلب منه ورأسه لا يحتوي على أي أفكار كأنه ورقة بيضاء حاول بأنه لا يفكر بأي شيء ريثما ينتهي من هذا الكابوس المرعب الذي حضره فجأة، وصل ميخائيل إلى باب غرفة الجنرال وطرق على الباب بهدوء وهو يحمل بيده أوراق تقاعده، سمح له

الجنرال بالدخول وبدوره قدم ميخائيل أوراقه بتردد بعد أن أدى السلام العسكري، استلم الجنرال الأوراق من بين يديه وتم تمحيصها بعينيه رفع رأسه نحو ميخائيل وقال له هم، جيد كل الأوراق لا عيب فيها لقد انتهى كل شيء، لقد أصبحت الآن رجل متقاعد، وضع الجنرال الأوراق على مكتبه وقام بغمس ريشته بالمحبرة ووقع جميع الأوراق، عاد ميخائيل إلى واقعه ولا يزال يجلس على مقعد الانتظار في محطة القطار لا يعلم كم من الوقت مضى على جلوسه، حمل حقيبته من جانبه ونهض بتثاقل كبير لم تستطع قدماه أن تحملاه وقال بصوت مسموع ولكن يختفي بين صخب المسافرين آه، يا إلهي كم الحياه قاسية، ولكن لا بد من تقبلها على حقيقتها إنها حقيرة هه هه، هذه هي حياتي وان الزمن صعب جداً ....يتبع

الفصل السابـع

خرج ميخائيل من محطة القطار وحاول جاهداً أن يملأ يومه بالأمل وان يخفف من حدة بؤسه الشديد ولكنه لم يتمكن من إيجاد السلام الداخلي لديه بأي شكل من الأشكال وأجهد نفسه بالتفكير الذي لا طائل من ورائه فما حدث بالنسبة إليه قد حدث ولا يستطيع أن يعيد الزمن إلى الخلف، حتى وإن عاد الزمن به إلى الخلف ماذا قد يحدث؟، لا يستطيع ميخائيل تغيير واقعه أو إعادة ما بناه من جديد فهذا الشيء يتطلب تغيير أفكار رأسه من جذورها وهذا ما لا يمكن حدوثه مع ميخائيل، لن يتمكن أي شخص في هذه الحياة أن يعيد صياغة أفكاره من جديد أبدا، أخذت الأفكار تدور وتجوب داخل رأسه أثناء سيره على قدميه وهو يحمل حقيبة سفره شعر حينها بالإرهاق والإعياء الشديد، لقد أجهد ميخائيل رأسه بالأفكار السوداوية المتشائمة بعد ان أخذت منه كل مأخذ ولم يعد بمقدوره السير أكثر من هذه المسافة وهو يحمل حقيبته ثقيلة الوزن، بعد أن مضى على سيرة لمدة أربعين دقيقة توقف على جادة الطريق أراد أن يستقل عربة ولكن لا توجد سوى واحدة فقط في الشارع وهي قصية عنه ولكن لحسن حظه فإن عربة الحوذي لم تكن تسير بل كانت متوقفة بجانب رصيف الشارع، يبدو ان الحوذي كان يطعم حصانه على حسب ظني وضع ميخائيل حقيبته على الأرض لكي يريح ذراعه التي أنهكت من حملها

وجلس على حافة الرصيف بموازاة الناحية التي تقف عندها العربة وقال في سره سأجلس هنا على حافة الرصيف لأستريح بعض الوقت، جاءته بعض الأفكار فور جلوسه وبدأ يحدث نفسه ماذا ستفعل يا ميخائيل بعد أن أحلت إلى التقاعد؟ من أين سأجلب المال الكافي لأدفع بها مستحقات السكن هذه ولكن أي سكن؟ أنه ليس سوى قبو حقير قذر لا أستحق أن ادعوه بالسكن أنه قبر يا إلهي كيف سأواجه مارغريتا إنها عجوز شمطاء لا يمكنها أن تتحمل تأخير دفع المال ليوم واحد آوه! كم تمنيت ان أقتلها بيدي هاتين وأتخلص منها ومن جثتها العفنة وارميها إلى كلاب الشارع الجائعة فعلاً ستقوم الكلاب بشكري سيكون هذا عزائي الوحيد، أثناء خوضه في هذه الأفكار الإجرامية والانتقامية التي انتابته فجأة وهو مطرق الرأس نحو الأرض مر وقت جلوسه على حافة الرصيف لمدة نصف ساعة كاملة وبعدها لم ير شيء سوى أنه شعر بأن هنالك يد ممدودة نحو رأسه ومفتوحة بكاملها وعليها ثلاث عملات معدنية وسمع صوت متهدج وهو يقول له خذ هذا المال يا رجل يبدو أنك فقير بائس هيا خذ لا تخجل! ولكن لماذا لا تأخذها، نحن جميعاً فقراء ومعدمين في هذه الدنيا خذ، دس الرجل المال في يد ميخائيل عنوة،

يبدو على الرجل أنه في حالة سكر مفرطة واخذ منه الشرب كل مأخذ، ظل الرجل الغريب يغني ويرقص أمامه ومن دون أن يرفع ميخائيل رأسه ناحيته تمكن من معرفة انه قد وصل إلى أشد حالات السكر فقد شم رائحة الكحول وتبغ السجائر التي تفوح منه، كان الرجل الغريب يظن بأن ميخائيل فقير يجلس على حافة الرصيف لكي يستعطي المال،

أراد ميخائيل فجأة أن يثب على قدميه ويزجر الرجل ويصرخ بوجهه

ويعنفه ويركله بقدمه ويبصق عليه أراد أن يمطره بوابل من الشتائم المقذعة والألفاظ النابية من غير أن يعرف ماذا يبيت له الرجل الغريب وما يكنه في قلبه من عفوية وقلب أبيض لا تشوبه شائبة إنها الأفعال العفوية التي تأتي من صفاء القلب أنما توقعنا في شرك المصائب التي لم تكن في الحسبان، لا يمكنك أن تحكم على شخص بمجرد أنه تكلم أو أن تحكم عليه من أفعاله أو ربما من تحركاته التي يفعلها أو حتى من مظهره ونوعية ثيابه سواء كانت فاخرة أو بالية فكم من غني بمظهره الأنيق لا يملك من صفاء القلب ولو ذرة واحدة على الأقل وكم من أشخاص معدمين ومتشردين وهم يملكون نقاء القلب يمكنهم أن يشعروا بهذا الشيء فقط من هم لديهم في هذه الحياة كل شيء جلي ومتساوي أي أنه يشعر بالسعادة حتى وإن أصابه شيء من البؤس ومن النادر جدا أن تجد في أيامنا هذه شخصية عظيمة كهذه الشخصية التي أصفها لك! نعم إنها شخصية عظيمة من وجهة نظري ولا بد أن تكون عظيمة في أعين جميع الناس، أن أسمى وأعظم الحالات التي تصل إليها روح وقلب الإنسان نقاوة وعذوبة عندما يقدم شخص ما من الأشخاص الفقراء والمعدمين على المساعدة بالرغم من أنه في أشد حالاته فقرا وبأساً، هذا ما يجب على جميع البشر أن يقوموا بفعله ينبغي لنا أن نكمّل أحدنا الآخر فالغني يكمل الفقير لكي تتحقق العدالة التي طالما حلمنا بها ولا نزال نأمل حدوثها في يوم ما ولكنه ضرب من الجنون يا سادة ففي نظري إنها من الأمور المستحيلة التي لا يمكنها أن تحدث البتة أنه عبث محض إنها من الأمور العبثية التي لا يمكن أن تدركها أقوى وأذكى العقول على وجه الأرض أن يصبح الجميع متساون فهذا لن يتحقق حتى في الخيال فلا يمكن أن يصبح الجميع أغنياء أو الجميع فقراء لن تتمكن

من محو أضداد الأشياء فلكل شيء ضده في هذه الحياة ومثال على هذا لا يمكنك أن تدعو شخصاً غنياً إن لم يكن هنالك شخص فقير وبالعكس لا يمكن أن تدعو شخصاً فقيراً إن لم يكن هنالك شخص غني، هذه هي الحقيقة يا سادة التي لا يتقبلها كلا الطرفين وجميع أصناف البشر، استطاع ميخائيل أن يثب على قدميه مرة أخرى بعد أن أصابهما الوهن الشديد وأثناء نهوضه أفلت الأموال المعدنية على الأرض وأحدثت أصوات حين ارتطامها وهو فاغر الفم لم يخيل حدوث مصادفة عجيبة أمرها كهذه من قبل، نهض ميخائيل بقامته المعتدلة وزيه العسكري تمكن الرجل الغريب من ملاحظة بزته العسكرية بوضوح تام هذه المرة فهو لم يلاحظ هيئة ميخائيل عندما كان جالساً على حافة الرصيف وهو مطرق الرأس خافياً زيه ومظهره، لم يتمكن أحد أن يدرك أن الرجل الجالس هو رجل عسكري لأن ميخائيل جلس بوضعية كأنه حيوان خائف من شيء ما أو أنه سيعرض لخطر ما فهو جَالِسٌ ومتخذ وضعية القرفصاء لا يبدو من بزته سوى غطاء رأسه الذي لا يحتوي على شعار عسكري يمكن معرفته منه وتبدو وكأنها قبعة اعتيادية ومعطفه الطويل الذي كان متلفعاً به كغطاء النوم دافناً رأسه فيه لا يبدو من زيه أي شيء ظاهر مما جعل الرجل الغريب لا يميزه في بادئ الأمر وظن بأنه شَخْصٌ من الأشخاص الذين يجوبون الشارع وليس هنالك مكان يؤويهم، أصبح كليهما مشدوهاً من الآخر ولا يعلم كل منهما ما يجوب داخل رأس الآخر،

أصيب الرجل الغريب بحالة من الذهول وبدا وجهه شاحباً بدرجة مفرطة ومن شدة فزعه زيل عنه كل مؤثرات الخمر الذي تجرعه كأنه تم رشقه بماء بارد وشهق من فرط برودة الماء لقد تبين الآن للرجل حقيقة

ميخائيل وعلم بأنه رجل عسكري عرفه من زيه وبادر الرجل في الحديث بعد أن كسر حاجز الصمت والانشداه الذي انتابهما ومن شدة خوفه حاول أن يفر من المأزق الذي وقع فيه وبدأ يتفوه بكلمات غير مفهومة وهو يقول لم أكن أنوي أن أقو...م لم يكن لدي أدنى فكرة عن ..... ظننتك رجلا فقيرا، آوه يا إلهي! أرجوك سامحني يا سيدي على خطئي ولا تزج بي في السجن أرجوك أنا رجل بائس شقي لا تأخذ كلامي على محمل الجد،

يا رباه ماذا فعلت بنفسي، دفن الرجل رأسه بكلتا يديه وبدأ ينشج بالبكاء لا يعلم لماذا هو يبكي أهو من الخوف أم أنه من تأثير الكحول الذي قام بازدراده، لم يتمكن ميخائيل أن يتعرف على حالة الرجل مطلقاً وقام بالاقتراب منه بعد أن انحنى على النقود التي سقطت من بين يديه وبدأ يجمعها من على الأرض ببطيء شديد ونهض مرة أخرى ونظر إلى الرجل نظرة مليئة بالشفقة على هذا الرجل البائس الذي أخذ يبكي بمرارة على نفسه ربما بكى من شدة بؤسه أو شيء آخر لا يعلمه أحد، وضع ميخائيل يده اليسرى على كتف الرجل ودس النقود بداخل جيب معطفه قال له هل تعطي لصديقك القديم ثلاث كوبيكات فقط ألا استحق أكثر من هذا المبلغ يا ديمتري العجوز؟!، تفاجأ الرجل من سماعه لاسمه علي لسان رجل غريب يرتدي بزة عسكرية ويجلس على رصيف الشارع لا يعرف من هو بالتحديد، توقف الرجل عن البكاء بشكل مفاجئ كأنه لم يكن يبكي مطلقاً حل صمت مطبق وأمر الرجل بخفض يديه من على وجهه الزاخر بالتجاعيد والتعب من مشقات الحياة البائسة ونظر إلى وجه ميخائيل بنظرة مستفهمة وعينين مليئتين بالدموع الحارة وبدأ يمسح دموعه بكلتا يديه وأخذ يتكلم بشكل سريع ومتوتر بعد سماع اسمه من قبل شخص لم يعرفه

ولم يلتق به وربما يظن أنه لم يلتق به مسبقاً وقال ولكن يا سيدي الشاب من أين لك أن تعرف اسمي؟ هل التقينا سابقاً؟ قل لي أرجوك بأنك لن تفعل لي شيئاً يؤذيني، خذني إلى السجن أن شئت لأني لا ارغب الذهاب إلى منزلي الموحش وأنزل بي عقوبة الأعمال الشاقة ولكن لا تؤذيني أرجوك، ربت ميخائيل على كتف الرجل وابتسم له ابتسامة عذبة تنم عن شعوره بالشفقة اتجاهه وقال له لا تقلق يا صديقي القديم، ولكن ألم تتمكن من التعرف على وجهي يا رجل؟ أنا ميخائيل الرقيب ميخائيل المشرف على توزيع الطعام على نقاط تمركز العناصر في معسكر سسترورتسك، لقد كنت معي حينها في نفس الوحدة ألا تذكر ذلك؟، أحدق ديمتري العجوز إلى وجه صديقه ميخائيل وظل يتفحصه بعينيه لمدة دقيقة كاملة ولكنه تبين إليه أنه لم يتعرف عليه للوهلة الأولى أزعج ذلك ميخائيل بدأ يتكلم ويخرج اللعاب من فمه كعادته حين يغضب ماذا حدث لك أيها العجوز هل أصابك الخرف ولم تعد تذكرني، ابتسم ديمتري ابتسامة فرح شديد وقال كلا يا عزيزي لقد تذكرتك آوه يا إلهي كيف لي أن أنسى وجهك حين ينتابك الغضب نعم ... نعم ميخائيل الغاضب هكذا كنا ننعتك حينها أليس كذلك؟، تعانق الاثنين عناق الأصدقاء أصبح ديمتري في غاية السرور حتى إنه أراد أن يقفز من فرط السعادة والجذل الذي انتابه في هذه اللحظة ولكنه ظل مصدوما من شيء ما يبدو هذا عليه من تعابير وجهه المتعبة على الرغم من أنه لقي شخصاً ما يواسيه في محنته العصيبة والفاجعة التي حصلت له، أن ديمتري رجل قد بلغ الخامسة والستين من عمره وهو قصير القامة بشكل مفرط أشعث الشعر غير مرتب لا يرتدي غطاء للرأس وثيابه ممزقة بالية ومتسخة بشكل كبير جداً، لديمتري شعر ذقن طويل جداً وغير مرتبة

رمادية اللون وكذلك شعر رأسه أيضاً عينيه بنيتين صغيرتين وهو اخسف الوجنتين، يرتدي معطف مهترئ أسود اللون طويل وتحته كان يرتدي فقط ملابس داخلية بيضاء اللون ومتسخة من غير أن يرتدي فوقها قميص أو كنزة لا يرتدي أي شيء سوى ملابس داخلية وفوقها معطف بالي ويرتدي بنطال خفيف من القماش لا يحمي من البرد القارس وممزق بشكل يدعو للرأفة على حال العجوز يرتدي ديمتري حذاءه الممزق من الأمام بثقوب واضحة حيث موضع الأصبع الكبير للقدم فأنه يبرز من ثقب الحذاء بصورة واضحة ويرتديه من غير جوارب، بدأ ميخائيل موجهاً الكلام إلى ديمتري ولكن ماذا تفعل هنا يا صديقي؟ وما هذه الحالة المزرية التي عليها؟ ماذا حدث لك؟ ثيابك ممزقة ومتسخة جداً أين كنت بحق الجحيم؟، لم يَحِر ديمتري جواباً وتحولت تعابير وجهه من الجذل الشديد إلى الحزن ودخل في صمت مطبق وعقد لسانه وبدا على ملامح وجهه كأنه تذكر حادثة ما في هذه اللحظة، أن سرعة التحول في الملامح التي حدثت لديمتري لهو أكبر دليل على شدة بؤسه وشقائه، هذا ما بدا على ديمتري حين قام ميخائيل بطرح وابل من الأسئلة لم يتكلم ديمتري أبدا حتى أنه بالكاد استطاع تحمل الوقوف على قدميه طيلة هذا الوقت وظل يترنح في مكان وقوفه أثناء تحدثه إلى ميخائيل،

عندما لاحظ ميخائيل بأن ديمتري لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه وعادت له حالة الثمالة مرة أخرى، وبعد مضي أكثر من نصف ساعة على الحديث الذي دار بينهما، قال له ميخائيل وهو يلف يده اليسار حول ديمتري ليسنده من تحت ذراعه وحمل حقيبته بيده اليمين تعال الآن ديمتري تعال يا صديقي القديم لنذهب الآن و سأدعوك لنحتسي الشاي معاً في محل قريب

من هنا وعندها تستفيق من الثمالة الفظيعة التي أنت عليها وسنتحدث هناك، ستشرح لي كل شيء لاحقاً هيا بنا، اسند ميخائيل رأس ديمتري نحو صدره لقصر قامة ديمتري الذي يصل إلى منطقة صدر ميخائيل وسارا ببطيء شديد وتوجها نحو عربة الحوذي الذي ما زال يقف بجانب الرصيف وهو يطعم حصانه، تفصل المسافة ما بين محطة القطار وسكن ميخائيل الذي يقطن فيه قرابة أربعة فراسخ ونصف الفرسخ قطع ميخائيل من هذه المسافة نصف فرسخ فقط سيراً على الأقدام من محطة القطار لحين وصوله إلى نقطة توقفه وجلوسه على حافة الرصيف وفكر حينها بأن يستقل عربة لكي يكمل ما تبقى له من مسافة تفصله عن مكان سكنه، ولكن الآن وبعد أن التقى بصديقه القديم مصادفة تغيرت خطته ووجهته واعرض عن الذهاب للمنزل في بادئ الأمر، لقد نزل ديمتري عليه من السماء وأنساه ما كان ينتابه من أفكار سوداوية ومتشائمة في يومه هذا حول ما كان يفكر في معيشته في المستقبل القريب لم تعد هذه الأفكار موجودة داخل رأسه حالياً ولكنها ستنقض عليه في وقت ما لا يعلم هو في أي زمن، هذا هو الواقع الذي نعيشه عندما نمر في حالة اليأس والبؤس الشديد وعندما تشعر بأن الحياة تضيق عليك الخناق لا تفعل أي شيء سوى أن تنظر إلى من هم أسوأ منك حالاً فيخفف ذلك من حدة بؤسك، حتى وإن شعرت بالكآبة المفرطة وعزمت أمرك على أن ترمي نفسك من أعلى جسر والي وسط المياه لا تفعل ذلك وانظر إلى الناس من حولك كل واحد منهم يملك مشكلاته الخاصة وعندها تستيقن بأن مشكلتك لا شيء مقارنة بمشاكل الآخرين فتتلاشى تلقائياً من غير أن تشعر هذا ما علينا فعله في أغلب الحالات والمشاعر التي تنتابنا في معظم الأوقات، بعد مواصلة السير استطاع ميخائيل وصديقه ديمتري

أن يصلا إلى عربة الحوذي بصعوبة بالغة، استأجر ميخائيل عربة الحوذي ببعض الكوبيكات وقام بحمل ديمتري ومساعدته على الصعود على متن العربة وضعه على المقعد وجلس ميخائيل بجانبه وقال ميخائيل للحوذي بعد أن أخبره عن وجهتهما التي سيذهبان إليها انطلق الآن يا صديقي نحن مستعدان، شد الحوذي اللجان على خيله وأصدرت ضرب كعوب الحصان على الأرض صوت وانطلقت العربة في الهواء الطلق، كان الطقس في هذه الساعة من الوقت صافي ويهب بين كل لحظة وأخرى نسيم من الهواء النقي البارد الذي تهدأ القلوب له، جعل هبوب الهواء النقي البارد الذي هب على وجه ديمتري في حالة من النشوة والشعور بالنعاس فغلبه النعاس فجأة وأمال برأسه على كتف ميخائيل وغط في نوم عميق نظر ميخائيل إليه بطرف عينيه وابتسم مشفقاً على حالته، أنه فعلاً شيء يدعو لإثارة الحفيظة رجل عجوز ينام على كتف صديقه الذي يصغره في السن كأنه طفل صغير ويحتاج إلى شفقة أبيه، قال ميخائيل في قراره نفسه يا للهول لقد نام بالفعل هه، بعد مرور نصف ساعة على سير العربة بهما وصلا أخيرا إلى محل لتقديم الطعام والشاي الساخن لم يتبق على محل سكن ميخائيل سوى بضعة أميال عن المحل الذي توقفا عنده،

استيقظ ديمتري من نومه بسبب صوت الحوذي وهو يوقف حصانه، نظر ديمتري من حوله كأنه ولد من جديد فهو لم ينم بشكل جيد منذ مدة طويلة جداً لقد نفعه نومه قليلاً وزال عنه تأثير الخمر بشكل نهائي أراد ديمتري أن يهم بالنزول ولكن ميخائيل استوقفه وقال له انتظر ديمتري هل تستطيع النزول بمفردك؟ أجابه ديمتري بالتأكيد عزيزي ميخائيل أستطيع النزول بالتأكيد لا تقلق،

نزل ديمتري متثاقلاً من على متن العربة أمام ميخائيل وبعد ذلك شكر ميخائيل الحوذي وراء صديقه وانطلق الحوذي أمامهم بصورة سريعة، دخل الاثنان إلى محل صغير لتقديم الطعام والشاي وجلسا على طاولة خشبية صغيرة قريبة من باب الدخول ونافذة المحل،

كانت الطاولة مستديرة وصغيرة مصنوعة من الخشب وكذلك المقاعد التي جلسا عليها كان مكانا موحشا ولكنه يفي بالغرض فهو محل يقدم بعض صنوف الطعام وشاي ساخن لذيذ لقد اتيا إلى هذا المحل ليحتسيا الشاي ويتحدثا قليلاً، يحتوي المحل على ثلاث طاولات خشبية مستديرة وصغيرة موزعة على ثلاثة أركان مساحة المحل أما الركن الرابع فهو عبارة عن بناء حجري متصل في الجدار من جهة ومبني على الأرض أما من الجهة الجانبية الأخرى من البناء الحجري فهنالك مساحة صغيرة يدخل من خلالها الأشخاص يقف وراء البناء الحجري صاحب المحل وشاب في ريعان شبابه يبدو عليه أنه الشاب الذي يقدم طلبات المحل للزبائن، وضعت على حافة البناء الحجري بعض أصناف الطعام من السمك المقلي واللحم المقدد وأصناف أخرى من الطعام كانت جميعها موضوعة في آنية فضية اللون قديمة وبالية وكان هنالك بجانب الطعام سماور يغلي لصنع الشاي ويوجد هنالك خلف صاحب المحل رفوف معلقة على الجدار فوق البناء الحجري وضع عليها بعض أصناف المشروبات والأقداح والأكواب، كان السماور يغلي حينما دخل الرجلين على المحل وبعد جلوسهما على الطاولة الصغيرة قام صاحب المحل بنكز الشاب على كتفه ودمدم بصوت منخفض و بكلمات غير مسموعة للزبائن القادمين وقال له اذهب إليهم ولبي طلبهم على الفور، هيا اذهب، كان صاحب المحل ضخم

القد وبدين بعض الشيء سنه يتجاوز العقد الخامس وشعره أسود حالك بلون الفحم خفيف من الأعلى يبدو أصلع ولكن من الجانبين كثيف ويبدو أنه صبغه مؤخراً ويملك كذلك سالفين كثيفين على خديه يرتدي صاحب المحل قميصا أبيض اللون وفوقه صدرية لونها أسود وبنطال أسود اللون أما الشاب فيبدو عليه التوتر الشديد والتردد في عمل ما يطلبه منه رئيسه في العمل ولكنه في نفس الوقت يعمل بنشاط وأمانة يبدو عليه من وجهه الذي يحمل البراءة بشعره المجعد بمظهره الجميل وبشرته البيضاء النضرة كان يرتدي ثيابا متسخة بنية اللون وصدرية عمل بيضاء ملفوفة على خصره النحيل، توجد حول كل طاولة من الطاولات الصغيرة مقعدين من الخشب متقابلين وهنالك في وسط المحل توجد طاولة كبيرة مستطيلة الشكل حولها ستة مقاعد خشبية ثلاثة نظير الأخرى، ففي العادة لا يأتي الأشخاص هنا في هذا المحل بمفردهم بل على شكل مجموعة ليتسلوا ويحتسوا الخمر فهو محل هادئ للغاية ومناسب جداً حين يكون هناك القليل من الزبائن وعند دخول ميخائيل وصديقه ديمتري العجوز لاحظا بأنه لا يوجد هنالك في المحل سواهم، سار الشاب نحوهما وهو يمسح يديه وينظفهما بصدرية عمله المتسخة لأنه كان حينها يجلي الصحون الفارغة من الطعام المتبقي، تقدم الشاب وسألهما عن طلبهما بصورة لبقة ولطيفة وهادئة وقال لدينا بعض صنوف الطعام والشراب يا سادة، ما هو طلبكم؟، أجابه ميخائيل ووضع كلتا يديه على الطاولة بقبضتيه وقال أشعر بالجوع الشديد لم أتناول أي شيء منذ ليلة البارحة اجلب لنا قطعتان من اللحم وبعض الشاي رجاء، نظر ميخائيل إلى ديمتري عندما تكلم إلى الشاب وبعد أن فرغ من حديثه وجه كلامه إلى صديقه القديم وقال له أليس هذا مناسباً

يا ديمتري؟ ألا تشعر بالجوع؟ هيه يا رجل ماذا أصابك؟ ارفع رأسك لا تقلق سنتكلم بعد أن ننهي وجبتنا واعرف ما هو الشيء الذي يجعلك حزينا إلى هذه الدرجة المفرطة واوصلك الى هذا الحد من التعاسة، ثم التزم ميخائيل بالصمت المطبق توجه الشاب نحو صاحب المحل لتلبية طلب زبائنهم، أخبر الشاب طلب الزبائن لصاحب المحل وقام صاحب المحل بمليء الصحون بالطعام وأعطاها للشاب وملئ بعد ذلك كوبين من الشاي الساخن، وضع الشاب الطلب أمام الرجلين وانسحب نحو صاحب المحل بعد أن قال لهم هل تحتاجون شيئا آخر يا سادتي، أجابه ميخائيل بلطف كبير وبابتسامة عذبة وقال شكراً لك إياها الشاب اللطيف لا نحتاج الى أي شيء في الوقت الحاضر وعند احتياجنا لشيء سنخبرك لا محالة، بدأ ميخائيل بتناول قطعة اللحم الخاصة به وتحدث إلى ديمتري قائلاً هيه أيها العجوز لماذا لا تبدأ بالأكل سيبرد شايك ولن تستطيع تناوله، هيا يا رجل لا تخجل تناول طعامك يا صديقي العزيز،

نظر ديمتري إلى وجه ميخائيل وهو يشعر بالخجل الشديد، بعد ذلك مد يده وبدأ يأكل من طعامه الموجود أمامه، تناول قطعة اللحم الخاصة به ومن ثم ازدرد الشاي دفعة واحدة وبنهم كبير كأنه لم يأكل منذ سنة ووضع كوب الشاي على الطاولة، لقد شعر بتحسن كبير عند احتسائه الشاي وتناوله لهذه الوجبة مع صديقه القديم، تغيرت تعابير وجهه البائس إلى شيء من الارتياح، والآن بعد أن انتهيا من تناول طعامهما واحتسائهما الشاي بقيا في صمت لمدة دقيقتين نظر ميخائيل إلى صديقه وتعابير وجهه تنم عن الاستفهام يريد معرفة ماذا يدور في رأس ديمتري، كسر ميخائيل حاجز الصمت وصرخ بصوت مفاجئ وضرب بكلتا يديه على الطاولة مما

جعلها تصدر صوت قوي أدى إلى إفزاع ديمتري وخروجه من حالة الشرود التي كان عليها وقال والآن يا صديقي القديم هل لديك بعض التبغ؟ لكي نستطيع أن نتكلم بشكل أفضل، أجابه ديمتري ودخل في حالة من الارتباك ووضع يده في جيب معطفه وقال أجل أجل ميخائيل بالتأكيد يوجد عندي، اخرج ديمتري من جيب معطفه البالي علبة سجائر وأعطى واحدة إلى ميخائيل التقطها منه ووضعها مباشرة بين شفتيه وانتظر أعواد الثقاب، فعل ديمتري ما فعله ميخائيل ووضع سيجارة بين شفتيه واخرج عود الثقاب وأحرقه وبدوره انحنى بجسده على الطاولة ليصل إلى فم ميخائيل ليشعل له سيجارته وعاد إلى موضعه واشعل سيجارته هو الآخر نفخ على عود الثقاب ورماها على أرض المحل، بدا الاثنان بالتدخين ونفث الدخان إلى الأعلى حتى تكونت فوقهم غيمة من دخان السجائر وعندما رأى الشاب الذي يعمل في المحل بأنهم يدخنون احضر لهم مطفأة سجائر ووضعها في منتصف الطاولة بعد أن رفع الصحون الفارغة وأكواب الشاي وابتسم لهم وانسحب، تكلم ميخائيل بعد أن نفث دخان سيجارته وقال والآن يا عزيزي ديمتري يمكنك شرح ما جرى لك بالتفصيل، وماذا حدث لك لكي تصل إلى هذه الحالة المزرية، لا تخجل مني أبدا فأنا صديقك، هيا أسمعك كلي آذان صاغية، بدأ ديمتري بالحديث وهو يرتجف لا يعلم لماذا قال سأخبرك يا صديقي بما حصل لي وكل ما مر بي من أمور سيئة، قال هذه الكلمات وهو يشعر بحالة شديدة من الحزن وبعد ذلك توقف عن الكلام لنصف دقيقة ثم استأنف حديثه وقال بعد أن تم إحالتي الى التقاعد وحدث ذلك عندما أصبح عمري خمسين عاماً فقط وربما لم أتجاوز هذا السن لقد كنت شاباً حينها يا صديقي أي في عمرك تقريباً ولدي زوجتي

وابنتي وابني كأنهم أزهار يافعة وما حدث لنا لم يكن متوقعاً أبدا لقد اجتاحنا الفقر يا صديقي اجتاحنا الفقر فجأة وجعل من الصبيين في حالة من الذبول وزوجتي أيضا نحلت وتلاشت كما يذوب السكر في الماء، لقد تراكمت الديون فوق رأسي لم يكن بوسعي تأمين قيمة أجرة السكن الذي أقنط فيه ولا جلب الطعام الكافي لكي يسد رمقنا لقد أصابنا الفقر المدقع وليس هنالك من عمل لكي أقوم به لم أخرج من المنزل الا للذهاب إلى الحانة فقط اشرب حتى الثمالة جميع النقود كانت من أموال المساعدات وما تبقى من راتبي الذي استنزفته خلال فترة جلوسي داخل المنزل من دون عمل كأني كلب داخل قفصه وعندما أعود متأخراً من الحانة عند منتصف الليل لا أعلم كيف أعود في كل مرة يأخذني شخص غريب تارة يأخذني من الحانة وتارة أخرى يأخذني من الشارع ويوصلوني للمنزل، وبعد ذلك أصاب زوجتي مرض السل اللعين وتوفيت من جرائها حدث ذلك قبل خمسة أعوام مضت لم أتمكن من جلب الطبيب لها لأني لا أملك المال الكافي حتى القس لم يحضر حين احتضارها أما جنازتها تكفل بمصاريفها الناس الطيبون وأكملت الكنيسة ما تبقى من أموال احتجنا إليها وبعد مدة من موت زوجتي توفي أطفالي وأحبابي بالحمى الحارة آه، كم الحياة قاسية ولا ترحم أحدا يا إلهي الرحيم!، لم يتمكن ديمتري من التحمل أكثر من ذلك وأخذ يجهش بالبكاء ووضع كلتا يديه على المائدة أحدهما فوق الأخرى ووضع رأسه عليها وغطى عينيه الباكيتين أشبه بطفل صغير يبكي على لعبة أو دمية لم يتمكن ميخائيل أن يتحمل موقفاً حزيناً كهذا المنظر الذي يرثى له والذي يدعو للشفقة اعتصر الألم قلبه واغرورقت عيناه بالدموع وانهمرت على خديه لا يعلم كيف حدث ذلك، على الرغم

من عصبية مزاج ميخائيل بينما هو في المقابل مرهف الحس وضعيف أمام المواقف الحزينة،

وبعد مرور دقيقتين على بكاء ديمتري رفع رأسه من على مائدة الطعام وهدأت روحه وتوقف عن البكاء وقال لقد حاولت بعد ذلك الانتحار عدة مرات ولكن لم أتمكن من ذلك لأنني إنسان ضعيف وجبان لا أساوي كوبك واحدا إنني حشرة صغيرة قملة تحتاج للسحق تحت الأقدام لا استحق العيش أنا السبب في موت زوجتي وأطفالي الصغار لن أسامح نفسي أبدا على ما اقترفته، أعاد وضع يديه ورأسه إلى وضعيتهما السابقة وبدأ يبكي مرة أخرى، تكلم ميخائيل معه ليهون عليه قائلا كفاك بكاء يا ديمتري لن تستعيدهم بهذا البكاء ما حدث قد حدث يمكنك التركيز بما هو قادم في المستقبل وكذلك سأخبرك بشيء ربما سيعزيك عليك قليلاً ولكن لن تصدق ما حدث معي أنا أيضاً، تكلم ميخائيل بصوت مرتفع قليلاً ونبرة مداعبة لكي تتغير حالة ديمتري للأحسن ويجعله يتوقف عن البكاء، وبالفعل رفع ديمتري رأسه من على مائدة الطعام عندما سمع طريقة تحدث ميخائيل له وأخذ يصغي إليه تم إحالتي إلى التقاعد أنا أيضا يا صديقي وها أنا ذا قادم من سسترورتسك خالي الوفاض انتهى كل شيء بالنسبة إلى وظيفتي ومن يعلم من الممكن أن أصير وأمر بحالتك في يوم ما في المستقبل القريب وربما لا يحدث ذلك مطلقاً

لا تقلق يا صديقي لست وحدك في هذه الحياة لا بد لكل شخص أن يمر بتجربة ما في حياته التي يعيشها، تكلم ميخائيل وهو يربت على كتف ديمتري العجوز لكي يهدئ من روعه ولكن كلامه الذي سمع من قبل ديمتري جعل ديمتري في حالة من الانشداه وبعد ذلك أخذ يحدث ميخائيل

وقال له ولكن كيف حدث ذلك؟ لا بد من أنك تمزح معي أليس كذلك؟ أنك تتحدث هكذا لكي تجعلي ارتاح قليلاً ولكي تعزيني هل أنا على حق؟ أجب ميخائيل أخبرني بأنك تمزح معي هيا أخبرني، أجابه ميخائيل إنها الحقيقة يا صديقي لقد أصبحنا على الحال نفسه، تكلم ديمتري وهو يولول يا إلهي كيف حدث لك هذا الشيء يا لك من رجل بائس ستذوي روحك وتتلاشى كما حصل معي يا إلهي الرحيم ارحمنا، شعر ميخائيلِ بالحزن والغضب بعد تذكره لحالته التي مر بها وما سيحدث له في المستقبل وأجاب صديقه وقال لن يحدث لي أي شيء، هيا بنا ديمتري لنذهب من هذا المكان لقد تحدثنا كثيراً ونسينا أنفسنا وتأخر الوقت هيا بنا، نهضا من مقاعدهما ووضع ميخائيل المال على الطاولة تحت مطفأة السجائر وخرجا إلى الشارع بعد أن توقفا أمام باب المحل وبدأ ميخائيل بالحديث هنا يا صديقي سنفترق كنت أنوي أن أبقى معك لمدة أطول ولكني متعب للغاية ومرهق من السفر ولم أذهب إلى المنزل بعد،

توقف ميخائيل فجأة وبعد توقفه لوهلة استأنف حديثه إلى ديمتري أين ستذهب الآن ديمتري؟

أين هي وجهتك يا عزيزي؟،

أجابه ديمتري وهو يشعر بحزن عميق سأذهب إلى المنزل يا صديقي أنه يبعد ثلاث جادات من هنا يمكنني الوصول إليه بالسير على الأقدام لا تقلق بشأني، قال له ميخائيل حسناً أن احتجت إلى أي شيء يمكنك أن تطلبه مني، اسكن قريباً من هنا في هذا الشارع في عمارة مارغريتا في الطابق الأرضي، لا تخجل يمكنك أن تطلب ما تشاء يا صديقي القديم، قال ديمتري أشكرك جزيل الشكر أيها الشاب سنلتقي مجدداً أليس كذلك،

رد عليه ميخائيل سنلتقي لا مناص في ذلك بالتأكيد سنلتقي مجدداً يا أخي، قال ديمتري مودعاً إلى اللقاء، أجابه ميخائيل إلى اللقاء، استدار كل منهما إلى وجهته بصورة متعاكسة مولين ظهورهم وسار كل منهما إلى أن اختفى كل منهما عن الأنظار، رجع ميخائيل إلى العمارة سيراً على الأقدام وهو يحمل حقيبته بصعوبة وأخذت السماء تميل إلى الحمرة وآلت إلى الغروب وصل إلى العمارة ودفع البوابة الخارجية لها بحقيبة سفره بتثاقل وبدا عليه التعب الشديد وجد داكوتا جالساً وألقى عليه التحية

وقال له مَرْحَباً داكوتا كيف حالك يا صديقي؟،

أجابه داكوتا بخير سيدي أهلا بعودتك، هل تحتاج إلى مساعدة يا سيدي؟ رد عليه ميخائيل بامتنان شكراً داكوتا لا احتاج إلى أي شيء، دخل ميخائيل باب العمارة الخشبي وتوجه للأسفل نحو القبو وجد الباب مفتوحاً بمسافة قليلة دفع الباب بقدمه ونادى على ولده وقال أليوشا! تعال يا عزيزي ساعدني في حمل الحقيبة،

كان ألكسي ممتداً على فراشه حين دخل والده وأثناء دخول ميخائيل إلى المنزل نادت كرستيان على ألكسي هي الأخرى وقالت وهي تمزح معه انهض أيها الكسول لقد جاء والدك هيا انهض واحمل عنه الحقيبة،

جرى ألكسي مسرعاً نحو والده وأخذ الحقيبة منه بكلتا يديه وحملها بصعوبة بالغة وقام بوضعها داخل حجرة النوم، تهالك ميخائيل على المقعد الخشبي وقال آوه يا إلهي لقد أجهدت نفسي وسرت مسافة طويلة جداً، كيف هي أحوالكم أعزائي؟ هل افتقدتني؟ كيف حالك عزيزتي؟ تعالي يا صغيرتي وسلمي على والدك أجابته كرستيان بخير عزيزي لقد اشتقنا إليك

كثيراً، انهضي يا صغيرتي وسلمي على والدك، نهضت زاريتا واقتربت من والدها وأخذت بيده تتلمسها ولثمتها بقبلة، بعد أن قبلت زاريتا يده شعر بحزن شديد انتابه فجأة مما دعى ذلك إلى جعل كرستيانا تتساءل حول ما أصابه وقالت موجهة سؤالها إلى زوجها ماذا أصابك يا عزيزي؟ تبدو حزيناً وبائساً هل هنالك خطب ما؟، أجابها ميخائيل والحزين يبدو عليه واضحاً لقد تم إحالتي إلى التقاعد ....يتبع

الفصل الثامن

في مساء اليوم التالي بعد حادثة سرقة الكتاب...

بعد حادثة سرقة متجر الكتب من قبل ألكسي دخل الصبي في حالة نفسية كريهة وبشعة انتابته في مساء اليوم الذي تلا سرقته للكتاب وخلال الأيام الماضية التي انصرمت أي قبل أن وصول والده من السفر، أصبح الصبي أكثر شحوباً من ذي قبل اكتسب مزيداً من الشحوب إضافة إلى شحوب وجهه الطبيعي نحل نحولاً مرضياً بسبب امتناعه عن تناول الطعام والشراب لعدة أيام ألا قليل من الماء يتجرعه بصعوبة بالغة وبعد أن تضيق كرستيان ذرعاً لكي يشرب منه شيئاً قليلاً، في الليلية الأولى له عندما عاد ألكسي إلى العمارة وهو متسخ الثياب بالوحل وأصابته جروح بيده وهو يحمل الكتاب الذي سرقه وبعد أن اعترف لوالدته على ما اقترفه من عمل وضيع ولكنه غير مقصود وذلك نظرا لتربية الصبي والفضيلة التي تلقاها من المحيط الذي يعيش فيه وكذلك الفقر المدقع الذي يعيش في كنفه وحياته الرتيبة والفطرة التي نشأ عليها ألكسي في ظل معيشته وتربيته ورعايته من قبل كرستيان واستناداً إلى طبيعة مهنة ميخائيل والده وابتعاده عنهم لمدة طويلة، تقوم كرستيان طيلة فترة غياب ميخائيل بتربية أولادها فأصبحوا يحبون ما تحبه ويبغضون ويزدرون ما تبغضه وتزدريه وأكثر من تأثر تأثيراً في والدته هو ألكسي فقد تأثر بما

استهوته كرستيان من قراءة الكتب فأصبح ألكسي يستهوي قراءة الكتب بشكل لم يسبق لأحد أن تأثر بمثل هذا التأثير الكبير وهو بالذات ما دعا ألكسي إلى سرقة الكتاب من متجر الكتب القديم فقد أجبرته سجيته واستهواء قلبه لهذا الأمر وعدم امتلاكه المال لشرائه ولصغر سنه الذي لا يجيز له أشياء كثيرة، هنالك عدة نقاط جعلت فعلته مباحة في رؤيته وورؤية العامة من الناس فإن القارئ لا يسرق وهو قانون ثابت لدى أي شخص ولكن ألكسي كسر هذا القانون وبشكل عفوي وبريء قام بتشريع قانون جديد يجيز له أن يفعل ذلك، فهنا لا بد أن يجوب في رأس القارئ وان يتساءل في قراره نفسه ويقول هل يجب أن يعاقب ألكسي الصغير الصبي البريء والقارئ الجيد للكتب على ما اقترفه؟ هل يجب أن يقتص منه لمجرد أنه سرق كتاب؟ وهل يجب أن يعاقبه الله كذلك؟ إذا كان الجواب لا أذن لماذا تحولت حالته إلى حالة مرضية بعد هذه الحادثة؟! هل بسبب كثرة تفكيره بأن ما اقترفه هو محض سرقة، وهو امر سيء لا يغتفر أبدا؟ أم إنها عقوبة إلهية ينالها صبي صغير وبرئ جرى وراء ما يستهويه قلبه المرهف وزرع داخل عقله الباطن وقلبه بأنه سيصبح قارئاً جيداً وكاتباً في يَوْمٍ ما لقد ملئ قلبه وعقله واشبع رؤيته وأذنه وجميع حواسه الصغيرة وكرسها لهذا الشيء الذي اصبح خارج سيطرته الواعية شيء لا يمكن لصبي صغير مثله أن يتحكم فيه شيئاً لا إراديا،

لم يتمكن في حينها أن يقاوم رغبته الهائجة وانبهاره بمتجر الكتب ومن جراء ذلك أصابه العجز التام ودخل في خضم صراع داخلي بين سجيتين زرعتا داخل قالب شخصيته المرهفة

ولكن هذه الحرب الداخلية التي خاضها بين قلبه المنكسر وعقله

الصغير المحدود التي لم يستطع أن يستوعبها ويصل بعقله الصبياني إلى حل من الحلول وفي النهاية عليه أن يختار، هي حرب ليست بالحرب المبتذلة التي نعلمها جميعاً أي حرب النقيضين والصراع الأزلي بين الخير والشر وبين العقل والقلب على العكس تماماً فالحرب التي خاضها الصبي داخله لم تكن مبتذلة واعتيادية لأي شخص من الأشخاص ولن يستطيع أن يستوعبها أي عقل من العقول مهما بلغت درجة حكمته واتساع تفكيره هي حرب جانب من الجوانب حرب جانب مع ذاته تصارع طرف من الأطراف مع ذاته وبصورة أوضح للقارئ هي حرب تصارع الخير مع الخير والشر مع الشر، أجل سيتفاجأ القارئ ويعترض بشدة على هذه النظرية الجديدة ولكنها ليست جديدة على كل حال إذا أخذنا بعين الاعتبار سجية وطبيعة الإنسان الذي تتعامل معه والتي تخوض هذه الحرب الغريبة بالنسبة للبعض وبشكل خاص عندما تكون هذه الحرب داخل جسد وروح وعقل وقلب صبي صغير محدود التفكير، فإن آمنت بوجود عقل باطن داخل صبي صغير يتأثر تأثيراً بالغاً بقوة خارجية بعيدة عن متناول سيطرته الواعية أي بمثابة شيء لا إرادي يتحكم بجميع حواسه الخارجية وطريقة تفكيره الواعية فلن تكون أذن نظرية جديدة ومستحدثة بالنظر إلى ما يفكر فيه الشخص المعترض وسوف يتحتم عليه أن يدعم ويؤيد هذه النظرية، أن صقل شخصية صبي صغير يتطلب جهداً كبيراً، لا يمكن بليلة وضحاها أن تغير فطرته بعد أن آمن قلبه بشيء استهواه فالفطرة التي فطر عليها صبي صغير يا سادتي هي كالنقش على الحجر وفي نهاية المطاف ستنتصر سجيته وفطرته سواء كانت خير أم شر شئنا أم أبينا لا مناص في ذلك، والآن أصبح الصبي الصغير ضحية عقله اللاواعي ونقش

حجر شخصيته المغرمة بقراءة الكتب التي تدربت على يد والدته كرستيان هي التي كانت تجد لذتها وعزائها في قراءة الكتب لتزجيه وقتها في المقام الأول ولتسلية صغيرتها زاريتا التي لا يمكنها الرؤية واللعب مع شقيقها وهي من الأمور الجلية التي كانت تقوم بها كرستيان لأبنتها البائسة التي تشعر والدتها بالشفقة اتجاهها فلا تعلم ماذا سيؤول عليه حالها ومن الذي سيعتني بها ويروي لها القصص والروايات بعد رحيلها من هذه الدنيا، ودائماً ما كانت كرستيان تبكي بصمت على حال ابنتها لكي لا تسمع زاريتا بكائها وتثير بذلك حفيظة ابنتها، لقد عانت وبكت كرستيان بَكَّاءَ مراً على صغيرتها المعدمة وخاصة لوجودها في هذه الحياة القاسية التي لا ترحم أحدا وكانت ما تنفك توصي ولده ألكسي ليحافظ على شقيقته ويحرص عليها عند رحيلها عنهم وعندما يكبر ويصبح رجلاً كبيراً وتقول له لا تتركها يا أليوشا لا تترك شقيقتك أبدا مهما حدث، فهي ولدت بائسة ولا أريدها أن تشقى في حياتها من بعد رحيلي، لا تسمح لهم يا صغيري أن يؤذوها أحميها كن لها عينين لترى فيك طريقها وتنير دربها الموحش وكن لها سنداً في هذه الدنيا الوضيعة عدني بهذا أليوشا اقطع على نفسك هذا الوعد أمامي لكي يطمئن قلبي، أنت شجاع وسوف تبقى كذلك وتحافظ على زاريتا ما حييت أليس كذلك يا صغيري؟، كان الصبي يجيبها وهو في أشد حالاته حزناً لرؤيته بكاء والدته عندما تتكلم فيحزن لحزنها من دون شعور منه ويجيبها في كل مرة تتحدث بها والدته عن هذا الموضوع ويقول أعدك بذلك يا أمي لا تقلقي إنني أحبكم جميعاً، ويجري ألكسي على والدته وشقيقته ويحتضنهما بشدة ويبكي بَكَّاءَ شديداً حتى تبتل ثياب كرستيانا من دموعه،

وهنا تنتهي هذه النوبة الحزينة ونعود إلى الكسي بعد أن أسهبت في سرد أحداث وشعور كرستيانا اتجاه ابنتها زاريتا،

تعلم الكسي قراءة الكتب من والدته عندما كان ينظر إليها ويستمع لها حين تنهي عملها في الخياطة والحياكة والتطريز وتبدأ بوقت فراغها الكثير بقراءة الروايات بصوت مسموع وواضح، لدى كرستيانا الكثير من الوقت بعد العمل تستطيع فيه القراءة بدون أي ملل هذا ما جعل الكسي يقع في عشق قراءة الروايات الطويلة بمجلدات ضخمة جداً يأخذها من والدته بعد أن تنهي قراءته ليقرأها بنفسه من دون تدخل كرستيان في ذلك، أما كيف ومن أين تجلب كرستيان كل هذا الكم الكبير من الروايات؟ فهو موضوع آخر فهي تستطيع أن تؤمن أي رواية تريدها وان سألت من أين لها المال لكي تشتري هذه الكتب؟ فسأقول لك إنها لم تشتري أي شيء ولن تستطيع يوماً ما أن تشتري حتى كتاب واحد فقط فالمال الذي تجنيه من عملها في الخياطة لا يكفي الا لشراء القليل من الطعام وبتقتير شديد لا يسد رمقهم فكيف لها أن تستطيع قراءة هذا الكم من الروايات؟ كانت كرستيان تستعير كتبها ورواياتها من زبائنها الذين يقومون بخياطة الأثواب والفساتين عند كرستيان، ففي كل مرة تأتي زبونة ما إلى كرستيان تستعير منها رواية جديدة تقرؤها وتعيدها لصاحبتها وتستعير الأخرى،

والان نستعيد ما ذكرناه سابقاً في بداية الفصل عن سوء حالة ألكسي النفسية والجسدية التي أصابته بعد ان سرق متجر الكتب، أصابته حالة من الهذيان والأرق الليلي ولم يستطع أن يدخل في نوم عميق حينها وطيلة فترة مرضه وفي بعض الليالي يصحو في منتصفها وهو يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بسبب الحمى التي تصيبه في كل ليلة ينتابه الفزع

الشديد والهلع وهو خائف من شيء ما لا يمكنه تصوره يقفز من فراشه بوثبة واحدة وقد ارتجفت فرائصه ليروي لوالدته كابوسه الذي يراوده كل ليلة بمجرد إغماضه لعينيه يراوده نفس الكابوس وبنفس تفاصيله لا يختلف عن الليلة السابقة أبدا، هل هذا الكابوس الذي يراود ألكسي هو من جراء عذاب الضمير الذي يشعر به الصبي الصغير أصبح يخاف من فكرة ذهابه للنوم وإغماض عينيه، لقد اقتنع تماماً بأن ما فعله هو من الأفعال القبيحة والمشينة التي لا تغتفر وهو الآن يعاقب بوخز الضمير بنفس الكابوس الذي يراوده كل ليلة، هذا ما فكر به الصبي من أفكار قاتمة حينها، في كل ليلة يرى فيها ألكسي نفسه وهو وحيداً في قبو عقله وتفكيره خاليان ولكنهما سوداويان، الهدوء غير المعهود من جانب كرستيان وصوتها الذي ملئ القبو برواية القصص أصبح الآن ساكناً في سبات عميق، كل ما يدور حول الصبي وما يراه من جمادات لم تعد موجودة الآن من الأصل فهي لم يكن لها وجود في بادئ الأمر كل شيء من حول ألكسي في حالة سكون تثير الدهشة واستغراب ألكسي، يشعر بأن هنالك في مكان ما يقبع ويختبأ الخوف ولا يعلم في أي مكان يختبأ أنه في جميع الاتجاهات أصبح الأن في حالة من الهلع والرعب لم يسبق له أن باغته في حياته ولا حتى في أحلامه وواقعه البائس كالذي يشعر به الأن وفي هذه اللحظة بشكل خاص في كل ليلة تمر عليه يتوجه فيها نحو فراشه وهو قبل ذلك لم يكن موجوداً أصلا يشعر بأنه لا يحتويه مكان ولا تلامس اطراف قدميه الأرض أو أي شيء صلب أو يمكنها أن تستقر على شيء أو تطئ بها الأرض وحتى انه في نفس اللحظات لا يشعر بأنه يحلق في المكان الذي هو فيه الأن ربما انه الأن في اللامكان لا يشعر بأن جسده يلامس أي شيء مادي ولكن هذا

الشعور لم يستمر طويلاً بعد أن توجه إلى فراشه شعر بحواسه تعود إليه بدأ يقلق وينثر فراشه على الأرض باحثاً تحته عن شيء لطالما كان يضايقه ويؤذي رأسه عند نومه على الوسادة شيء ما يقضي مضجعه يبدو أن هذا الشيء هو الذي يجعله في حالة الأرق الشديد التي تصيبه والتي تثقل كاهله

وتودي به إلى حالة يكون فيها اقرب للموت منه إلى الحياة هنا فقط يستعيد حاسة اللمس لديه عندما يمسك بالأشياء ويصبح مدركاً ماذا يفعل بعد أن يرفع أغطية فراشه بحثاً عن هذا الشيء وشعر حينها بالملل الشديد رغم خوفه من ذلك الشيء، لم يكن يتخيل حينها ما يمكنه أن يجد تفاجئ بوجود كتاب ضخم وكبير غلافه من الجلد اسود اللون حالكا ومزخرف بخطوط ذهبية اللون اثأر استغرابه بعد حمل الكتاب بين يديه والنظر إليه بتمحيص دقيق وجد فيه شيئاً مثيرا للدهشة وهو أنه لا يحتوي على عنوان يمكن قراءته دعا ذلك إلى إثارة حفيظته وشعر بفضول قاتل لفتح الكتاب ومعرفة عنوانه أو ما يحتويه من موضوع يمكنه الاستفادة منه أو ربما فقط بدافع الفضول الذي انتابه في هذه اللحظة التي زادت فيها رغبته بفتح الكتاب حتى هو نفسه لم يتمكن من معرفة لماذا انتابه الفضول لفتح الكتاب؟ بعد أن حمله قام بفتحه ووضعه بين يديه وبدأ القراءة بصوت مرتفع وبنبرة مخيفة ومسموعة ومن حوله ظلام حالك واخذ يذرع القبو الموحش جيئة وذهاباً وبدا دامس الظلام، استمر في قراءة الكتاب وهولا يعلم لماذا يقرأ وما هو الذي يقرؤه أنه يقرأ في هذه اللحظة وبصوت مرتفع ويمكنه سماع صوته بوضوح ولكنه لا يفهم كلمة واحدة مما يقوله، ازدادت سرعة سيره لا يعلم لماذا أسرع في خطواته وكذلك أسرع في قراءة الكتاب أصبح يزرع الحجرة بخطى واسعة ومن شدة سرعته يبدو عليه أنه

يقفز أثناء مشيه السريع، بدأ يتنفس بصعوبة لعدم وجود هواء كاف داخل رئتيه الصغيرتين نفذ الهواء ولم يستطع أن يتنفس من خلال أنفه وفتح فمه وبدأ يسحب الهواء بقوة للتعويض عن النقص الذي حدث لديه من الهواء وهو لا يزال يسير بسرعة كبيرة ويقرأ في الكتاب إلى أن وصل به الحال أنه بدأ يلهث مثل الكلب الذي أنهكه التعب فتح فمه مرة أخرى لكي يتسرب الهواء داخل صدره شعر فجأة أثناء سحبه للهواء بدخول جسم غريب إلى فمه ووصل إلى بلعومه حينها توقف عن القراءة وعن المشي أيضا وبدا عليه أنه لم ينله التعب وكأنه في حالة من الاستقرار وبدا كأنه كرس كالجمل، بينما شعر بخوف شديد بسبب دخول هذا الشيء الغريب إلى فمه وأراد أن يكتشف هذا الشيء ويستبينه بلسانه ولكنه لم يتمكن من ذلك، وبعد ذلك أراد قذفه خارج فمه ولكن لا فائدة من هذا، بحث عن مرآة داخل القبو المظلم ظل يتخبط يميناً ويساراً وهو يبحث كأن القبو أصبح متاهة كبيرة وهو ضائع في داخلها، توقف فجأة أمام مرآة كبيرة معلقة بالهواء أو ربما ليست معلقة تطفو فوق شيء لا يعلمه حتى لا يعلم مكان وجودها أو في أي زاوية هي من أركان القبو، حدق داخل المرآة واستطاع رؤية ملامح وجهه الصغير ومن حوله ظلام حالك حنى رأسه للأسفل أراد أن يخرج الشيء الغريب الذي يدور داخل فمه لا يعلم ما هو ربما تكون حشره إنها ذبابة كبيرة أو شيء مشابه لذلك ولكنه لم يجد سبيل أبدا لذلك حاول أن يبصق وينفث من فمه اللعاب عدة مرات نحو الأرض ولكن الشيء الذي يشعر بوجوده كان يدور داخل جوف فمه وصولاً إلى البلعوم، نظر مرة أخرى إلى المرآة فتح فمه ليرى ماذا يوجد داخله تفاجئ من ارتجاف داخل فمه وجوف فمه بأكمله من جميع الاتجاهات ومعه لسانه شعر بخوف رهيب

لا يمكن وصفه أراد أن يتوقف قلبه عن النبض، كيف حدث له هذا الشيء ولماذا جوف فمه في حالة ارتجاف بهذا الشكل المستمر، حول عينيه من المرآة إلى والدته التي ظهرت له فجأة ومن دون سابق إنذار،

أحدق إلى عينيها بحزن كبير أنه شعور يمكن أن تشعر به حين تفقد شخصاً غالياً على قلبك هذا ما شعر به حين نظر إلى عيني والدته،

أعاد رأسه إلى الأسفل مرة أخرى حاول جاهداً أن يخرج هذا الشيء من فمه وفي محاولته الأخيرة بصق لعابه من فمه بقوة كبيرة وخرج أخيرا شيء من فمه لم يتمكن من معرفته ولكنه لم يشعر بتحسن على العكس من ذلك بل ازدادت حالته سوءاً أعاد النظر إلى وجه كرستيان فبدا وجهها يخلو من أي تعابير ازداد حزنه وشعر بأن قدميه تخلوان من الدم وأصبحت باردة كالثلج لا تقوى على حمله شعر بأن هنالك شيء ما يخرج من جسده لا يعلم ما هو يبدأ من قدميه ويرتفع متجهاً نحوالأعلى ولكن ببطيء شديد وفي كل مرة يرتفع هذا الشيء إلى الأعلى يضعف جسده وقدميه شيئاً فشيئاً، حاول الاقتراب من والدته ولكنه واجه صعوبة بالغة لم تعد قدميه بمقدورهما على حمله والمشي أبدا أراد أن يذرف الدموع ولكن دموعه لا تخرج من محاجرها ومآقيها اعتصره ألم أشبه بألم الفراق وفكر في نفسه بأنها أعراض الموت وها هي روحه ألان تنتزع من جسده وقد وصلت فمه سوف تخرج هذه هي النهاية شعر بألم في حلقه ولم يتمكن الرؤية بعد الآن أصبح كل شيء سوداوياً من حوله انطفأت الحياة وخرجت روحه، فزع ألكسي وصحي من نومه آوه، يا إلهي! أنه الكابوس مرة أخرى ....يتبع

الفصل التاسع

بعد مرور ستة أعوام...

بعد مرور ستة أعوام على حياة ألكسي البائسة التي عانى من خلالها بسبب فقر عائلته وخاصة بعد أن أحيل والده إلى التقاعد الإجباري وصعوبة المعيشة آنذاك والسغب الذي أصابهم طيلة هذه الفترة التي جلس فيها ميخائيل عاطلاً عن العمل، لم يستطيعوا فيها تأمين لقمة العيش التي تسد رمقهم ولولا عمل كرستيان في مجال الخياطة والحياكة والتطريز داخل القبو لما استطاعوا أن يستمروا بالعيش طيلة هذا الوقت كانت كرستيان هي التي توفر متطلبات المعيشة وأرغفة الخبز من أموالها التي تجنيها من عمل يدها حتى إنها في أغلب الأحيان تدفع قيمة أجرة السكن الذي يقنطون فيه الآن على الرغم من أنهم أصبحوا يدينون إلى مارغريتا العجوز مالكة العمارة بأموال حق أقامتهم في قبو عمارتها، لم تتمكن كرستيان من سداد الديون المتراكمة لقلة الزبائن الوافدين إليها في هذه الأيام التي مضت، وهنالك أسباب جعلت عمل كرستيان يمضي بشكل سيء ومنها صغر مساحة القبو وموقعه أسفل العمارة ومكانه الخانق الذي لا يصله الهواء الا من خلال باب الدخول عند فتحه لكي يتنفسوا من خلاله، كان هذا أحد الأسباب التي منعت أو قللت من تهافت زبونات كرستيان وصديقاتها اللاتي يقمن بخياطة الشراشف والأغطية والأثواب والفساتين

جعلها ذلك في فاقة من العيش وفي بعض الأحيان تقوم كرستيان باستدانة بعض المال من صديقاتها المقربات والتي تربطهما بهن معرفة شخصية وعلاقتهما وثيقة وترجع ما أخذته من مال بالعمل مجاناً لها في كل مرة، قد جرت الأمور هكذا خلال هذه الأعوام المنصرمة التي مضت على أسوأ الأحوال والتي عاشتها أسرة ميخائيل واكثر من تأثر وضاق ذرعاً خلالها هي كرستيان وذلك لصعوبة العيش بتقتير شديد وهي تنظر إلى أولادها يترعرعون أمامها بفاقة وفقر شديدين وليس بيدها من حيلة لجعل وضعهم أفضل مما هو عليه الآن وبصورة احسن حال، لقد قدمت كرستيانا كل شيء ووهبت لهم كل ما تملكه من طاقة مكبوتة في سبيل تأمين العيش الكريم لهم وجعلهم يبدون بأحسن حال وهي تردد هذه الجملة بين الحين والأخر وتقول سيكون كل شيء على ما يرام، أن كرستيانا هي شخصية رائعة وهادئة ومرهفة الحس بالرغم من هذه الظروف العصيبة التي تمر بها مع عائلتها فتبدو كرستيانا شخصية اكثر تحفظاً عليهم، أما في المواقف السلبية تصبح اكثر وقاراً وكياسة وتظهر بعقلانية في كل مرة على الرغم من خوفها وترددها في مثل هذه المواقف السلبية وأيضاً تلعثمها في كلامها أما في المواقف الجدية تبدو اكثر رزانة وذلاقة في اللسان،

أرادت كرستيانا دائماً أن تصبح عائلتها من افضل العوائل ولكن ظروف الحياة لم تساعدها وتعينها على ذلك، يمكن أن يرى هذا الشيء من خلال اعتنائها بملابس أولادها فهي نظيفة ولامعة على الدوام، حتى حين وصلوا إلى سنهم الكبير هذا فهي لم تنقطع عن الاعتناء بهم وبنظافتهم وخياطة ثياب أولادها بيديها ومن أجود القماش المتوفر لديها،

بعد أن قل تهافت زبائن كرستيانا وإقبالهم عليها لم يكن لديها عمل أخر

تستطيع القيام به لتوفر من خلاله لقمة العيش أو دفع مستحقات أجرة القبو واشتدت عليهم ضائقتهم المالية فلم يستطيعوا أن يجدو رغيف خبز واحد لكي يتناوله، شعرت حينها كرستيانا بالحزن الشديد على أولادها وبشكل خاص على صغيرتها البائسة زاريتا التي اصبح عمرها كبيرا وهي لا تزال في شقائها ولكنها أيضا لا تزال جميلة وحادة الذكاء بل أصبحت أجمل من ذي قبل ولكن مع الأسف لا يمكنها رؤية جمالها الأخاذ كبقية البنات الصغيرات، ولكن بحدة ذكائها الفطري الذي ولد معها تمكنت زاريتا من اقتراح حل يمكنه أن يعالج ضائقتهم وسغبهم، كانوا يجلسون كعادتهم في قبوهم المعتم في ليلة من الليالي وكانت كرستيان تجلس على مقعدها ومنهمكة في أعمال الخياطة على ضوء الشمعة مرتدية نظارتها وتقف زاريتا إلى جانبها يتحدثون عن أمور المعيشة وعن الضائقة التي اجتاحتهم وانثالت عليهم فجأة، تكلمت زاريتا إلى والدتها وهي تتلمس كتفها وقالت أمي لدي فكرة يمكن من خلالها أن نأكل الطعام!، أجابتها كرستيان وهي تتأرجح على مقعدها أثناء انهماكها في الخياطة بتهكم ولا مبالاة وما هي يا صغيرتي العزيزة؟، ردت عليها زاريتا يمكنك أن تصطادي لنا السمك من النهر، ألا يوجد نهر قريب من هنا؟ إنها فكرة رائعة ومثيرة ألا تظني ذلك؟ ولكن ليست مثيرة لي بالتأكيد، توقفت كرستيان عن الخياطة فجأة والتفتت إلى زاريتا واحتضنتها وقالت آوه يا عزيزتي وابنتي! لا تقولي هذا، يمكنني أن أخذك معي عند ذهابي، يا صغيرتي البائسة أنت نظر عيني يا حبيبتي، شعرت كرستيان بالأسى والحزن الشديد اتجاه صغيرتها التي لن تتمكن من رؤية والدتها وهي تصطاد السمك ولن تتمكن من رؤية النهر أيضا وبكت عليها بحرقة من دون أن تعلم زاريتا، أثنت كرستيان على فكرة

زاريتا الذكية التي طرحتها وأخذتها على محمل الجد لأنه لا سبيل إلى أمر آخر يمكن أن تفعله غير ان تجرب حظها وتذهب إلى نهر نيفا لتبدا باصطياد السمك، هنالك الكثير من صيادي الأسماك يصطادون عند نهر نيفا، عزمت كرستيان أمرها على الذهاب يومياً إلى هنالك حتى وإن تم اصطياد سمكة واحدة فقط فهي تكفيهم ليتناولوا الطعام ليوم واحد خير لهم من أن لا يتناولوا أي شيء، وفي صباح اليوم التالي بدأت كرستيان بعملها الجديد ولكنها لم تترك أعمال الخياطة أبدا واقتصرت فقط بالعمل وخياطة لمن يأتيها إلى منزلها في المساء، استمرت كرستيان بالذهاب في كل صباح تاركة أولادها في المنزل وحيدين تصطاد سمكة واحدة في اليوم وفي بعض الأحيان لا تصطاد أي شيء وتعود إلى المنزل خالية الوفاض لا يأكلون أي شيء في هذا اليوم ويعولون على اليوم التالي ولكنهم على كل حال تمكنوا من سد رمقهم ففكرة اصطياد السمك فكرة سديدة ولكن لا تزال الديون تتراكم عليهم يوماً بعد يوم وما انفكت مارغريتا العجوز تتردد عليهم والنزول إلى قبو العمارة مطالبة بأجره من كرستيان وحين أخبارها بأنها لن تستطيع دفع أجرة القبو تبدأ العجوز بتهديدها والشكوى لدى قسم الأمن التابع لزقاقهم عندما تجدها في المنزل وعندما لا تجدها تترك لها رسالة عن طريق ولدها ألكسي لكي يتم إيصالها شفهياً إلى والدته حين تعود من الصيد،

استمرت عائلة ميخائيل على حالها بهذا البؤس الكمد خلال هذه السنين المنصرمة والتهديدات التي تلقوها من مالكة العمارة مارغريت البغيضة التي لم ترحمهم، في كل مرة تأتي بها إلى العمارة للحصول على أجرة سكنها تتشاجر فيها مع ميخائيل عندما يكون موجوداً ويبدو عليه

عندما تقابله أنه بلغ منه السكر والثمالة أقصاها مما يؤدي ذلك إلى نشوب شجار وصراخ بينهما تبدأ بها مارغريتا، إنها عجوز تبلغ من عمرها سبعون عاماً أو ربما تعدتها ببعض الأعوام، قصيرة القامة متجهمة الوجه تبدو عليها أثار الكبر من التجاعيد المتهدلة من وجهها بلغت مرحلة الكهولة على ما يبدو شعرها خفيف جداً لونه رمادي بأكمله ملفوف إلى الخلف بواسطة شريط أسود طويل، ترتدي العجوز ثوب لونه اسود وعليه ترتدي صدرية لونها اسود أيضاً وقبعة خفيفة واسعة الجوانب لونها اسود مثقبة بثقوب ناعمة، تبدو مارغريتا إنها متأنقة بثيابها ولكنها كبيرة في السن ولا تتلاءم ملابسها مع سنها الكبير، لدى مارغريتا انحناء كبير أعلى ظهرها يجعلها تبدو بشكل مخيف لمن يراها، تمتلك مارغريتا عينين واسعتين جاحظتين تبرز من جمجمتها لونهما بني وعينيها من النوعية التي تتفحص أي شيء تراه تعلق على رقبتها نظارة نصف دائرية بواسطة خيط أسود، أما بشرتها مائلة للاصفرار وهي نحيلة جداً وعظامها بارزة من ناحية وجنتيها وكتفها وصدرها من الأعلى كأنها أشبه بكومة من العظام مكسوة بملابسها، حتى عندما يتشاجر معها ميخائيل وهو ثمل لا يعلم ماذا يقول فيبدأ بشتمها ونعتها بأقبح الشتائم وأقذع ما يمكن أن يتفوه به فم إنسان ومن إحدى هذه الشتائم التي ينعتها بها ميخائيل هي أيتها العجوز الشمطاء، تبدين وكأنك كيس أصفر مملوء بالعظام، يا صاحبة الأنف المدبب، أيتها الساحرة البلهاء، كان فمها صغيرا جداً وانفها مدبب وكبير ومعقوف إلى الأسفل أشبه بأنف الساحرات هذا ما دعا ميخائيل بمناداتها بهذه الشتائم، وبعد ذلك ينتهي شجارهما ويقوم ميخائيل برمي المال في وجهها حين يملك المال أما حين لا يملك منه شيئاً تقوم مارغريتا بتهديده وإبلاغ قسم الأمن

وزجه في السجن ولكنها فقط تقوم بتهديده ولكنها لا تفعل ذلك البتة، هذا ما أصبحت عليه عائلة ميخائيل بعد أن أحيل إلى التقاعد وخلال هذه الأعوام التي مضت جعلت من ميخائيل يبدو أكبر سناً من عمره الذي هو عليه الآن وأصبح في حالة مزرية تثير الشفقة، انكب ميخائيل على شرب الخمر المفرط خلال هذه السنين الماضية ودخل في حالة من الجنون وأخذ يتردد على الحانات وصرف كل ما يتقاضاه من أموال عليه لا يعطي شيئاً منها لعائلته التي تحتاج أكثر منه لهذه الأموال، في كل مرة يدخل بها المنزل وهو في أشد حالاته من الثمالة والسكر والتي تأخذ منه كل مأخذ، هنالك أيام تمر يأتي فيها ميخائيل من الحانة ويسنده أحد رفاقه لأنه لا يتمكن من السير على قدميه وفي بعض الأحيان يدخل المنزل وهو في حالة مزرية ممزق الثياب وعلي وجهه أثار كدمات ضرب أثناء شجاره مع الآخرين أو يأتي ملطخ الثياب بالوحل لكثرة سقوطه على الأرض وتعثره أثناء رجوعه في الطريق عندما لا يوجد هنالك من يساعده في الرجوع، تستقبله كرستيان في كل مرة يعود فيها تشعر بالحزن الشديد على زوجها البائس وتظل تبكي على حالته التي وصل إليها بتبديده لأمواله على حانات شرب الخمر 'الأموال التي كان من الممكن له أن يدفعها لقاء أجرة القبو الذي يعيشون فيه ويتم بذلك سداد ما عليهم من دين إلى مارغريتا، ولكن كرستيان لم تستسلم أبدا لهذه المصاعب التي يلاقونها وهي لاتزال تحارب الفقر المدقع الذي أصبحوا عليه واستمرت في عملها داخل القبو عملها في الخياطة وأصبحت تردد في كل مرة تقوم بحياكة شيء ما من أعمالها وهي تقول سأقوم بحياكة حبل لكي أشنق الفقر وانقله الى العالم الآخر، استمرت كرستيان بعملها حتى توقف كل الزبائن عن القدوم إليها

والخياطة عندها، ولكنها لم تعرف اليأس قط فكان لها بعض الصديقات المقربات إليها وهن من الزبونات لدى كرستيانا أيضا يخيطن الأثواب وبعض الأعمال لديها، فذات يوم تذكرت كرستيانا صديقتها التي تدعى كلارا وهي آنسة من الطبقة البرجوازية ومن النساء النبيلات وأيضا هي في نفس الوقت قارئة جيدة للكتب تقرأ الروايات خاصة بنهم كبير ودائماً ما كانت تجلب معها رواية جديدة قامت بقراءتها مسبقاً تقدمها الى كرستيانا عندما تزورها لعمل ثوب أو فستان جديد لها تجلب معها رواية لكرستيانا لتقرأها هي أيضا، تذكرتها كرستيانا وعزمت على إرسال رسالة عبر ساعي البريد ليوصلها إلى كلارا، كان متن الرسالة ومضمونها كما يلي، عزيزتي وصديقتي كلارا، قد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك فيها أخر مرة، كم اشتقت لك لو تعلمين ولكتبك ورواياتك الجميلة التي تجلبينها لي في كل مرة تزورينني فيها، لقد افتقدتك وافتقدت كتبك ولم أتمكن بعد ذلك من قراءة الكتب مرة أخرى بعد آخر رواية قدمتيها لي، تعلمين بأنني لا أستطيع شراء حتى كتاب واحد وأخذت زاريتا ينتابها الملل القاتل لعدم قراءتي لها الروايات التي ألقيها عليها بصوت مسموع، أما ميخائيل تقاعد من وظيفته ولم يعد يعمل بعد الآن وهم يعطونه بعض المال الذي لا يسد رمقنا، أما عملي في الخياطة توقف بشكل نهائي و توقف جميع زبائني عن القدوم للخياطة عندي أدى ذلك إلى تراكم الديون علينا وأخذ ميخائيل يتشاجر مع مالكة العمارة لعدم تمكنه من دفع مستحقات أجرة القبو الذي نعيش فيه، والآن لا نجد من الطعام ما نتناوله وبدأت اذهب يومياً إلى نهر نيفا لأصطاد السمك فتارة اصطاد واحدة وتارة أخرى لا أستطيع اصطياد أي شيء ونبقى بدون طعام وننام على بطن خاوية هذا ما آلت عليه أحوالنا

يا عزيزتي كلارا منذ أخر مرة التقينا فيها، والآن لا أعلم ماذا أقول لكي أصبحنا في حالة مثيرة للشفقة ويرثى لها وفي فقر مدقع لا يعلم به سوى الله، تأكدي يا رفيقتي العزيزة فأنا لا أقول هذا الكلام لكي تشفقي علينا ولا لكي أحصل على المال اعلم بأنك امرأة سخية ولا تبخلين أبدا ولكن لو تمكنت من مساعدتي في إيجاد عمل لولدي ألكسي فكما تعلمين أصبح ولدي صبي كبير ومراهق يستطيع الاعتماد على نفسه جيداً، سأكون ممتنة لكي ما حييت، أشعر بالخجل الشديد لأنني أطلب منك مثل هذا الطلب المخجل ولكن ليس لدي أحد غيرك التجأ إليه في أوقاتنا العصيبة فأنت أقرب رفيقة على قلبي، أتمنى من صميم قلبي أن تبعثي لي جواباً في أسرع وقت ممكن ... شكراً جزيلاً، صديقتك المخلصة دوماً كرستيان،

بعثت كرستيان رسالتها وهي مليئة بالأمل فهي صديقتها المقربة ولا ترفض لها طلب مطلقاً، اذ تمتلك كلارا قلبا مفعم بالرقة والإنسانية وتحب أن تساعد الناس المعدمين وبشكل خاص جميع صديقاتها المقربات، فهي تستطيع أن تخيط فساتينها وجميع أعمالها من الثياب وغيرها لدى أمهر الخياطين في المدينة ولكنها تذهب إلى صديقتها كرستيان لكي تدعمها لمعرفتها بأن أسرة كرستيان من العوائل المعدمة والفقيرة عملت كلارا كل هذا لسخائها وطيبة قلبها، أن كلارا امرأة جميلة لا يمكن وصف جمالها أبدا تملك قوام جسد في غاية الروعة رغم نحولها وقصر قامتها أما وجهها ناعم وذي بشرة بيضاء وعينيها صغيرتين سوداوين أنفها صغير ناعم وفمها باسم عذب لا يتفوه الا بالكلام الناعم المرهف وهي شابة تبلغ من العمر خمسة وعشرون عاماً ولكنها لم تتزوج إلى هذه اللحظة تسكن كلارا في مدينة سالخارد هي وعائلتها،

كان والدها آلبرت من كبار الفلاحين أصحاب الأراضي وأغنيائها في هذه المدينة

ويملك في أرضه أكثر من خمسمائة نفس وفوق كل هذا كان طيب القلب ويتعامل معهم بكل رقة ولا يقطع عليهم أموالهم ويعطيهم حقوقهم ولا يظلم أحد أبدا، من النادر جداً أن تجد من أصحاب الأراضي من يملك نفساً سخية وقلبا طيب آنذاك، جاء الرد على رسالة كرستيان بعد يومين من إرسالها، استلمت الرد من ساعي البريد وأعطته ثلاثة كوبيكات وهي تتحرق شوقاً لقراءتها ومعرفة مضمونها، فضت كرستيان الرسالة وهي مليئة بالأمل وبدأت تقرؤها بصوت مسموع كعادتها عندما تقرأ رواية ما لصغيرتها زاريتا تقرؤها بصوت مرتفع، كان مضمون الرسالة كالآتي صديقتي لعزيزة كرستيان، لا تعلمين كم اشتقت لكي وكم أتحرق شوقاً للقائك، ولكن كما تعلمين فأنا منهمكة في تحضيرات الخطوبة، آوه يا للهول لقد نسيت أنت لا تعلمين عن أمر خطوبتي ارجو المعذرة سوف أشرح لكي كل شيء بتفاصيله عندما نلتقي قريباً وسأعرفكم بزوجي المستقبلي ألكسندر! نعم يدعى ألكسندر وهو شخصية رائعة وستحبونه على الفور، يا الهي، لو تعلمين يا عزيزتي كم أنا منهمكة ومشغولة في هذه الأيام ولكن سعيدة، غاية السعادة سأزوركم قريباً، لاتقلقي لدي بعض الأقمشة الجديدة التي أود أن أخيطها عندك وأيضا لدي روايات جديدة وجميلة قرأتها مؤخراً سأجلبها معي عند مجيئي إلى سانت بطرسبرغ لتقرئيها، أشعر بالأسف الشديد حيال ما تمرون به من ضائقة مالية وسأجد لكم حل في أقرب وقت لا تقلقي أبدا، كل شيء سيكون بخير، ولكن أمهليني أسبوع واحد فقط وبعد ذلك ابعثي لي ألكسي الأسبوع المقبل

في قطار الثامنة صباحاً، سأستقبله بنفسي في محطة القطار لا تقلقي عليه وسأكلم والدي ليجد له عملاً معنا يدر لكم الأموال من خلاله وسأرسل لكم المال عن طريق البريد، آوه، كدت أنسى بخصوص المال هنالك مبلغ من المال مرفق داخل الظرف إنها خمسة وعشرون روبلاً تصرفي بها لحين إرسال ألكسي كلارا.

ملاحظة: ((لا تنسي الموعد الأسبوع المقبل، قطار الثامنة صباحاً، إلى اللقاء)) طوت كرستيان الرسالة ووضعتها على صدرها ورفعت رأسها نحو أعلى وقالت حمداً لله، سيكون كل شيء على ما يرام، وجاء اليوم الذي سيحزم فيه ألكسي حقيبته ليسافر إلى مدينة سالخارد لكي يعمل لدى أسرة كلارا، حزمت كرستيان حقيبة ألكسي وذهبت معه إلى محطة القطار، استقل ألكسي القطار وقد بلغ درجة كبيرة من الحزن واغرورقت عيناه بالدموع وهو يودع والدته ويلوح بيده من نافذة القطار عندما بدأت عجلات القطار بالتحرك، لوحت كرستيان له بيديها أيضا لتودعه إلى لقاء قريب، وصل ألكسي إلى محطة القطار الثامنة صباحاً وجد هنالك كلارا بين جموع الناس في المحطة بانتظاره، استقبلته بحرارة شديدة، أخذت بيده وذهبت إلى منزلها كانت كلارا ترتدي حينها فستان أبيض اللون طويلا بأزهار وردية اللون وترتدي قبعة جميلة واسعة الأطراف بيضاء اللون أيضا، كانت ملابسها أنيقة جداً وفي غاية الروعة، تعرف ألكسي على أسرة كلارا وعاش داخل منزل كبير جداً وأنيق على الطراز الكلاسيكي الذي لا يمكن رؤيته سوى في القصص والروايات الخيالية أنه صرح ببناء عال جداً وذي أبواب حديدية كبيرة وواسعة، يحتوي المنزل على العديد من الغرف الواسعة، عمل ألكسي داخل منزلهم وأراضيهم الواسعة وتمكن ألكسي

من أن يصبح قارئ جيد أفضل من السابق يقرأ في فترات استراحته وعند وقت نومه،

فإن لدى والد كلارا غرفة كاملة تحتوي على مكتبة زاخرة بالكتب والروايات الكلاسيكية ذات المجلدات الضخمة والتي تحتوي على عدد صفحات كبيرة التي يعشقها ألكسي ليس فقط والدها فلدى كلارا أيضا مكتبة خاصة بها تزخر بأعداد هائلة من الروايات تركتها جميعها تحت تصرف ألكسي يأخذ أي رواية يريد قراءتها ويعيدها بعد أن ينتهي منها إلى مكانها المخصص، تمكن ألكسي أن يقرأ سبعون رواية خلال مدة مكوثه في منزلهم من روايات كلارا المفضلة، لقد قضى ألكسي أسعد أيام حياته، عمل معهم لمدة أربعة شهور في أراضيهم الشاسعة واستطاع أن يبعث لأسرته المال عند نهاية كل شهر عن طريق البريد واستطاعت كرستيان بهذا المال تسديد جميع الديون المتراكمة عليهم وخاصة ديون العجوز مارغريتا، وبذلك تمكنوا من التخلص من العبء الثقيل الذي انثال عليهم واثقل كاهلهم، حتى انه استطاع أن يرسل لوالدته بعض الروايات التي اشتراها من ماله الخاص خلال مدة مكوثه هناك، ولكن لم تستمر حياته السعيدة وتوقفت عند حد لم يستطع أن يستمر في العمل لبدء موسم دراسته في مدرسته الداخلية فترك الكسي المنزل وهو حزين بعد أن قضى فيه حياة شديدة السعادة والجذل ولكنه على كل حال فأنه اشتاق إلى عائلته، عاد الكسي وهو في حالة مزدوجة بين الحزن والسعادة وبدأ استعداده لأستقبال العام الدراسي الجديد .... يتبع

الفصل العاشر

بعد مرور أربعة أشهر...

بعد رجوع ألكسي إلى منزله استقبلته كرستيان بحرارة شديدة، ومن شدة اشتياقه لوالدته وشقيقته احتضنهما بكل ما أتاه الله قوة فور دخوله من باب القبو لقد تركهم ألكسي ما يقارب أربعة شهور كاملة بأيامها ولياليها وهم في حالة مزرية وفقر مدقع أما الآن فقد تحسنت أحوالهم للأفضل وقاموا بسداد جميع ديونهم المتراكمة ولم تعد مارغريتا تطالب بأجرة القبو الذي يقطنون فيه بعد الآن، بعد أن عانقهما ألكسي بقوة وحرارة نظرت إليه كرستيان والدموع تنهمر فوق وجنتيها التي اصبحت حمراوين من فرط البكاء، أنه بكاء الفرحة، فرحة رجوع ولدها وصغيرها، حدقت كرستيان في عين ولدها ورأت بأنه أصبح كبيرا ولم يعد صغيراً بعد الآن وقالت له آوه يا صغيري لقد أصبحت رجلاً كبيراً ما أجملك يا صغيري، هل أصابك التعب هنالك من العمل يا عزيزي؟ هل أكلت ونمت جيداً؟ لقد قلقت عليك دوماً يا صغيري، آوه أسفه لأنك لم تعد صغيراً بعد الآن لن أناديك بذلك أبدا، من الآن فصاعداً أنت منقذنا لقد خلصتنا من جميع الديون لم يعد هنالك من يدين لنا بأموال أنه لأمر رائع أليس كذلك يا ولدي وقرة عيني، جابها ألكسي وتبدو على وجهه إمارات الحزن وفي عينيه الواسعتين أجل يا أمي ولكن في الوقت الراهن فقط قد أقبل العام الدراسي الجديد

ولا يزال والدي من غير عمل وهو يبدد أمواله التي يحصل عليها في الحانات، لا تفرحي كثيراً أمي الآن نستطيع أن نأكل ولكن بعد ذلك ماذا سنفعل؟، تفاجأت كرستيان مما قاله ألكسي لم تألف ولدها الصغير وهو يتحدث بهذه الطريقة العدوانية عن والده وبشكل غير معهود، فهو من عادته شخصية صامتة ولا تتكلم الا للضرورة القصوى ولكنه في حينها كسر حاجز صمته وتحدث بهذا الشكل مع والدته التي بدورها قالت له بشيء يدعو للأستغراب على ما يبدو انك تعلمت الكثير هناك!، أردفت تقول لا تقلق بني سيكون كل شيء على ما يرام، استقبل الكسي السنة الدراسية الجديدة بمدرسته الداخلية الجديدة ببالغ الحزن وهو يشعر بالبؤس، ولكن حين دخوله للمدرسة في أول يوم له شعر بفرق كبير بين المدرستين فشتان ما بين مدرسته القديمة والجديدة كانت مدرسته القديمة التي قضى فيها دراسته الأولى من اقذر المدارس الداخلية التي يمكن أن تراها وتتصورها العقول أما هذه فهي تبدو افضل بكثير من مدرسته السابقة،

شعر الكسي حينها ببارقة امل تنزل عليه ولكنه ظل حزيناً على ما تمر به عائلته من فقر وشعر أيضاً بأشد الحزن على شقيقته التي لم ترتد المدارس معه واقتصرت على تعلم القراءة والكتابة في القبو الموحش وتكفلت بتعليمها كرستيانا ولاقت صعوبة في ذلك على الرغم من حدة ذكاء زاريتا ولكنها لا تستطيع الرؤية مما جعل تعليمها صعبا فلو كانت تبصر لما اضطرت كرستيانا إلى تعليمها داخل القبو بل كان بامكانها أن ترتاد المدارس الداخلية مع شقيقها ولكن للأسف الشديد فقد كُتِب لها أن تعيش وان تكمل حياتها وهي على هذه الحالة، ربما يمكن أن تكون حياة زاريتا من دون أن ترى افضل بكثير من لو إنها كانت تتمكن من الرؤية ربما

لكانت تعيش بؤساً اشد من البؤس الذي تعيش فيه الأن، من يدري ربما كان الأمر كذلك، ليس كل شيء يسلب من بين أيدينا يكون خير لنا فربما لو كان بين أيدينا لأصبحنا نعيش في بؤس وحياة كئيبة أكثر، ينبغي على الإنسان أن يسير على هذه الخطى وان لا يحيد عن الطريق القويم الذي رسم له لكي يعيش حياة راسخة وهادئة، أن من طبيعة الإنسان والجبلة التي فطر عليها ان يحب الكمال ولكنه لن يبلغ الكمال مهما حاول جاهداً، خُلِق الإنسان والنقص يلازمه طوال حياته ومهما بلغ من مراتب عليا يصل إليها من تفوق علمي وعملي ومعرفة وحكمة لا بد أن يشعر في قرارة نفسه بأن هنالك نقص ما في شخصيته أو في جسده أو في عقله أو أي شيء آخر، هذا ما ألفنا عليه ووجدنا الإنسان عليه في جميع الأزمان والعصور التي انصرمت والتي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، أن جميع الحروب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نمر بها هي من صنع الإنسان نفسه وحصيلة ما يرجوه من كمال داخلي وشخصي، إنها يا سادتي غريزة التملك وحب الذات والتفرد بالكمال الذي وضع في تركيبتنا منذ أن وجدنا على هذه الأرض وعشنا في هذه الحياة التي نكابد فيها العيش ولحين خروجنا منها ونحن لا نزال نكابد ولا نعرف سبيل الراحة أبدا إلى نهاية الدهر، و الآن نعود إلى سير حياة ألكسي الدراسية التي عاشها وما علق بذهنه من الأحداث التي مر خلالها مع أصدقائه وطفولته التي عاش في كنفها بشكل بريء وكذلك ما لاقاه من شقاء، في بداية ارتياده لمدرسته الداخلية لدراسته الأولية حين كان يبلغ من العمر سبعة أعوام فقط تذكر ألكسي حين أجلسه والده ميخائيل على المقاعد الخشبية البالية والقذرة في أول يوم له في المدرسة الداخلية، شعر ألكسي حينها بالوجوم والحزن الشديد

والوحدة أنه شيء غريب بالنسبة لطفل صغير في مثل هذا السن أن يرتاد مدرسة وهو في وسط أطفال في مثل سنه وكل من حوله غريب لم يستطيع في بادئ الأمر أن يعتاد كيفية التعامل معهم، تذكر ألكسي عندما جلس بجانب طفل صغير في مثل سنه داخل قاعة دراسية صغيرة ولكنها زاخرة بالمقاعد الخشبية المزدوجة التي تكفي لجلوس شخصين، تحتوي القاعة الدراسية على نافذتين كبيرتين تطلان على الباحة داخل المدرسة كانت باحة المدرسة واسعة بعض الشيء ولكنها واسعة فقط للأطفال في مثل سنهم فهي كبيرة ومساحتها واسعة جداً، كان الطفل الذي يجلس بجانب ألكسي بدين وذو وجه مستدير يجلس على مقعده بجانب ألكسي كأنه كومة من اللحم المتراكم يرتدي كنزة صوفية زرقاء اللون، وهو متجهم الوجه ويبدو عليه الغضب من تعابير وجهه وهو عابس لا يبتسم أبدا ولا ينطق بحرف واحد أبدا مهما حاولت استدراجه في الحديث، أراد ألكسي في كل مرة أن يتكلم معه وبشتى الوسائل والطرق ولكن لا فائدة مرجوة من ذلك، أن شخصية الطفل ليست بالشخصية الهادئة والمرهفة كشخصية ألكسي حتى حين تراه لن تجد فيه شيئاً من براءة الأطفال أبدا لا يمكنك أن تشعر بأنه طفل في الصفوف الأولية وعند رؤيتك إليه كأنك تنظر إلى رجل كبير بالغ في السن،

هذا ما رآه ألكسي في صديقه الذي يجلس بجانبه، في كل مرة يعزم ألكسي أمره للتحدث إليه ولكنه يتردد ويعيد بصره إلى الأمام، تمكن ألكسي حينها أن يعرف اسم الطفل الذي يجلس بجانبه حين دخلت عليهم المعلمة عليهم كانت تدعى نانسي وقالت لهم مرحباً أيها الطلاب الصغار الوديعين، سنبدأ بالتعرف أولا على أسمائكم ولكن بالتسلسل سأشير

على من أين سنبدأ وينهض الشخص ويخبرنا باسمه الجميل وبعد ذلك ينهض الشخص الذي يليه، هل هذا واضح يا أولاد؟ أشارت المعلمة على الشخص الجالس في البداية وبدأ الأطفال يقومون من مقاعدهم ويذكر كل منهم اسمه إلى المعلمة الواحد تلو الآخر إلى أن وصل الدور إلى ألكسي حيث نهض وقال اسمي هو ألكسي ميخائيلوفتش ذكر الكسي اسمه وعاد إلى مكان جلوسه مرة أخرى وبعدئذٍ جاء دور الطفل متجهم الوجه حيث قام بالنهوض بشكل غاضب بجسده الثقيل ومن دون مقدمات ومن غير أن يذكر اسمه الكامل اقتصر على ذكر اسمه فقط وقال بافل! ذكر الطفل اسمه وعاد يجلس مرة أخرى ولكن حدث شيء لم يكن في الحسبان فقد تهالك بافل المتجهم بثقل وزنه على مقعده وبصورة فضيعة كأنه سقط من مرتفع عالي مما جعل المقعد الخشبي يقفز من الجهة التي يجلس عليها ألكسي ولم تصدق ما تراه أدى ذلك إلى طيران ألكسي في الهواء وسقط على مقعده مرة أخرى ولو لا توازن ألكسي لكان الآن قد خرج من نافذة القاعة ونجده في باحة المدرسة،

أخذ الأطفال ينظرون إلى الموقف الذي حدث ولم يتمكنوا من حبس ضحكاتهم وانفجر جميع الأطفال في القاعة بالضحك المجلجل وأصدروا صخباً هائلاً وبعد ذلك انهالوا على بافل بأقذع النعوت ووصفوه بكتلة اللحم التافهة حتى أن ألكسي ضحك عليه ولكن في قراره نفسه فقط فهو لا يحب أن يجرح مشاعر الآخرين أبدا، هذا ما تعلمه ألكسي من عائلته وبشكل خاص من والدته التي تعلم منها الأخلاق الحميدة وفعل الإنسانية من نعومة أظافره، أما معلمته نانسي فهي إنسانة رائعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى طيبة القلب وحنون كحنان الأم على صغيرها، لقد أحبها ألكسي

من صميم قلبه على عكس الأولاد الآخرين الذين كانوا ينعتونها بالمرأة الدميمة والقبيحة ألا إنها كانت تقابل إساءتهم لها بالإحسان، ولكنها كانت فعلاً دميمة الوجه بعض الشيء ولكن هذا لا يجيز لهم أن يسيئوا لها بهذه الطريقة البشعة إضافة إلى أن المظهر الخارجي غير مهم أن كانت الأخلاق سامية، كانت نانسي قصيرة ونحيلة وبشرتها سمراء مائلة للزرقة شعرها مجعد قصير وأسود اللون حالك ولكنها مقابل ذلك فهي جميلة بأخلاقها ومرهفة الحس وطيبة القلب وتحمل الإنسانية داخل قلبها الذي يدخل السرور إلى القلب، كانت معاملة الأولاد لها سيئة جداً ومشاغبين بدرجة لا يمكن تصورها ولكنهم خجولين في نفس الوقت، اتبعت المعلمة نانسي مع الأولاد طريقة استطاعت من خلالها أن تكون القاعة الدراسية في هدوء تام، أن عدد الفتيات الصغار الموجودات داخل القاعة أكثر عدداً من الأولاد بدأت المعلمة بوضع جميع الأولاد وفصلهم كل واحد منهم وضعته في مقعد واحد يجلس بين فتاتين صغيرتين لكي لا يحدثوا مرة أخرى أعمال الشغب التي يفعلونها دائماً،

قصارى القول جاءت هذه الطريقة المتبعة بنتيجة مرضية للمعلمة وتخلصت بشكل كامل من أعمال الشغب التي يثيرونها الأولاد داخل القاعة الدراسية، كانت هذه إحدى المواقف التي مر بها ألكسي خلال دراسته الأولية في مدرسته الداخلية وهنالك أيضاً مواقف أخرى مختلفة سنذكر بعض منها أو ربما أبرزها ومن الجميل في هذا الموضوع بأنها ستكون من مذكرات ألكسي التي كان يكتبها بريشته ستكون على لسان حاله يمكن أن تكون هذه الذكريات هي من المفزعة لديه والمرعبة له التي كان يعاني منها خلال دراسته الأولية،

كتب ألكسي في مذكراته ما يلي

((سأروي لكم يا سادتي أبشع الذكريات التي حدثت لي وربما أكثرها غرابة وكذلك هي من المواقف التي تثير الاشمئزاز وتدعو إلى التقزز، كتبت هذه المذكرات خلال فترة دراستي في المدرسة الداخلية واحتفظت بها بين كتاباتي ظناً باني في يوم ما سأصبح كاتباً حاذقاً وروائياً مشهوراً كما تقول لي والدتي في كل مرة ستصبح يا صغيري ذات يوم قارئاً وكاتباً رائعا هذا هو الدافع الذي جعلني اكتب بعض المواقف التي حدثت لي خلال طفولتي وربما سأكتب مذكراتي واذكرها في روايتي التي سأكتبها ذات يوم في المستقبل، حدث لي هذا الموقف خلال السنة الأخير من دراستي الأولية الموقف الذي سأرويه لكم ربما سيثير الضحك والتهكم علي ولكن لا بأس في ذلك لا بد لكم من معرفة كيف قضيت سنوات دراستي حتى لو اضطررت إلى السرد المطول، حدث أنه في يوم من أيام المدرسة الداخلية كان هنالك فتى يدعى جوزيف كان غريب الأطوار ومظهره مخيف لدرجة كبيرة كان جميع من في المدرسة يخافون من شكله كبيراً وصغيراً فتى كان أم فتاة، فشكله يدعو للاستغراب أن جوزيف فتى مصاب بمرض جلدي ولكنه غير معدي مقزز ومخيف كان جوزيف أصلع الرأس لا يملك شعرة واحدة في رأسه من جراء مرضه الجلدي الذي أصابه لون بشرته حمراء قرمزية اللون كأنه صب فوق جسده بأكمله ماء مغلي ويحتوي جسده على قشور بارزة ومقززة، لا شك أن من يراه يحسبه إنسان مختلف كل الاختلاف عن بني جنسه كان الجميع يخافه من الأطفال حتى كان يرهبني ولا اقترب من ناحيته أبدا لا أعرف لماذا افعل ذلك ربما لأن شكله يثير الاشمئزاز داخلي أو ربما لأنني حقاً كنت أخاف

منه أو لأنني كنت أفكر في أنه لو لمسني في يوم ما سأصبح مثله وأصاب بهذا المرض الجلدي الغريب ولكن على كل حال فأنا لا اقترب منه البتة ولكن لم أكن أتخلص منه رغم تملصي والتواري من أمام أنظاره، استغل جوزيف شكله القبيح والمقزز في إخافة جميع الصغار من حوله وان من ضمنهم، يظهر أمامي ومن دون سابق إنذار يصرخ في وجهي وهو يرفع يده للأعلى فوق رأسي محاولاً بذلك لمسي ينتابني حينها الفزع وأجري منه بكل ما لدي من قوة وأختبئ في مكان قصي عن أنظاره ينتابني الهلع حينها وأشعر بالرعب الشديد يأخذ قلبي بالخفقان بشدة وهو ينبض بسرعة داخل صدري وفي بعض الأحيان ابكي من شدة خوفي، إنها الحقيقة لا يمكنني أن اكتمها فإن كتمتها ولم أذكرها بالكلام فلا يمكنني أن احول بينها وبين الكتابة، أن كل حقيقة من الحقائق المخبئة والمكتومة إن لم تظهر بالكلام أثناء الحديث فمن الممكن أن يفتضح أمرها بالكتابة، هذا ما أنا تعودت عليه فحين لا أستطيع أن أتكلم بشكل مباشر عن مخاوفي الشخصية وذكريات حياتي عندما كنت صغيراً حتى وإن كانت غير لطيفة أو مخجلة بعض الشيء فيمكنني أن أقوم بكتابتها في مذكراتي هكذا تعودت أن أفرغ ما في داخلي من كميات هائلة من الحديث الذي لا أستطيع أن أبوح فيه حتى لنفسي ولا بد من أنه في يوم ما سأخرج مذكراتي التي تحتوي على كل كتاباتي ومخاوفي وما ينتابني من كلام لم أستطيع أن اكسفه إلى أي شخص حتى وإن كان هذا الشخص هو أقربهم لقلبي، ذات يوم ستقرؤن مخاوفي في رواياتي في المستقبل لا بد من أن يأتي هذا اليوم، لا بد من أن يأتي لا مناص في ذلك))،

كانت هذه إحدى اعترافات ألكسي التي نقلتها لكم من مذكراته بكامل

تفاصيلها ولم أحرف أي شيء فيها وليس فقط هذه فهنالك غيرها من الذكريات في مذكراته ولكن ذكرنا ابرزها،

كان الكسي من التلاميذ الحاذقين من بين جميع أقرانه حتى حين انهى دراسته الثانوية وبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وهو لا يزال محافظاً على ذكائه وفي كل عام يمر عليه وهو يتقدم في السن يصبح فيها اكثر ذكاء واقل كلاماً اصبح صامتاً بصورة تثير الحفيظة لا تستطيع أن تسبر أغوار ما يعتمل في دخيلة نفسه، اكتشف الكسي بأن من خلال صمته وقلة كلامه يجعل منه شخصاً اكثر حكمة ومعرفة بطبيعة النفس الإنسانية ويتيح له من ذلك أن ينفذ داخل العقول وعرف ما يعتلج داخلها من أفكار، بلغ الكسي سنه الثامن عشر وانهى دراسته الثانوية، لا يوجد هنالك شيء يذكر في هذه المرحلة سوى ما ذكره الكسي في مذكراته عن رفيقه دانييل وهو اقرب رفيق إلى الكسي خلال دراسته في المرحلة الثانوية يكن الكسي حب خاص داخل قلبه إلى رفيقه دانييل، يبلغ دانييل من العمر تسعة عشر عاماً اكبر سناً من الكسي بعام واحد فقط ولكنه لا يتعداه في مراحل الدراسة فهو في نفس المرحلة مع الكسي، دانييل شخصية لطيفة ومرهفة بدرجة كبيرة وهو نحيل نحول مفرط جداً وطويل القامة أطول قامة من الكسي بشيء بسيط، شعره كثيف أسود اللون ومنسدل للخلف ويرتدي غطاء للرأس ذي لون أسود لا يخلع قبعته أبدا ورغم صغر سنه وهو في ريعان الشباب ألا إنه يمتلك بعض خصل شعره رمادية اللون تتخلل شعره الأسود حالك اللون بلون الفحم من شدة اسوداده وجهه نحيل ورفيع ومستدق من ناحية ذقنه يمكن رؤية ذلك وهو من دون لحيته خلال فترة دراسته وبعد أن أنهى دراسته أطلقها وأصبح لا يحلقها أبدا فلديه الآن لحية كثيفة بنفس لون

شعره منسدلة نحو الأسفل وتصل إلى عنقه يمتلك دانييل لون بشرة كلون الحنطة أما عينيه فواسعتين وسوداوين ورموشه طويلة وحاجبه كثيف هذا ما كان عليه شكل دانييل بحسب وصف رفيقه ألكسي فهو شاب وسيم جداً لا يقل وسامة عن ألكسي، أنه الصديق الوحيد الذي تعرف عليه ألكسي خلال مدة دراسته وأحبه من كل قلبه فلا يدرس ألكسي ألا مع دانييل ولا يتكلم مع أي شخص باستثنائه ويثق به ثقة عمياء ودوماً كانوا يقتلون الوقت في التنزه على الأقدام والسير لمسافات طويلة وهم يتحدثون عن مواضيع مشوقة وينصح أحدهم الآخر كان دانييل يستشير ألكسي في كل أمور حياته لأنه يعلم مدى حكمة ألكسي ورأيه السديد في المواضيع المهمة وخاص لما كان يناله ألكسي من قراءة الروايات هذا ما جعل دانييل ما ينفك يستشير ألكسي في كل صغيرة وكبيرة، وكان يأخذ ألكسي إلى حانات القمار يلعبون ولكن من دون رهان يلعبون فقط للتسلية وتزجيه الوقت،

لقد ذكر ألكسي دانييل في مذكراته لسببين الأول لأنه كان يحبه كثيراً والسبب الثاني لأنه طلب من ألكسي أن يسافر معه إلى أمريكا لإكمال دراستهم هناك ولكن ألكسي لا يستطيع أن يسافر لأنه لا يريد أن يترك عائلته بمفردهم وهم على هذه الحالة المزرية التي يمرون بها وبشكل خاص فأنه لا ينوي ترك شقيقته زاريتا لأنه وعد والدته بعدم تركها لأي سبب كان من الأسباب على الرغم من أنه يتوق إلى الذهاب لأمريكا وخاصة بعد أن أنهى دراسته الثانوية،

أن ما يمكنك ملاحظته في مذكرات ألكسي التي كتبها والتي ذكرناها الأن جميعها من أمور يخافها أو من أشياء يتوق إلى فعلها هذا ما كان الكسي يكتبه في مذكراته، لا يسعني أن اذكر اكثر من هذا السرد عن حياة

الكسي ومذكراته خلال فترة دراسته في المدارس الداخلية التي ارتادها، واقتصر على أن انهي هذا الفصل من الرواية بذكر ما قرره الكسي بعد عبور مرحلته الأخيرة من دراسته،

بعد أن تجرع الكسي وتذوق مرارة العيش بفقر وتقتير مع عائلته المعدمة قرر وبعد تفكير طويل بأنه سيلتجأ إلى العمل لمساعدة عائلته وانه سيتخلى عن فكرة دراسته خارج روسيا وسفره إلى أمريكا بلا رجعة هذا هو قراره النهائي الذي توصل اليه بأنه لن يدرس بعد الأن ....يتبع

الفصل الحادي عشر

بعد مرور ثلاثة أعوام...

بعد أن أنهى ألكسي دراسته الثانوية وخلال الثلاث سنين المنصرمة تحولت أحوال عائلة ألكسي إلى البؤس وبلغت درجة كبيرة من السوء والفقر والسغب وتقتير المال الذي يحصلون عليه وتراكمت الديون عليهم من جديد وعادت مارغريتا إلى سابق ما كانت تفعله مرة أخرى بعد كل هذه الأعوام التي مرت وبعد أن تقدموا في السن، في كل عام تكبر فيه العجوز في سنها وتتقدم في العمر يزداد معها حب المال وشهوة الوصول إلى الغنى، إنها غريزة حب المال التي وضعت في الإنسان وحب التملك وحب الذات فهي غرائز فطرية ولدت معنا لا تفارقنا إلا عندما نترك هذه الحياة إنها بذرة غرست في النفس البشرية وتنمو معها كلما نمت ففي كل مرة ينمو فيها الإنسان تنمو غرائزه معه إن واظب بسقيها وتزويدها بما تحتاج إليه لكي تنمو وتزهر أما إذا لم يعطيها ما تحتاجه من غذاء فأنها لن تنمو أبدا هذا ما يحدث للغالبية العظمى من بنو البشر، من يقوم بتغذية غرائزه على أكمل وجه أشبه بمن يغذي طفل صغير لا حول له ولا قوة ليبلغ أشده إلى أن تبلغ هذه الغريزة أشدها وذروتها وتستحوذ على كامل عقولنا وتفكيرنا وتصرفاتنا التي نقوم بها وعندها لن نتمكن من اقتلاعها من جذورها وتبقى تلازمنا إلى أجيال تستمر بالانتقال من جيل إلى جيل

آخر وتنتقل كالعدوى فهي أشبه ما تكون بمرض الطاعون الذي ينتقل من شخص إلى آخر، هذا ما أصبحت عليه العجوز الشمطاء حتى بعد مضي عقد من الزمن لم تتغير بل ازدادت في ما كانت تفعله،

أما بالنسبة إلى عائلة ألكسي فازدادت حالتهم سوءاً ولم يتغير أي شيء خلال هذه الأعوام حتى عمل كرستيان في الخياطة بقي على ما هو عليه ولا يزال لا يسد رمق العيش أما زاريتا فهي أيضا لا تزال على حالها لم تتغير ولكنها أصبحت أجمل بكثير من ذي قبل وأكثر ثقافة ونباهة من سابق عهدها وأَحَدُّ ذكاء أما الكسي فأستمر في مصارعة ما تعانيه عائلته بشتى الوسائل والطرق المتاحة لديه ولكن من دون فائدة تذكر، أما رب الأسرة ميخائيل ازداد تردده على الحانات ورجوعه في ساعات متأخرة من الليل وهو لا يكترث لسغب عائلته حتى بعد أن تجاوز سن الستين عاماً ومقابل ذلك اصبح الكسي كبيراً بما يكفي لكي يعتمد على ذاته وينخرط بأعمال أضنته رغماً عنه لأنه لن يعتمد على والده في توفير لقمة العيش بعد الأن وقرر أن يبحث عن عمل يستطيع من خلاله سداد ديونهم التي تراكمت مرة أخرى لذا اضطر ان ينزل إلى الشارع يومياً وبشكل متكرر للبحث عن عمل ما هنا وهناك ومن غير أن يتبرم،

لقد فهم الكسي معنى الحياة بشكل جيد وانه لا بد له أن يكابد العيش ويشاق الحياة لكي يتمكن من العيش هو وعائلته ويتمكن من العيش من دون أن يطلب يد العون من احد عندما يشتد فيهم الفقر ويبلغ به اقصى حد يمكنه أن يصل اليه، هذا ما فكر فيه الكسي وبدأ يحسب حسابه جيداً طوال المدة التي قضاها في البحث عن عمل يمكن أن يعيله وينتشله هو وعائلته من الفقر والضياع، وفي غضون هذه الأيام التي قضاها الكسي يبحث فيها

عن عمل وفي يوم من تلك الأيام وبمحض الصدفة مر ألكسي من أمام محل لبيع الخبز أنه أقرب محل تباع فيه المخبوزات يمكن أن تجده في الشارع قرب العمارة التي يسكن فيها ألكسي لا يبعد سوى جادة واحدة تحول بينه وبين العمارة إنها مصادفة لا يمكن أن تتكرر أبدا كأنها نزلت عليه من السماء على طبق من ذهب للمسكين البائس ألكسي ربما لم تكن مصادفة وإنما جاءت كعون ورحمة من الله لكي يعوض عائلته وما أصابها من فقر، كان ألكسي يسير بصورة بطيئة ويوجه بعينيه صوب العمارات والمتاجر والمحلات وهو حالم غارق في تفكيره وهو يردد في قراره نفسه لا بد لي من إيجاد عمل وفي أسرع وقت، لن أعود اليوم إلى المنزل ألا وقد وجدت عملاً أتمكن من خلاله شراء الطعام لأن والدتي لم يعد بإمكانها العمل بعد الآن في الصيد والخياطة لا بد لها من الاستقالة من عملها ومن الواجب أن اعمل إنها مسؤوليتي وقد وعدت أمي أن اعتني بهم وأن لا اتركهم بأي حال من الأحوال، لن أنكث بوعدي أبدا ومهما حصل، إنها مسؤوليتي وحدي وسآخذها على عاتقي، سأسعد والدتي وشقيقتي وأساعد والدي مهما كلفني هذا من ثمن، نظر ألكسي إلى الناحية الأخرى من الشارع موجهاً به نحو محل الخبز وهو يركز على اللوحة التي وضعت على الزجاج الخارجي لواجهة المحل، ظل ينظر إلى اللوحة ويمحص الرؤية لم يتمكن في بادئ الأمر أن يستبين ما كان مكتوباً على اللوحة المعلقة وحاول جاهداً أن يعرف محتواها دون ان يضطر للعبور الى الناحية الأخرى من الشارع ولكن لا مناص من ذلك لن يستطيع قراءة ما مكتوب حتى يعبر إلى الناحية الأخرى من الشارع أو الاقتراب منها لكي تتضح ليه الرؤية، لم يكن ألكسي ينوي أن يضيع هذه الفرصة من بين يديه وتركها وراء ظهره،

فقد عزم أمره على إيجاد عمل في أسرع وقت وعدم الرجوع إلى المنزل دون أن يجد عمله المناسب ليتمكن من سد رمقه وعائلته التي بانتظاره داخل هذا القبو الموحش، قرر ألكسي أن يعبر الناحية الأخرى من الشارع متجهاً نحو محل الخبز والاقتراب منه بمسافة قريبة ليتمكن من رؤية ما مكتوب على اللوحة المعلقة وأثناء عبوره ظل مركزاً على هذه اللوحة ولم ير من حوله أي شيء سواها وصل إلى وسط الشارع وبدأ يسمع أصوات من بعيد كأنها صوت لعجلات عربة قادمة من مكان قصي ومتجه نحوه لم يُعِر ألكسي للصوت أي اهتمام وظل منكباً بنظره إلى ضالته التي كان يبحث عنها ووجدها،

أصبحت الرؤية تتضح لديه شيئاً فشيئاً وبدأت الكلمات تظهر بشكل أوضح من ذي قبل كلما اقترب منها كذلك أصبح الصوت الذي يسمعه الآن أكثر وضوحاً يقترب أكثر وأكثر من أذنيه وفجأة وعندما لم يتبق على واجهة محل الخبز الزجاجية سوى خطوات قليلة خطفت ألكسي عربة لحوذي مسرعة بشكل لا يصدق مرت من خلفه وأرادت عجلاتها أن تلامس ظهره من شدة اقتراب العجلة من ألكسي أرادت العربة أن تصدمه وتسحقه بعجلاتها لولا أن ألكسي انتبه في آخر لحظة وهرع يعبر الشارع مسرعاً اصبح صدره يعلو ويهبط من فرط الخوف الذي انتابه حينها وتفاجأ من توقف العربة بعد مسافة ليست قصية عنه لأنه في العادة التي جرت فان العربات لا تتوقف عند حدوث شيء كهذا ألا اذا دهس احدهم تحت عجلات العربة في مثل هذه الحالة يبادرون بالنزول من على متن عرباتهم ليلقوا نظرة على الشخص الذي يحتضر تحت العجلات وفقط حينها يشرعون في البكاء والعويل على ما اقترفوه من عدم انتباههم على

الأشخاص الذين يسيرون أمام عرباتهم وبجانبها ولكن هذه المرة توقفت العربة من غير أن تدهس احدهم ومن دون سبب يذكر أو يدعو إلى توقفه، أستدار الكسي إلى ناحية العربة مولياً ظهرة للمحل وظل يحدق إلى عربة الحوذي التي توقفت وهو يلتقط أنفاسه وقال يا للهول كاد أن يدهسني، حمداً لله لقد تخلصت منه بأعجوبة، في هذه الأثناء عاد إلى الكسي مشهد قد مر عليه اكثر من تسعة أعوام خلت، انه مشهد مشابه للذي حدث للتو، تذكر ألكسي عمله المشين الذي اقترفه سابقاً وبقي يلازمه طوال هذه الفترة التي مضت واخذ يعذبه ولا زال يعذبه ويقض مضجعه في نومه وأحلامه أنه وخز الضمير أصبح يأنبه طوال التسعة أعوام، في كل مرة يخلد بها للنوم ويرى نفس الكابوس الذي يراه في كل ليلة، لم يتذوق ألكسي طعماً للراحة أبدا حتى في أحلامه، والان استعادت ذاكرته نفس الموقف الذي مر به سابقاً عندما كان صبيا صغيرا لم يتعدَّ سنه آنذاك عشرة أعوام فقط وحين سرق الكتاب من متجر الكتب وجرى وهو لا يعلم ماذا فعل حينها ولماذا قام بهذا العمل المخزي، أنه نفس الموقف ومشابه بشكل يثير الاستغراب فعندما جرى وهو يحمل الكتاب بكلتا يديه وعندما أراد عبور الشارع أرادت عربة الحوذي دهسه بعجلاتها لولا مروره بشكل سريع من أمام العربة، والآن بعد أن أنقذت حياته مرتين وقف ألكسي متسمراً في مكانه وهو حالم وغارق في أفكاره وذكرياته التي باغتته على حين غرة، حاول ألكسي نفض ذكرياته في هذه اللحظة الراهنة ويجمع شتات عقله وتفكيره داخل رأسه وهو لا يزال موجهاً برأسه نحو عربة الحوذي ويبدو على محياه تعابير الانشداه والاستفهام في نفس الوقت وشعر بالعطش الشديد، هذه هي المرة الثانية التي يكاد ألكسي أن يقتل فيها ولكنه ينفذ منها بأعجوبة

والغريب في الأمر أنه موقف متكرر بالإضافة إلى تساوي المدة من سنوات حياته التي عاشها، ففي المرة الأولى حدث معه هذا الموقف عندما كان عمره تسعة أعوام أما في المرة الثانية في سن الثامنة عشرة أي بعد مرور تسعة أعوام أيضا أنه أمر يدعو للاستغراب و للتساؤلات فعلاً، ظهر رأس شخص من داخل عربة الحوذي ووجّه نظره إلى ألكسي يتفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وكأنه على معرفة سابقة بألكسي، لم يتمكن ألكسي من التعرف إلى وجهه لدخوله في حالة الانشداه وهو ينظر إلى العربة ولكن عقله وتفكيره في مكان آخر، نزل الشخص من العربة بعد أن تكلم مع الحوذي ببعض الكلمات وقال له أن ينتظره قليلاً وتوجه الشخص نحو ألكسي بخطوات واثقة ومتثاقلة وببطيء، تبدو علامات الحيرة على وجه الشخص القادم وابتسامة تهكم في نفس الوقت، اقترب من ألكسي بشكل قريب جداً لم يبق سوى مسافة ثلاث خطوات تفصل بينهم ولا يزال ألكسي موجهاً عينيه ناحية العربة لم يرف له جفن إلى أن وصل الشخص الغريب أمام وجهه مباشرة لا تفصله عن ألكسي سوى خطوة واحدة فقط، رفع الشخص يده وبدأ يلوح أمام وجه ألكسي الذي اصبح في حالة من الانشداه وصلت به إلى اقصى حد لا يعلم ماذا يدور من حوله، استمر الشخص يلوح بيده أمام وجه الكسي وبدأ يتكلم هيه! أنت، الكسي! ماذا أصابك يا رجل؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل أصابك مكروه؟ ماذا دهاك يا رجل هل رأيت شبحاً ما؟، وبصورة مفاجأة فزع الكسي كأنه استيقظ من كابوسه للتو وهو يفتح بعينيه ويغمضها مرة أخرى أراد أن يمحو ذكرياته التي علقت في ذهنه فجأة ولكن جاء من ايقظه من كابوسه المرعب،

في كل مرة يرى الكسي فيها ماضيه قبل تسعة أعوام ويتذكر جريه

السريع وسقوطه على الأرض مرات عديدة وكيف بداعليه حين عاد الى القبو وهو في حالة مزرية وثياب رثة وموحلة وكيف استقبلته كرستيانا، كأنه يرى كل هذا الأن يرى الأحداث التي حصلت معه بل انه يعيش داخلها في كل مرة حتى انه حين يرى الكابوس اثناء نومه أو يرى في بعض الأحيان تصورات من عقله المحموم وعندما يصحو منها يجد نفسه وقد انتابه التعب الشديد والإرهاق والوهن في جسده حتى أنه يشعر بألم الكدمات والجروح التي أصابته وإصابة يديه عند سقوطه على الأرض كما أنه يشعر بالعرق وهو يسيل من جبينه وصدغيه وكذلك الخوف من الشخص الذي يلاحقه ويحاول الإمساك به صدره الذي يعلو ويهبط محاولاً التقاط أنفاسه لجريه السريع كل تصوراته في الحقيقة وكوابيسه في نومه تتحول أعراضها إلى حقيقة بالنسبة لألكسي، عاد ألكسي إلى واقعه عندما تخلص من بين عجلات العربة وبعد أن كان غارقاً بماضيه، رأى من حوله ومن ثم ثبت نظره نحو الشخص الذي يقف أمامه لم يتمكن منذ الوهلة الأولى إلى التعرف على وجه الشخص الذي يقف أمامه وبعد فترة وجيزة ابتسم ألكسي ابتسامة تنم عن شعوره بالراحة وبدأ ألكسي بتوجيه الحديث إلى الشخص وقال آوه، دانييل ماذا تفعل هنا؟ وأين كنت طيلة هذه المدة؟ اذكر أنه قد مضى وقت طويل حين التقينا بها أخر مرة، أين كنت يا رجل وكيف حالك؟، أجابه دانييل وهو يمسك بكتف ألكسي إنها قصة يطول شرحها يا صاحبي سنتكلم فيما بعد، وأردف قائلا أعيش بخير ولكن ظننت للوهلة الأولى بأنك لم تعرفني، ولكن قل أنت ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المبكر من الصباح؟ ولماذا تسير وأنت شارد اللب هكذا؟ كان من الممكن أن تدهسك عجلات العربة لو لا انتباهك في آخر لحظة،

ما أصابك يا عزيزي هل تفكر في فتاة هه هه، تكلم ألكسي بحزن عميق وقال في الحقيقة اني أخرج كل يوم للبحث عن عمل، فكما تعلم والدي قد أحيل إلى التقاعد منذ بضعة أعوام وكذلك توقفت والدتي عن العمل في الخياطة، لا بد أن أجد عملاً في أسرع وقت، سمع دانييل حديث صديقه بالكامل وشعر بالحزن تجاهه وقال له عزيزي ألكسي كان من الممكن أن تعمل معي ومع والدي في مكتبتنا التي نطبع فيها الكتب ونشرها ولكن بعد أن أنهيت الثانوية قررت أن أدرس خارج روسيا سأذهب إلى أمريكا ولكن أعدك عندما أعود لن أدعك مطلقاً سنعمل سوياً لأن لديك مواهب من نوع خاص في مجال الكتب لم يكتشفها أحد سواي، سنعمل لا مراء في ذلك، يمكنك أن تستعد من الآن، قال دانييل هذا الكلام وهم بالانصراف مبتعداً عن ألكسي ومتجهاً بدوره إلى العربة، أما ألكسي مكث في موقعه وهو ينظر إلى دانييل باهتمام شديد ويفكر في قراره نفسه كم هو رائع أن اعمل معهم سأحقق كل ما كنت اصبو إليه، أتمنى أن لا يذهب ويسافر ويبقى هنا لكي استطيع العمل معهم وانا مستعد من هذه اللحظة، سأكون بذلك اسعد إنسان على وجه الأرض، ولكن لا يهم الأن سيعود من سفره بجميع الأحوال والان لا بد لي من إيجاد عمل ولابد ان افكر في ذلك فقط وانبذ ما يعتلج في داخل مخيلتي الواسعة التي لا تنفك تطلب كل شيء، لوّح الكسي مودعاً صديقه دانييل حين ركب العربة وتحركت بأقصى سرعتها مرة أخرى، يبدو على دانييل انه قدّم للحوذي اجراً إضافياً لكي يزيد من سرعته ويجلد الحصان بالسوط أن أصحاب العربات لا يملكون في قلوبهم رحمة تجاه جيادهم هذا فقط ما يمكن ملاحظته في معاملة الحوذي للحصان المسكين،

عاد الكسي إلى ما كان يريد فعله قبل أن يتوقف ترك عربة الحوذي تختفي أمامه واستدار للخلف وتوجه نحو محل الخبز سار بخطى بطيئة ثم توقف مباشرة أمام نافذة واجهة المحل وبدأ بقراءة اللوحة التي كتبت بخط اليد على شكل إعلان كان مضمونه هو محل الخبز يفتقر إلى شخص يعمل بنشاط لاحظ الكسي أن الإعلان المكتوب خارجاً هو على ما يبدو إعلان قديم ولا احد يعيره أي اهتمام وذلك لأنه ممزق بفعل عوامل الجو وتغيرات الطقس التي جعلتها تبدو قديمة ومهترئة، ابتسم الكس ابتسامة مرّة وقبل أن يعزم امره على الدخول تمنى من صميم قلبه أن يتم قبوله بهذا العمل ليس لا لأجل أي شيء ولكن من أجل عائلته لا بد له من العمل في أسرع وقت، تمنى الكسي ان يبتسم له الحظ هذه المرة ثم دخل إلى المحل وقد كان المحل جميلا جداً ونظيفاً من الداخل اما تصميمه الخارجي فقد بسيطاً جداً فهو لا يحتوي الا على نافذة زجاجية كبيرة يمكن من خلالها رؤية ما يوجد خلفها أي من داخل المحل وباب خشبية تحتوي على فتحات زجاجية من الجهة العلوية لها اما الاخشاب فقد تم طلائها باللون الأخضر الداكن وهناك لوحة خشبية مربعة الشكل وخضراء اللون أيضا كتب عليها ((محل الخبز))، اندفع ألكسي إلى داخل المحل وألقى التحية على صاحبه وهو يتفحص بعينه ويلف رأسه أصاب ألكسي الذهول وهو يحاول النظر لجميع الاتجاهات فداخل المحل يبدو أجمل بكثير من خارجه ومرتب بعناية فور دخولك المحل وعلي جهة اليمين توجد هنالك عارضة خشبية مغلفة بالزجاج لعرض المخبوزات الجاهزة داخلها، اما طولها فيمتد إلى منتصف المحل في حين ان جدرانه مغلفة بورق حائط بني اللون بلون الخشب جميل جداً، رائحة المحل زكية تعج بروائح

المخبوزات الشهية يمكن شمها حتى قبل الدخول من باب المحل، هناك في آخر المحل موقد حجري تعلوه مدخنة تفضي بدورها إلى الخارج من الأعلى للتخلص من الدخان خارج المحل، وضع الموقد خلف حاجز خشبي يحول بينه وبين العارضة الخشبية للمخبوزات الجاهزة لكي لا تتأثر أوراق الجدران وعارضة المخبوزات بفعل حرارة الموقد، رأى ألكسي جميع هذه الأشياء بدقة وأهتمام لقد مضى على دخوله للمحل ثلاث دقائق كاملة و ألكسي يقف أمام صاحب المحل ولم ينبس ببنت شفة وهو يقف فاغر الفم يمحص بنظره داخل المحل ولم يترك شيء خلفه ولم ينظر إليه، وقف صاحب المحل وهو ينظر إلى الشخص الذي دخل المحل باستغراب لمكوثه لمدة طويلة داخل المحل من غير شراء أي شيء فقط اقتصر على الدخول وإلقاء التحية ومن ثم الصمت المطبق، يدعى صاحب محل الخبز أندريه وهو رجل بلغ الستون من عمره ضخم البنية عريض المنكبين ويميل إلى البدانة بعض الشيء ولكن بقامته الطويلة يفقد بدانته لدى رؤيته بتركيز فلا يبدو عليه البدانة، له رأس كبير ومستدير ووجنتيه مملوءتين وحمراوين أن بشرته بصورة عامة حمراء اللون ورأسه أصلع من فوق فقط من جانبي رأسه والخلف من الأسفل لونه أبيض يبدو على وجهه الوسامة يملك شارب أبيض كثيف وسالفين على جانبي وجهه كثيفين أيضا أما عينيه صغيرتين أو ربما ليست صغيرتين إنما يمكن رؤيتها وهي مغمضة بالكامل حتى أنه لا يمكن التعرف على لونهما بصورة واضحة إلا بحالة واحدة وهي عندما تبدو على وجه أندريه تعابير الإثارة والدهشة او عندما يطرح موضوع يثير الدهشة فيبدأ بفتح عينيه بكاملها حينها يمكن التعرف على لونهما فهما زرقاوين صافيتين كصفاء السماء تعكسان

شخصيته الطيبة والمرهفة وكذلك صدقه وأمانته في طريقة معاملته مع زبائنه القادمين لشراء المخبوزات باستمرار،

أندريه رجل طيب عرف بسخائه بدرجة كبيرة وتقديمه الخبز مجانا للعائلات التي لا تملك المال والذين لا يملكون شروى نقير، هنالك قطعة خشبية وضعت أمام المحل لم يلاحظها ألكسي عند دخوله لانشغاله بالإعلان المكتوب على واجهة المحل كتب على هذه اللوحة الصغيرة ((تناول ما شئت من داخل المحل أن كنت لا تملك المال))،

هنالك العديد من محلات الخبز في هذا الشارع ولكن أندريه هو المفضل لدى الجميع من عامة الناس، كسر أندريه حاجز الصمت الذي حال بينه وبين ألكسي وقاله له بماذا أستطيع مساعدتك إياها الشاب؟، حول ألكسي رؤيته نحو صاحب المحل الذي قام لتوه بقطع سلسلة أفكاره وانهماكه في تفحص داخل المحل، رد الكسي على أندريه وقال شكرا لك يا سيدي وارجو المعذرة منك أن بدرت مني وقاحة ما ولكن المحل جميل جداً ونظيف لم اكن اعلم بأن هنالك محل مخبوزات نظيف كمحلك يا سيدي، أجابه أندريه وقال شكراً بني على هذا الإطراء أضاف الكسي ما جذبني نحو محلك الجميل يا سيدي هو لوحة الإعلان المعلقة على واجهة المحل قرأتها ووجدت نفسي داخل المحل، تكلم أندريه بعد أن علم مبتغى الشاب الذي دخل محله فجأة وقال في الحقيقة يا بني إنني في أمس الحاجة إلى شخص أمين لكي يعمل معي في هذا المحل، فوضعت هذه اللوحة منذ فترة، كان هنالك شاب أيضا عمل في المحل ولكن لمدة قصيرة وترك المحل والآن لم يعد لدي من يساعدني، رد عليه ألكسي وقال هل لي يا سيدي أن أسألك سؤال وأرجو أن لا يزعجك سؤالي قال أندريه تفضل

بني اسأل ما شئت، قال ألكسي كيف لك إن تعلم يا سيدي بأن الشخص الذي يتقدم بطلب العمل لديك في المحل بأنه رجل أمين؟، أجابه أندريه لا أعلم ولكني أعرف أمرا واحدا فقط وأنا على يقين من هذا وهو أنه ذات يوم سيرسل الله لي شخصًا أمينا لا شك في ذلك، ابتسم ألكسي في وجه صاحب المحل وقال له لقد انْقَضَتْ مدة طويلة وأنا أبحث فيها عن عمل اخرج كل يوم في الصباح واليوم كعادتي خرجت صباحًا وعندما مررت من أمام محلك بصورة عفوية رأيت اللوحة المعلقة على واجهة محلك ودخلت إليه وها أنا ذا أقف أمامك وسأخبرك بما جئت من أجله لقد جئت يا سيدي لأطلب منك أن اعمل لديك وسأكون أمينا واعمل بنشاط، أصاب أندريه الذهول لطلب ألكسي الغريب لأن مظهر الشاب الذي يقف أمامه بوسامته وببهاء طلعته وثيابه النظيفة والأنيقة بصورة متكاملة لا يوحي بأنه شاب يبحث عن عمل وبهذا الإصرار وخروجه المتكرر في كل صباح، بدأ أندريه ينتابه الشك من هذا الشاب وأخذ يستجوبه ويطرح عليه بعض الأسئلة المبتذلة التي لا بد من أندريه أن يطرحها عليه، سأله أندريه عن اسمه وعنوان سكنه وعن عمل والده ودراسته وعن عائلته بصورة عامة، كان من المفترض على أندريه أن لا يطرح هذه الأسئلة عليه ولكنه شعر بالفضول من مظهره الأنيق والنظيف وشكله الوسيم وعلي الرغم من جميع هذه المواصفات إلا أنه يبحث عن عمل، هذا ما دعا أندريه إلى طرح الكثير من الأسئلة عليه، أجابه ألكسي على جميع أسئلته وبصورة مفصلة وبدقة متناهية من غير أن يشعر بالخجل من حالة عائلته المزرية وبكل صراحة ووضوح وأخبره عن تقاعد أبيه وعن حالته شقيقته البائسة وحتى اخبره عن عمل والدته والشقاء التي هي عليه فكانت صراحة الكسي

وعدم تحرجه من أخبار شخص غريب عن خصوصيات عائلته وبشجاعة سببا في أن يعجب أندريه بشخصية الشاب والاطمئنان اليه،

أراد الكسي أن يعمل بأي وسيلة وطريقة كانت ومهما كلفه ذلك من ثمن واستطاع بكلامه المرهف وشرحه الجميل المحبب إلى القلب أن ينشرح قلب أندريه إلى الشاب وأيضا اشفق على حالة عائلته وخاصة شقيقته التي ولدت ولا يمكنها الرؤية، بعد أن انهى الكسي سرده في حديثه وشرحه إلى صاحب المحل ووجهه ملئ بالأمل كأنه اشرق من جديد، ابتسم أندريه في وجهه وقال له يمكنك أيها الشاب أن تبدأ بالعمل من الآن، اعتبر نفسك مقبولًا من هذه اللحظة،

لم يصدق الكسي ما سمعته أذنيه للتو وأراد أن يقفز من شدة فرحه وهو يقول حقًا ما تقوله سيدي هل فعلًا سأعمل هنا؟،

أبتسم له أندريه ابتسامة عذبة تشوبها الشفقة على الشاب، أضاف الكسي وقال ارجو المعذرة يا سيدي ولكن لا استطيع البدء بالعمل اليوم! هل استطيع أن ابدأ من الغد، سأخبر عائلتي سيفرحون كثيرًا شكرًا يا سيدي على كرمك واعدك أن اعمل بجد وأكون عند حسن ظنك بي، أجابه أندريه لا تشكرني أيها الشاب فأنا كذلك احتاج إلى شخص طيب مثلك ليدير المحل، أوه، فعلًا إذا يمكنك الذهاب وإخبار والديك عن بداية عملك معي في أي وقت تحب وسأعطيك روبل ونصف الروبل بعملك لستة ساعات فقط هل هذا جيد بني؟، بالإضافة إلى هذا سأزودك بأرغفة الخبز التي تكفيكم في اليوم ومن دون مقابل، أجابه ألكسي حسنًا يا سيدي ولكن هذا كثير جِدًّا مقابل عمل ستة ساعات، قال أندريه لا تقلق أيها الشاب لن تقاوم خلال هذه الساعات الستة سأنهك قواك خلالها هه هه، ضحك

ألكسي على مزاح صاحب المتجر الطيب وأضاف أندريه اذهب الآن وتعال غدًا في الساعة الثانية عشرة من الظهر ستبدأ العمل وينتهي وقتك في الساعة السادسة من المساء وهذا شيء دائم في كل يوم وسأمنحك استراحة يوم كامل من كل أسبوع إن احتجت إلى ذلك وخلاف هذا لا أعطيك هل كل شيء واضح إليك، أجابه ألكسي حسنًا سيدي لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام سأفعل ماتطلبه مني وأطبّق كلامك بدقة متناهية، قال أندريه يبدو عليك أيها الشاب بأنك مثقف هذا ما يمكنني أن ألمحه في شخصيتك، على كل حال اسمي هو أندريه، أضاف وأردف أندريه حسناً إذا يا ألكسي ميخائيلوفتش هذا هو اسمك هل هو صحيح أم إنني لم أسمعه منك جيداً؟ أجابه ألكسي أجل سيدي هذا هو اسمي، قال أندريه جيد يمكنك الذهاب الآن عزيزي ولا تنسى وقتك.. الثانية عشرة، أجابه ألكسي تماماً كما أخبرتني سأحظر في الوقت المحدد، إلى اللقاء سيدي، استدار ألكسي وهم بالخروج إلى الشارع وقبل أن يبادر بفتح باب المحل استوقفه أندريه وقال له مهلاً ألكسي انتظر لحظة واحدة عد إلى هنا أريد أن أعطيك شيئاً عاد ألكسي أدراجه وقف أمام أندريه منتظراً وهو يحدق إليه ليرى ما يريد أندريه فعله، قام أندريه بفتح كيس ورقي بني اللون ووضع فيه قطعتان كبيرتان من الرغيف المزين وأعطاه إلى ألكسي وقال له إنها من أجل شقيقتك، أبلغها تحياتي، مد أندريه يده وأعطى الكيس إلى ألكسي، تناول ألكسي الكيس بيده وقال شكراً لك،

شكر ألكسي أندريه على سخائه ومن ثم استدار نحو الباب وخرج بعد أن صفق الباب بلطف وهو مذهول تماماً موجهاً بنظره نحو الكيس الذي يحمله وهنالك شيء ما داخله يرفض هذا ما فعله وما أقدم عليه شعر بأنه

يبدو عليه الخنوع والوضاعة وهو يفكر ما يمكن أن يتصوره عنه صاحب المحل وما سيقول داخله شعر بأنه أصبح شخصاً حقيراً ومستضعفاً أمامه وشعر بالمهانة وكذلك بعجزه عن فعل أي شيء أمام هذا الموقف الذي يحمل كم من الخسة بالنسبة إليه،

هذا ما شعر به ألكسي وهو يهم بالخروج من الباب هنالك أصوات داخل رأسه تكلمه ولكن بعد فوات الأوان كان لا بد لها أن تكلمه هذه الأصوات قبل أن يقدم على أي فعل، كان ألكسي لديه من الخصال ما لا يمتلكه أحد في هذا العالم وهذه هي أحد الخصال التي لديه ولكن لا تأتيه إلا بعد أن يمضي وقت على اتخاذ القرار وحسم الأمر إنها حكمة ولكن لو كانت تعمل بوقتها ولكن لا سبيل بعد الآن بعد أن أقدم عليه ألكسي، قفل الكسي راجعاً إلى المنزل وهو في حالة مزدوجة بين السعادة والحزن شعر بالسعادة لأنه أخيرا وجد عمل يمكن أن يوفر من خلاله لقمة العيش التي يحتاجونها وفي نفس الوقت هو حزين لشعوره بالخسة والدناءة والعجز والخضوع أمام صاحب المحل الطيب أن أندريه طيب شخص طيب جدا على أية حال ولكن لم يستطيع الكسي تقبل هذا الأمر بأخذ شيء دون مقابل،

استمر الكسي في التفكير داخل رأسه المليء بالأفكار المشتتة وهو في طريقه للمنزل وتساءل عن الشخص الذي كان يعمل لدى أندريه سابقاً، ولماذا ترك العمل وقرر الكس ي أن يسأله عن هذا الأمر غداً،

وصل الكسي إلى باب العمارة وتغمره بهجة وجذل لم يسبق له أن شعر بها في يوم ما من حياته البائسة، وأثناء دخوله باب العمارة فكر في قراره نفسه وقال سأبهج أمي وشقيقتي بهذا النبأ السار يا الهي كم أنا مسرور،

وصل الكسي إلى باب القبو ووجدها مغلقة من الداخل ثم تحدث إلى نفسه لا يزال الوقت مبكراً، يبدو انهم يغطون في نوم عميق في هذا الوقت، ولكن يا ترى من غلق الباب خلفي؟ لا بد إنها أمي، عند خروج الكسي صباحاً ومبكراً تركهم وهم غارقين في نوم عميق، طرق الكسي الباب مرتين متتاليتين وبقوة لكي يوقظهم وبعد مرور نصف دقيقة من وقوفه رفع خطاف الباب من الداخل وفتح الباب من قبل كرستيانا وقفت على خشبة باب القبو بعينين مغمضتين والنوم يبدو على وجهها تكلمت بتثاقل وهي تتثاءب رافعة يدها على فمها الذي فتح واسعاً وأعادت وأطبقته مرة أخرى يبدو إنها لا تزال تشعر بالنعاس يبدو إنها لم تأخذ قسطاً كافياً من النوم ليلة البارحة، بعد أن أطبقت فمها قالت أهلا بك بني أين ذهبت بهذا الوقت المبكر من الصباح؟ لقد كنت مستيقظة وعندما خرجت أقفلت الباب خلفك، ادخل يا بني لماذا تحدق نحوي هكذا وتقف متسمراً ويبدو على محياك الحيرة؟ نظرت كرستيان لوجه ألكسي وانتابها القلق حتى ذهب النوم من عينيها تماما كأنها لم تكن نائمة أبدا وأخذت تتكلم بشيء من السرعة بعد أن أصابتها نوبة من الهلع وقالت تكلم بني هل أصابك أذى؟ أجب عزيزي، ما هذا الكيس الذي تحمله؟، نظر ألكسي إلى عيني والدته من غير أن يتكلم وابتسم ابتسامة جعلت قلب كرستيان يطمئن ولف ذراعيه حول رقبتها وعانقها وهمس بجانب أذنها بكلام ذي نبرة منخفضة بعض الشيء وقال لها لا تقلقي أمي لم يحدث شيء، هيا كفانا وقوفا أمام الباب فلنهم للداخل وسأخبرك بكل شيء،

جلست كرستيان وولدها ألكسي حول الطاولة بعد أن وضع ألكسي كيس الرغيف على الطاولة وبدورها نادت كرستيان على زاريتا التي

كانت نائمة في فراشها وقالت زاريتا استيقظي من نومك يا حبيبتي، خرجت زاريتا بلباس النوم ومشت نحوهما بخطى بطيئة ومترنحة تضع يدها على فمها وهي تتثاءب، نظر ألكسي إلى شقيقته وقال لها تعالي يا صغيرتي واجلسي بجانبي تعود ألكسي أن ينادي شقيقته بالصغيرة بينما لا يعجب زاريتا ما يناديه بها شقيقها فتمتعض منه وتشيح بوجهها عنه حتى يضطر ألكسي إلى مصالحتها ولكن هذه المرة يبدو عليها الخمول اذ لم تعر ما قاله شقيقها أي اهتمام، جلست زاريتا بجانب شقيقها وهي مطأطئة الرأس وشبه نائمة، بدأ ألكسي بالحديث بعد أن استيقظت شقيقته وجلسوا مجتمعين حول الطاولة باستثناء ميخائيل الذي كان يغط بنوم عميق في سريره كالأموات منذ ليلة البارحة جاء بوقت متأخر بعد منتصف الليل، قال ألكسي سأخبركم خبراً مفرحاً جدا، منذ مدة وأنا أخرج كل يوم من البيت صباحا لأبحث عن عمل دون أن أخبركم بذلك، والآن بعد بحثي الطويل وجدت أخيرا العمل المناسب الذي بحثت عنه طويلا عمل في محل قريب من هنا في محل لبيع الخبز يبعد جادة واحدة من هنا وسأبدأ العمل من يوم غد وهذا الكيس يحتوي على رغيفين ساخنين من الخبز قدمها لي صاحب المحل يبدو على صاحب المحل السخاء وتعامل معي بلطف كبير وسيعطيني روبل ونصف الروبل بعمل ست ساعات فقط انه شيء رائع فعلا إلا تظنون ذلك؟ سأذهب غدا في تمام الساعة الثانية عشرة من الظهر وانتهي في السادسة مساء، لن نحتاج إلى أي شيء بعد الآن،

فرغ الكسي حواره وهو ينظر إليهما والجذل يبدو على تعابير وجهه إما كرستيانا وزاريتا لم يصدقا ما سمعاه للتو ومن فرط فرح كرستيانا وثبت على قدميها واتجهت نحو ولدها وبدأت تقبل رأسه وبكت بكاء الفرح

وهي تقول حمدا لله، لا اصدق ما اسمعه هل هذا صحيح يا بني؟ آوه! كنت اعلم بأنك منقذنا من البداية شكرا لك عزيزي ليحميك الرب، قال الكسي وأجابها نعم يا امي هذا ما حدث بالفعل، كل شيء سيكون على ما يرام هذا ما تقوليه لنا دائما، ردت كرستيانا وقالت أجل أجل يا بني كل شيء سيكون على ما يرام فعلا هذا ما أردده دائما، في صباح اليوم التالي استيقظ الكسي وهو مفعم بالحيوية والنشاط والجذل الشديد، نام الكسي وهو يشعر بالسعادة واستيقظ وهو على نفس حالته، ارتدى الكسي ثياب نظيفة وحين بلوغ الساعة الحادية عشرة والنصف هم بالانصراف توجه نحو الباب بعد أن ودع والدته وقال لها تمني لي الحظ الجيد أمي، سأنصرف الآن لا تقلقوا بشأني أبدا سأكون بخير، إلى اللقاء، تناول معطفه وقبعته من جانب الباب وخرج متوجها نحو عمله الجديد بنشاط، وصل ألكسي إلى محل الخبز سيرا على الأقدام ودخل المحل وألقى التحية على أندريه صاحب المحل وعلي ثغره ابتسامة تنم عن خجله الشديد، توجه نحو أندريه وقال له هل جئت بالموعد المحدد يا سيدي؟، بدأ أندريه بالحديث وهو منهمك في تحضير عجين الخبز بمهارة وقال آوه، نعم أهلا بك أيها الشاب لقد جئت بالموعد المحدد كما اتفقنا، تعال الآن راقبني وتعلم بدأ أندريه يخبر ألكسي ويعدد له أصناف وأنواع المخبوزات وكيفية تحضيرها و صنع كل نوع منها، ظل ألكسي منتبهاً إلى رئيس عمله الجديد بحرص وانتباه على أن لا تفوته أي من المعلومات التي ذكرها له أندريه، مرت ما يقارب ساعة كاملة وهو يشرح له طريقة تحضير مكونات العجين بصورة صحيحة، وحين فرغ أندريه من تحضير العجين وتركه ليختمر راقب ألكسي بعينين متفحصتين وقال له والآن يا بني تعال واجلس سنتحدث قليلاً ريثما يجهز العجين، اجلس هنا،

أشار إلى كرسي مستدير خشبي كالذي يضعوه في الحانات جلس ألكسي وظل صامتاً لمدة دقيقة كاملة بعد ذلك تكلم أندريه وقال ستساعدني مبدئياً ولكن بعد ذلك ستتعلم بشكل جيد كيف تصنع الخبز وتصبح خبازاً ماهراً، سأتركك بمفردك بين الحين والأخر لأعمال تشغلني عن المحل وستبقى بمفردك هنا، سأعلمك كيف تبيع و أخبرك بالأسعار وأيضا كيف تتعامل مع الزبائن بالشكل الصحيح، يبدو أن هذا أول عمل تعمله في حياتك أليس كذلك؟، أجابه ألكسي كلا يا سيدي ليس أول مرة عملت لي ما مضى لدى سيدة محترمة صديقة من صديقات والدتي المقربات ومن زبائنها الخاصين إنها آنسه شابة وغنية جداً وعائلتها من الطبقة البرجوازية يقيمون في مدينة سالخارد عملت في قصرهم لمدة أربعة شهور كاملة وعدت إلى سانت بطرسبرغ بسبب مدرستي الداخلية حينما بدأ موسم الدراسة واضطررت إلى ترك العمل لديهم، هذا كل شيء يا سيدي، أصغى أندريه إلى كل كلمة تفوه بها ألكسي وبدأ بالحديث هم، هذا جيد يا بني ولكن أصغي إلي أن عمل السابق ليس كعملك الآن أنت الآن على أبواب أن تمتهن مهنة جيدة وإن تعلمتها وأتقنتها بصورة صحيحة يمكنك حينها في المستقبل أن تعمل لوحدك وتأسس عمل خاص بك، أجابه ألكسي أجل سيدي هذا ما أنوي فعله بالتأكيد،

انهى أندريه حديثه وقال والان بعد أن انتهيت من إيضاح كل شيء خاص بطبيعة عملنا يمكنك أن تسألني عن أي شيء يخطر في ذهنك وسأجيبك حتماً تكلم الكسي في قراره نفسه وقال هذه فرصتي سأسأله عن الشاب الذي كان يعمل لديه سابقاً ولماذا ترك العمل بشكل مفاجأ،

نظر الكسي الى أندريه وقال له هل يمكنني يا سيدي أن أسألك ولكن

ارجو أن تعذر فضولي الشديد اود ان اسأل عن سبب ترك الشاب الذي كان يعمل معك سابقاً في المحل للعمل فجأة؟ جعلني هذا الأمر في حيرة من امري عندما أخبرتني عنه البارحة اغفر لي تطفلي ولكن لم اعد اصبر اكثر، أجابه أندريه وهو يبتسم آوه، بالتأكيد سأخبرك بني، أتذكر عندما أخبرتك بأني ابحث عن شخص أمين لكي يعمل معي في المحل؟، أجابه الكسي اجل اذكر ذلك، اردف أندريه وقال لقد كان شخصاً غير أمين لقد سرق المحل وهرب عندما تركته بمفرده داخل المحل هذا كل ما في الأمر، ولكن لماذا يشغل بالك هذا الشيء ما يهم الأن انك شخص أمين هذا يبدو عليك، لا تهتم لأمره اتفقنا، أجابه الكسي وبدا عليه الحزن لأنه تذكر ما اقدم عليه من سرقة في الماضي اتفقنا لا تقلق يا سيدي سأكون عند حسن ظنك بي، ....يتبع

الفصل الثاني عشر

بعد مرور ثلاثة أعوام...

استمر ألكسي بالعمل لدى بائع الخبز أندريه لمدة ثلاثة أعوام متتالية تمكن ألكسي خلال هذه الأعوام من سداد بعض الديون التي تراكمت بسبب حالة الجنون التي أصابت والده،

والان استنفدوا جميع الموارد المتوفرة لديهم لدخول ميخائيل في الأسقام التي لم تعد تنفك منه لكبره في السن أصبح عجوزاً كهلا وتراكمت عليه الأمراض مرضا تلو الاخر نتيجة لإفراطه في تناول الخمر والمشروبات المسكرة خلال السنين المنصرمة منذ أن أحيل إلى تقاعده ولغاية هذه اللحظة الراهنة أصبح ميخائيل طريح الفراش منذ فترة طويلة وأخذ الطبيب بالتردد عليهم بشكل مستمر وبين الحين والأخر لسوء حالته الصحية تكفل ألكسي بجلب الطبيب بين الفينة والأخرى وأخذت فترات علاجه تزداد يوماً إثر يوم وبذلك كثرت تكاليف الطبيب وقصارى القول كانت بعودتهم إلى ما كانوا عليه سابقاً من سغب وفقر مدقع وفاقة لم يعد عمل ألكسي مع بائع الخبز يسد رمقهم لكثرة متطلبات المعيشة بعد أن تقدموا في السن وبشكل خاص شقيقته زاريتا أصبحت الآن شابة يافعة يبلغ عمرها تسعة عشر عاماً في كل عام يمر عليها تزداد فيها متطلباتها من ثياب وأغراض وأمور أخرى غير ذلك وكذلك ألكسي الذي لم يعد يكفيه

ما يتقاضاه من المال، لقد وعده أندريه أن يعلمه هذه المهنة بحذق ومهارة وهذا ما حصل بالفعل، تعلم ألكسي هذه المهنة على أكمل وجه خلال عمله طيلة هذه المدة ولكن للأسف الشديد فهو لا يملك من المال الذي يكفي لافتتاح محله الخاص به فهذه المهنة تتطلب رأس مال كبير لكي يتمكن بعد ذلك من أن يطور عمله ويحقق من خلاله أرباح كبيرة، هذا ما لم يتمكن ألكسي من بلوغه والوصول إليه، وقام بطرد هذه الفكرة من رأسه ومن غير رجعة مطلقاً، جرت الأيام بلياليها بصعوبة ومعاناة لم يسبق لهم أن مروا بها خلال حياتهم البائسة أبدا،

وفي يوم من الأيام التي اشتد بها مرض ميخائيل الذي بلغ ذروته، كان ألكسي يجلس بجانب سرير والده وهو طريح الفراش ويعاني من فرط الألم الذي ينتابه وأضنى جسده وأيقظ مضجعه،

اصبح ميخائيل نحيلاً نحول الموت لا يستطيع تحريك يديه وقدميه ووجهه شاحب كالأشباح وهو اقرب للموت منه إلى الحياة، نظر ميخائيل وهو بسريره نحو ولده الذي يجلس بجانب سريره تحدث اليه وهو يتلوى من فرط الألم الذي يشعر به الأن وقال له كيف حالك بني؟ هل ذهبت إلى عملك اليوم؟، أجابه الكسي وهو يشعر بالحزن الشديد على والده الرابض على فراشه وهو أشبه بالإنسان المحتضر اجل يا أبي ذهبت وعدت مبكراً من أجلك بعد أن أخذت الإذن من صاحب المحل، قال له ميخائيل لقد أصبحت كبيراً بما يكفي يا عزيزي لتعتمد على نفسك، لن اقلق عليك بعد رحيلي، ولكن عليك أن تحرص على شقيقتك الصغيرة ووالدتك، فأنا لم يتبق لي الكثير لأعيشه في هذه الحياة، لا بد أن تعلم يا صغيري اليوشا شيئاً واحداً فأنا لطالما أحببتك أنت وزاريتا تذكر هذا دائماً، توقف ميخائيل

لفترة قصيرة ماسكاً بطنه وهو يتلوى من شدة الألم ثم اردف يقول هنالك طلب اطلبه منكم جميعاً أرجوكم لا تأسفوا على موتي ولا تأسوا ولا تبكوا حين رحيلي أبدا لأنني لا استحق دموعكم التي تذرفونها لأن دموعكم غالية وانا إنسان حقير وماجن سكير لا استحق الثناء،

نظر ألكسي نحو والده واغرورقت عينيه بالدموع بشكل لا إرادي لم يتمكن من حبس دموعه، حاول إخفاء وجهه بين يديه ولكن دموعه فضحته بعد فوات الأوان بعد ذلك بادر بسحب يد والده وأخذ يقبلها بقوة وحزن وأجهش بالبكاء حتى سمعت كرستيان وزاريتا بكاء ألكسي فبكوا معه على حالة ميخائيل، هدأ ألكسي قليلاً وقال لوالده لن يحدث لك أي شيء لا تقل هذا أبدا، نحن نحبك كثيراً، سأخرج من الآن فصاعداً وابحث عن عمل أفضل من السابق لأحصل على المال الكثير، أكثر مما كنت أتقاضاه في عملي هذا لاتقلق أبدا وسأجلب لك الطبيب ليقدم لك الدواء اللازم لكي تتحسن حالتك الصحية وتتعافى كلياً ويزول سقمك بشكل نهائي، رد ميخائيل على حديث ألكسي بصعوبة وقال لقد فات الأوان على هذا الآن يا عزيزي، وأما بالنسبة لعملك فستتركه قريباً لحين كتابة طلب إلى قائد المعسكر الذي كنت أعمل فيه في قرية سسترورتسك وسيوافقون لا مناص في ذلك يا عزيزي،

سأرسل لهم طلب توظيفك في المعسكر وسيوافقون بالتأكيد وستعمل هناك فهنالك يحتاجون إلى أعداد كبيرة من الموظفين وستتقاضى أجرا لا بأس به ولن تحتاجوا إلى أي شيء بعد الآن ستدفعون أجرة السكن ولن تجرؤ العجوز الشمطاء على القدوم مرة أخرى والمطالبة بالمال، سأكون سعيداً أن فارقت مارغريتا الحياة إذا بليت من مرضي إما إذا رحلت فلن أدعها وشأنها في السماء سأستقبلها بأقذع الشتائم حتى وأنا فوق في

السماء وسأخبر الله بأنها عجوز شمطاء لا ترحم وهي بخيلة جداً سأجعلها تتعذب بسببي وانظر لها ولا تأخذني بها شفقة ولن أعفو عنها، عندما يسألني الله هل تعفو عنها سأرفض بشدة وأقول له إنها جعلتني أتعذب أنا وعائلتي في الأرض أذن لتتعذب في السماء، هذا ما سأقوله للرب حين أراه ثق بي يا صغيري، تحدث ميخائيل كثيراً وأخذ يتنفس الهواء بصعوبة كأنه جرى لمسافة طويلة وواصل حديثه وقال والآن يا بني هل لديك ورقة وقلم؟ ينبغي أن نشرع في كتابة الطلب الآن بالسرعة الممكنة لا مزيد من تضييع الوقت أحظر الورقة الآن واكتب ما أمليه عليك هيا يا صغيري انهض الآن، أجابه ألكسي وقال ماذا سأفعل هناك يا أبي؟ لا أعرف أحد وكيف سأترككم واذهب لمدة طويلة؟ لا أستطيع هذا أنا اسف جداً رد عليه ميخائيل والضعف اخذ منه كل مأخذ لا تقلق يا الكسي ستتركهم كما فعلت أنا، لقد تركتكم لأيام طوال،

تستطيع ذلك ولا تخف على والدتك وشقيقتك، كرستيانا هي التي قامت بتربيتكم بمفردها ولم تطلب مساعدة احد أبدا، لا تقلق أعدك بأنه لن يصيبهم أي مكروه، وتذكر دائماً بني ما دمت تملك وتجني المال فلن تواجه المشاكل قط ولا يصيبك متاعب في هذه الحياة أبدا ولن تدخل أي نقاشات كانت ستحل جميع مشاكلك بشرط أن تملك المال، المال يحل جميع المشاكل يا بني،

هيا الكسي لا تجعلني في شقاء نفّذ ما أخبرتك به واكتب الطلب وأرسله بيد داكوتا صباحاً بواسطة البريد، نهض الكسي ليجلب بعض الأوراق القديمة التي كان يحتفظ بها عندما كان صغيراً أعطتها له كرستيانا ومحبرة وريشة اشتراها مؤخراً من بضعة أيام خلت،

جلس الكسي بجانب السرير ينقل بنظره بين والده وبين والدته وشقيقته، رفع ميخائيل رأسه للأعلى قليلاً ليتمكن من التحدث بشكل افضل وصوت أوضح وقال اكتب يا بني ما أقوله لك،

((معسكر سسترورتسك حضرة الجنرال الموقرة، الموضوع طلب، ارجو من حضراتكم الموافقة على طلب توظيف ابني البالغ من العمر واحد وعشرون عاماً وذلك لأحالتي مبكراً إلى التقاعد ودخولي في حالة مرضية ولا استطيع أن أعيل عائلتي بعد الأن، أرجو أن تأخذوا طلبي بعين الاعتبار والرأفة تحياتي الرقيب المتقاعد ميخائيلوفتش))،

انهى ميخائيل رسالته وقال لولده الكسي اطوي الورقة بعناية واحرص على أن لا تمزقها وسلمها إلى داكوتا ليرسلها بواسطة البريد صباحاً، أعدك يا بني أنهم سيأخذون بطلبي أنا أثق بذلك كل الثقة ويمكنك أن تستعد لهذه الوظيفة من الآن لوجود نقص في الأعداد داخل المعسكر، سيجيبون على طلبي فور استلامه ستصبح عسكرياً وسيماً ويحتذى بك، أنك شاب ذكي وحاذق سيعتمدون عليك في كل شيء هذا ما يمكنني أن أراه في مستقبلك، أن الله يحبك وسيكافئك على فضيلتك، والآن يمكنك الذهاب، بعد أن فرغ ميخائيل من حديثه وثب ألكسي على قدميه وتوجه إلى حارس العمارة داكوتا العجوز وسلمه الرسالة واخرج من جيب معطفه خمسة عشر كوبيك وقال مساء الخير عمي لقد بعثني والدي إليك لأعطيك هذه الرسالة لترسلها بواسطة البريد وهي جاهزة تماماً مع هذه النقود، أرجو أن تغفر لي إزعاجي لك يا عم في مثل هذا الوقت المتأخر ولكن والدي أصر على توصيلها صباحاً وبالسرعة الممكنة، اخذ داكوتا الطلب بيده وكذلك المال وأخفاهما في جيب معطفه النظيف وقال له لا تهتم يا

بني سأفعل كما طلب والدك تماماً، سأسلم الرسالة في البريد صباح غد لا تقلق أن ميخائيل صديقي وأنا أحبه كثيراً وامحضه الود، آوه كدت أن أنسى! كيف حاله الآن؟ هل شفي من مرضه أم لا يزال يعاني منه؟ أجابه ألكسي والأسى يبدو على وجهه كلا يا عم لم يتحسن البتة وحالته تزداد سوءاً يوماً إثر يوم،

قال داكوتا ليرأف بحاله الرب، والدك لا يستحق هذا العناء أبدا، رد ألكسي وقال شكراً لك، سأعود للداخل الآن عمت مَسَاءً، أجابه داكوتا عمت مَسَاءً بني، في صباح اليوم التالي حدث ما لم يكن في الحسبان، استيقظت كرستيان صباحاً من نومها وبعد ذلك نادت على ميخائيل لكي يستيقظ أيضا ولكنها لم تحظى بإجابة نادت عليه مرات عديدة ثم جرت نحوه وأصابتها نوبة من الهلع لعدم رده عليها لامست يديها صدره البارد وهزت جسده لكي يستيقظ وهي تنادي باسمه وتقول ميخائيل ... ميخائيل ولكن ربما لا حياة فيه شرعت بالبكاء وهي تصرخ على ولدها ألكسي الذي استيقظ من نومه على بكاء والدته بفزع شديد لا يعلم ماذا يحدث حوله ومن ثم استيقظت زاريتا على صراخ والدتها عند مناداتها لألكسي، تحلقوا جميعاً حول سرير ميخائيل وبكوا عليه مجتمعين وكرستيان تبكي وتردد يا إلهي! لقد فارق الحياة! لقد رحل والدكما، أقاموا جنازة لميخائيل بعد أن وارى ألكسي جثة أبيه، حضر الجنازة عدد قليل من أصدقائه ومن سكان العمارة أيضا، تحمل ألكسي جميع تكاليف الجنازة بما تبقى لديه من مال مدخر من عمله مع بائع الخبز أعطى قسم منها لوالدته لتعد وليمة طعام بسيطة وليمة عزاء زوجها المتوفى، لقد انتهى كل شيء إلى هنا وانتهت حياة ميخائيل ولم يعد له وجود في هذه الحياة بعد الآن ربما فقط في الذاكرة،

تأثر ألكسي لموت والده أشد التأثير أصبح حزيناً جداً منذ يوم رحيل والده ومفارقته وكثير التفكير،

لم يكن يتوقع أن رحيل والده عنه سيحدث كل هذه الفجوة الحزينة داخل حياته، وفي كل مرة تراوده فكرة الفراق وابتعاده عن عائلته ولأي سبب كان من الأسباب يقوم بطرد هذه الأفكار من داخل رأسه ولا يتقبل أن تقبع هذه الأفكار داخل عقله ويعتبرها من جراء تفكيره السوداوي وكوابيسه الموحشة التي تنتابه خلال نومه وصحوته وفي بعض الأحيان يردد ألكسي في قراره نفسه ويقول أتمنى لو لم أوجد ولم أخلق من الأصل في هذه الحياة التعيسة،

أو ربما إذا خلقت لكان من الأفضل ألا تكون لدي عائلة أحبهم ويحبوني لكان هذا أفضل بكثير، كان ألكسي يتمنى في هذه الحياة لو أنه لم يخلق من الأساس لأنه إذا خلق في هذه الحياة معنى هذا انه لا بد أن تكون له عائلة سيحب هذه العائلة وكذلك هم يحبونه وان رحل احد الطرفين ويفارق كل منهم الآخر فهذه هي المصيبة الكبرى لديه لا يريد أن يأسى عليه احد ويصيبه الكمد ويتحرق شوقاً عند رحيله من هذه الحياة لا يريد أن يبكي عليه احد ولا يريد أن يبكي هو على احد تمنى دوماً لو انه كان وحيداً بمفرده في هذه الحياة لا يوجد أي من الكائنات لكي تحزن عليه أو يحزن عليها أراد أن يبقى وحيداً بمعنى الكلمة هذا ما كان يتمناه ولا شيء غير ذلك .... يتبع

الفصل الثالث عشر

قرية سسترورتسك

معسكر سسترورتسك

بعد مرور أسبوعين...

جاء الرد على رسالة ميخائيل بعد مرور أسبوعين على مفارقته للحياة عاش ألكسي أسوأ أيام حياته التي مرت عليه، قضى خلالها البؤس والتعاسة والوجوم الشديد مع والدته وشقيقته لفراق ميخائيل وبلغ بهم الحزن ذروته، إما اليوم استلم ألكسي الرد على رسالة ميخائيل الذي جاء عبر البريد أيضا، لم يجازف ألكسي ويحسم أمره بعد ولهذه اللحظة بفض الرسالة وقراءة محتواها لأنه كان يرفض فكرة توظيفه ولم يحبذها البتة فالالتحاق بالوظيفة يعني أنه سيترك عائلته لأيام طويلة وخاصة بعد رحيل والده فمن سيعتني بوالدته وشقيقته شعر بأنه أصبح وحيداً في هذه الحياة، لم يتقبل ألكسي فكرة التحاقه بهذه الوظيفة في المستقبل ولكنه في نهاية المطاف لا بد له من أن يعيد حساباته بشأن هذا الأمر فما من معيل لعائلته بعد الآن بالرغم من الحالة التي كان عليها ميخائيل في إفراطه في الشرب والأمور الأخرى ووصوله الى حالته المزرية مؤخراً وقبل نهاية حياته إلا أن عائلته كانت تعتمد عليه نفسياً لأنه رب الأسرة حتى بعد أن أحيل إلى

التقاعد المبكر ولكن ما أضنى عائلته هي حالته التي وصل إليها حينها لقد مكث أكثر وقته داخل الحانات ورجوعه متأخراً بعد منتصف الليل وكان يصرف جميع مستحقات تقاعده على الشراب ولا يعطي أي شيء منه إلى زوجته وأولاده الذين كانوا حينها يعيشون في فقر مدقع ولا يجدون شيء ليأكلوه من طعام، لقد مرت سنوات طويلة وهو لا يزال على حالته بأيامها ولياليها البائسة ولكن الآن انتهى كل شيء ولم يبق ميخائيل على قيد الحياة وانتهت حالته وماتت بموته هو ولم يعد لها وجود من الأساس، وفي هذا اليوم تمكن ألكسي من إجبار ذاته على فض الرسالة ومعرفة محتواها بغض النظر عن كون الرسالة تجيب بالرفض أول القبول لم يكن يعير هذا الشيء اهتمام سيان عنده أن حصل على الوظيفة أو لم يحصل عليها لا يبالي بذلك أبدا ولكن الآن لابد من ذلك ينبغي عليه أن يحترم قرار والده وأن يعمل بما أوصاه به، قاوم ألكسي رغبته ولكن في نهاية الأمر فض الرسالة وبدأ يقرأها بعينيه من غير أن يصدر صوت،

تفاجأ ألكسي باقتضاب محتوى الرسالة بكلمات قليلة غير إنها مفهومة ولا تثير الحفيظة، كتب في متن الرسالة

((الحضور الأسبوع القادم هنالك وجبة من المنخرطين، جنرال المعسكر))، لم تتعدى الرسالة السطرين في حين تفاجأ الكسي من ردهم المقتضب ربما لاحترازات أمنية أو شيء من هذا القبيل، لم يكن ليتصور قبولهم لطلب والده أو بالأحرى لم يصدق كلامه وظن بأن والده في حالة من الهذيان نتيجة سقمه، والان اصبح كل شيء حقيقة جلية لا يمكنه أن يدحضها أو يفندها ولا بد له من تقبلها بجميع مساوئها ومخاوفها ربما ما يمنعه من الذهاب هو الخوف بحد ذاته اصبح كل شيء بالنسبة اليه أشبه

بالكابوس المرعب ويريد أن يستيقظ منه بشتى الطرق والوسائل ولكن وجده بأنه ليس كابوس بل هو الواقع المرير، طوى الكسي الرسالة وهو غارق في تأملاته وأفكاره وبدأ يردد في نفسه الأسبوع القادم! يا للهول! ماذا أن علموا بموت والدي بماذا سأخبرهم يا ترى؟ هذا لا يهم لن يبالي أحد بذلك، والان ماذا سأفعل بعد رحيل والدي، من سيقدم لي النصح بعد الآن؟

من الآن فصاعداً سأعتمد على نفسي، لدي عائلتي ولا بد لي من المحافظة عليهم، سأذهب هناك وأحقق رغبة والدي الأخيرة وليحدث ما يحدث لم أعد صبيا صغيرا بعد الآن قرر ألكسي وبشكل حاسم الذهاب وتحمل كامل المسؤولية التي وقعت على عاتقه والتي ستثقل كاهله لا محالة، مر الأسبوع على ألكسي كلمح البصر أو كارتداد الطرف لم يتمكن من تجهيز أغراضه والاستعداد على أكمل وجه، اقتصر ألكسي على حزم حقيبة صغيرة تحتوي على ملابس وبعض الأغراض الضرورية فقط مرتدياً ثيابه النظيفة والمرتبة، وقف الكسي على خشبة الباب ليودع كرستيان وشقيقته زاريتا تعانق الثلاثة بقوة وحرارة مودعاً لهم كأنه أخر لقاء يحدث بينهما تركهما وهو لا يعلم إلى أين سيأخذه هذا البحر الذي انغمر فيه وإلى أين سيفضي به بعد أن غاص إلى أعماقه وما هي نهايته ومدى عمقه وقراره، ربما سيأخذه إلى المجهول العلم عند الله وحده، استحوذت عليه هذه الأفكار خلال سيره وهو مطرق الرأس للأرض، لم يحمل ألكسي من المال سوى بضع روبلات متبقية من ماله الذي كان يدخره، توقف بمنتصف الطريق لوهلة من الزمن ورفع رأسه المثقل بالأفكار ثم نظر من حوله وجد عربة لحوذي على الطرف الآخر من الشارع نادى عليه بصوت مرتفع وقال له إلى محطة القطار رجاء، جلس

الكسي على مقعد العربة وقلبه يقطر دماً ومثقلاً بالهموم وهو يفكر بوالده طوال الطريق لحين وصوله إلى محطة القطار، وصل إلى محطة القطار واستقل في عربة القطار مقاعد من الدرجة الثالثة لم يشعر بالراحة طوال فترة سفره أخذ التفكير كل عقله وتراكمت عليه الهموم حاول أن يبعثر ويشتت تفكيره وقام بإخراج كتاب من حقيبته أراد أن يقرأ رواية ما لكي يبعد الافكار السلبية عنه وبالفعل استمر يقرأ لمدة طويلة لحين وصوله إلى محطة قطار سسترورتسك نزل من على متن القطار طلب عربة فور نزوله من المحطة لم يكن ينوي أن يضيع دقيقة واحدة حتى يصل في الموعد المحدد في الصباح كما طلب منه في الرسالة، توقفت العربة امام المعسكر اندهش ألكسي من كثرة الأعداد الواقفين والجموع الغفيرة المحتشدة أمام الباحة الخارجية للمعسكر يقفون عند بوابته الخارجية تحت البرد القارس منتظرين أمامها بشكل مجاميع منهمكين في الحديث في ما بينهم كل خمسة أشخاص أو أكثر متجمعين يقبعون في زاوية من زوايا وأركان الباحة الرئيسية تقع هذه الباحة أمام بوابة المعسكر الرئيسية وهي بوابة كبيرة عملاقة مصنوعة من الحديد الثقيل ومطلية بطلاء رمادي اللون وهنالك في أسفل البوابة الكبيرة توجد باب صغيرة تستخدم لمرور الأشخاص من خلالها أسوار المعسكر مرتفعة بشكل مفرط وبنيت بصورة آمنة للغاية وعليها يقبع من كل زاوية من زوايا السور أبراج للحماية والحراسة مبنية بشكل جيد ومتين بداخلها جندي عسكري يضعون على رؤوسهم أغطية من الفراء مرتفعة النهاية لونها أسود ويتسلحون ببنادق طويلة موجهة إلى الأمام والأعلى ومتأهبين وهم بكامل استعدادهم للضغط على الزناد في أي لحظة يشعرون فيها بالتعرض للخطر، كان الثلج ينزل حينها بشكل خفيف والجو دافئ بعض الشيء، قفز

ألكسي من على متن العربة وأعطى للحوذي حسابه من النقود أعطاه مبلغ من المال لم يكن معروفاً ولكن أظن أن هذا أخر ما تبقى لديه، جال ألكسي بعينيه على من حوله متفحصاً الأشخاص والمكان بدقة كبيرة وهو يمحص ويدقق الرؤية على جميع التفاصيل لاحظ أن جميع الواقفين يتلفعون بمعاطفهم ودافنين رؤوسهم فيها على الرغم من أن الطقس دافئ حتى مع نزول الثلج، ولاحظ بأنهم يقفون جميعاً ويضعون حقائبهم بجانبهم على الأرض وتكسوها طبقة من الثلج لا يعلموا كم من الوقت مضى على وقوفهم هنا ولم يبالي أحدهم بمكوثه في هذه الباحة الخربة تحت هبوط الثلج، أيقن ألكسي بأنهم مكثوا هنا لمدة طويلة مما جعلهم يتجمدون في أماكنهم لعدم حركتهم المستمرة ولكن عند تمحيص النظر في وجه كل فرد منهم تجد عليه إمارات التذمر ونفاد الصبر بصورة جلية ربما لم يدقق ألكسي النظر جيداً هذه المرة لتركيزه فقط على المكان والباحة التي يقف بها الآن،

بدأ ألكسي يمحص في وجوه الأشخاص الواقفين ربما يمكنه أن يجد شخصاً ليقف معه ويساعده وأثناء تركيزه على المجاميع استطاع أن يرى من بين هذا الجمع الغفير من الأشخاص شخصا واحدا يجلس وحيداً على جذع شجرة يابس أنه شاب وسيم بعمر الكسي أو يكبره ببضع سنوات اقترب ألكسي منه ولكن من بعيد وجده مطرق الرأس نحو الأرض ربما يفكر في شيء ما مثبتاً رؤيته نحو حقيبته ولكن لا يمحضها الاهتمام أو ربما لا يراها أمامه أنه يفكر في شيء آخر فكره وعقله في مكان آخر تماماً ونسى ذاته على ما يبدو، توجه ألكسي نحو الشاب الجالس وتكلم في قراره نفسه سأستغل فرصة جلوسه وحيداً ويوجد بجانبه مكان

يمكنني الجلوس بجانبه والتحدث إليه لأتمكن من معرفة ماذا يدور هنا، قرر ألكسي الذهاب إليه والدخول في حديث معه وتحين فرصة جلوس الشاب بمفرده لأن ألكسي خجل بطبعه بعض الشيء عندما يتعلق الأمر في الأوساط الاجتماعية وخاصة عند الحديث إلى أشخاص بالكاد يعرفهم ولا تربطه معهم أي معرفة مسبقة، لطالما شعر ألكسي بالخجل في أوساط المجتمع وكان يرجو دائماً أن يكسر هذا الخجل والخوف من الاختلاط ولكن كانت تبوء كل محاولاته بالفشل الذريع، اقترب ألكسي من الشاب بخطى بطيئة، جلس الشاب بالقرب من البوابة الكبيرة للمعسكر على جذع شجرة متيبس مرمى مقطوع من كلا الجهتين بصورة متساوية انقضى زمن طويل وهو ومرمى جانباً بشكل أفقي على الأرض هو مكان مناسب للجلوس والانتظار ربما وضعه الحراس ليصنعوا منه مقعداً للجلوس ومن حسن حظ ألكسي فإن الجذع يكفي لجلوس شخصين فقط، وصل ألكسي بالقرب من الشاب ووقف عند رأسه رفع الشاب رأسه فور رؤيته لقدمين اقتربا منه ووقفت عنده رأى شاب في مثل سنه يحدق إليه بنظرات مرهفة وهي نظرات ألكسي المعهودة ذو العينين الواسعتين الزرقاوين التي لا يزال صفائهما على ما هو عليه كأنه لون السماء، أحدق الشاب داخل عين ألكسي لم يتمكن من بدأ الحديث ولا يعلم ماذا يريد الشاب الواقف فوق رأسه لم ينبس ببنت شفة ربما كأنه انبهر من شدة وسامة ألكسي الذي كان جميل الوجه في صباه والان بعد أن اصبح شاباً كبيراً ولا يزال على نفس جمال وجهه وربما اجمل بكثير وحتى نظافة مظهره الذي يعتني به اشد الاعتناء وثيابه النظيفة التي لا تزال كرستيانا تعتني بها وتنظفها وتخيطها باستمرار حتى بعد أن وصل المسي إلى هذا السن من عمره لم تتوقف

كرستيانا عن الاعتناء بأولادها أبدا، وبشكل مفاجأ بعد أن خفض الشاب رأسه عندما كان موجهاً رؤيته على الكسي سقطت ندف من الثلج على رأس الشاب الذي يجلس على جذع الشجرة وملئ قبعته ومعطفه بالثلج الساقط مما أدى ذلك إلى فزع الشاب بصورة مضحكة لأن ذلك الشيء حدث بشكل غير متوقع، تراجع الكسي نحو الخلف بصورة غير إرادية ورفع الشاب رأسه وهو ينقله بين الأعلى وبين الشاب الذي يقف متسمرا أمامه ويبدو عليه الفزع أيضا حتى أن الشاب الجالس ظن بأن الشاب الذي يقف أمامه الأن هو الذي قام برشقه بندف الثلج بعدما تبين إنها سقطت من اعلى الشجرة التي فوق رأسه مباشرةً، عاد الكسي مرة أخرى أمام الشاب الجالس وبصورة تلقائية ومن غير أن يعلم ماذا فعل مد يده نحو قبعة الشاب الذي يجلس مسكها الكسي بيد واحدة وبدأ ينفض وينظف عنها الثلج باليد الأخرى بعد أن وضع حقيبته جانباً على الأرض، بادر الكسي البدء بالحديث وقال يا للهول ماذا حدث؟

يا الهي من أين سقط هذا الثلج اللعين يبدو إنها سقطت من اعلى الشجرة فهنالك ثلج متراكم فوقها يا لحظك أيها الشاب، خذ نظفتها كلياً لم تعد تحتوي ذرة ثلج مد الكسي غطاء رأس الشاب بعد تنظيفه جيداً من الثلج وتكلم أثناء ذلك بسرعة وهو مرتبك أشد الارتباك وبدوره ينظر إلى أعلى الشجرة التي سقط منها الثلج وبنفس الوقت ينظف غطاء الرأس الذي بين يده،

أن الباحة الخارجية للمعسكر قذرة ومليئة بالخردة والصخور المتراكمة والمبعثرة أيضا وكذلك جذوع الأشجار المقطوعة وقضبان حديدية مرمية في كل مكان هنا وهناك ويمكن ملاحظة أكوام وأكداس من

التراب المخلوط بصخور بين كل مسافة وأخرى وهنالك بعض الصفائح النحاسية متفحمة من خارجها وداخلها ومثقبة ببعض الثقوب ويوجد بداخلها خشب محترق يبدو إنها من فعل الحراس الليليين جعلوا من هذه الصفائح مدفئة يتدفؤون بها أثناء حراساتهم واستطلاعاتهم عندما يحل الليل لوجود أشجار وارفة حول المعسكر ومن كل جهة تقريباً تعدم الرؤية في الليل مما يدعوهم للخروج والاستطلاع والكشف عن المكان ليلاً، بعد أن مد ألكسي قبعة الشاب دعا نفسه إلى الجلوس لعدم دعوته من قبل الشاب قال له هل يمكنني الجلوس بجانبك أيها الشاب؟،

أجابه الشاب بالتأكيد تفضل اجلس هنا بجاني فهذا المكان يتسع لشخصين، تناول ألكسي حقيبته من على الأرض ووضعها بجانب الجذع من الناحية التي سيجلس بها، جلس بجانب الشاب ونظره موجهاً نحو الأمام وبعد صمت لمدة دقيقة واحدة بدأ ألكسي الحديث إلى الشاب وقال له اسمي ألكسي وأنت ما هو اسمك؟، لم يحصل ألكسي على إجابة في بادئ الأمر واقتصر الشاب بالصمت واطرق رأسه إلى الأرض مرة أخرى سارحاً بأفكاره، وضع ألكسي يده أمام عينيه وبدأ يلوح بها أمام وجهه بالكامل لعله يشعر بذلك أنه حالم بالفعل ويبدو أنه يحلم أحلام يقظة، قال ألكسي له أثناء تلويحه هيه أيها الشاب ماذا أصابك؟ أين تذهب بأفكارك، لقد سألتك عن اسمك ولم تسمعني وأخبرتك أنا باسمي أيضاً ذعر الشاب وارتاب وتلعثم بكلماته قليلاً حين نطق بها بعد أن استيقظ من أحلام يقظته وقال آوه أرجو المعذرة أيها الشاب لم أسمع ما قلته لي لقد كنت أفكر أسف جداً أعد ما قلت رجاء، ارتبك الشاب قليلاً وبدأ الكسي يعيد ما قاله للشاب مرة أخرى لا تهتم البتة سألتك عن اسمك فقط لا أكثر وأخبرتك

بأسمى أيضاً، اسمي ألكسي، قال الشاب له آوه، اغفر لي بالفعل، اسمي ميلان وتشرفت بمعرفتك ألكسي رد ألكسي عليه وقال تشرفت بمعرفتك أيضا، واردف الكسي يقول هل لك أن تخبرني كم مكثتم هنا أمام هذه البوابة، أجابه ميلان بنفاذ صبر من جراء مكوثه الطويل وقال أوه بالطبع سأخبرك من ساعتين وربما اكثر من ذلك وانا اجلس هنا على هذا الجذع اللعين وبدأت اشعر بالتعب من الجلوس لقد تجمدنا من البرد ونحن هنا، حتى انه لم يكن هنا هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين يقفون الأن، لم يكن هنالك سوى بضع أشخاص حين وصولي وحتى هذه اللحظة لم يخرج شخص من داخل المعسكر لمقابلتنا، لقد بدأت اشعر بالملل القاتل أن الانتظار شيء ممل بالفعل إلا تظن ذلك يا الكسي؟، رد الكسي عليه بأهتمام أراد أن يكسب حب ميلان اليه قال له بالفعل يا ميلان أن أصعب الأمور وأكثرها مللاً هو الانتظار انه عذاب وخاصة عندما تنتظر شيء ما ولا تعرف ما هو هذا الشيء الذي تتعذب لأجله فيصيبك عذاب الانتظار وعذاب الفضول لمعرفة الشيء، يا إلهى انه عذاب نفسي بعينه، إنني اجزم بأن جميع من في هذه الأرض يمقتون الانتظار وبشدة حتى انهم يبصقون على الأرض التي ينتظرون عليها، هل توافقني الرأي؟،

أجابه ميلان اجل بالتأكيد أوافقك الرأي وبشدة، هذا ما يكون عليه الناس في هذه الأيام، اخذ الكسي يردد في قراره نفسه ويقول يا له من ساذج إنه فعلاً شاب مسكين يبدو عليه أنه يكبرني في السن ولكنه ساذج لا يمكنني الاعتماد عليه وتسليمه أفكاري ولكن ما السبيل لا بد من وجود شخص معي في هذه اللحظات الأولى،

لا أعرف شيئاً عما يدور من حولي وهذا المعسكر يبدو لي أشبه

بالسجون السيبيرية من شكله الخارجي ويظهر أنه بلا حياة من داخله وساكن كسكون الموتى، آه، يا إلهي كيف سأقضي بقية حياتي داخل هذا القفص لا أستطيع أن أتحمل هذا أنه ضرب من الجنون يا إلهي ما هذا الشيء الذي أقدمت على فعله؟ وماذا فعلت في حياتي لكي أتلقى كل هذه الصفعات واحدة تلو الأخرى،

سأعود إلى المنزل الآن لا مناص من هذا سأستقل أول قطار في المحطة وأعود من حيث جئت ولكن ما هو الشيء الذي سأكسبه من هذا؟ لا شيء مطلقاً لا أحد سيهتم لأمري أو يحزن لعودتي وسأعود بلا مال في جيبي، بالتأكيد لن يأتي شخص ما ويطرق بابي ليعطيني المال وأنا اجلس لا أحرك ساكناً! ماذا سأفعل الآن؟ هل أعود أدراجي؟ ماذا سيحدث لي أن عدت إلى المنزل الآن واترك هذه الوظيفة وراء ظهري وأنكث ما وعدت به والدي قبل موته ورحيله؟ كلا! هذا ما لن يحدث أبدا سأمضي قدماً نحو ما كنت أنوي القيام به ولن أخلف وعدي لوالدي ولن أخذل أمي وشقيقتي مهما سألاقي من مصاعب، أسهب ألكسي في الحديث مع ذاته حتى نسي تماماً أنه يجلس بجانب ميلان الذي تعرف عليه وأصبح الآن صديقه الأول في وظيفته الجديدة حتى أنه لم يعد يبالي لوجوده ويتذكره، أن ميلان شاب يبلغ من العمر خمسة وعشرون عاماً يكبر الكسي بثلاثة أعوام فقط ولكن من هيأته يدل على أنه في مثل سن ألكسي تماماً، وهو شاب وسيم بشرته بيضاء مائلة إلى الحمرة شعره أصفر اللون لامع أشبه ما يكون بلون الذهب لديه وجه نحيل وطويل وقده نحيل قامته أقصر بقليل من قامة ألكسي عيناه بنيتين لونهما داكن صغيرتين تقتربان من بعضهما البعض عليهما حاجبين معتدلين بلون شعره وانفه كبير بعض الشيء هنالك شعر خفيف في موقع

شاربه وذقنه اسفل فمه لا يمتلك لحيته الكاملة، يرتدي ميلان قميص بني اللون وعليه كنزة صوفية مع بنطال رمادي اللون ويرتدي حذاء جلدي بني اللون كذلك متلفع بمعطف بني اللون يحتوي على قلنسوة محاطة بفراء ابيض اللون ولكنه لا يستخدمها فكان يفضل غطاء الرأس عليها اما حقيبته فهي من الجلد الأسود ولكنه خفيف مزودة بحمالة يد طويلة يمكن أن يضعها ويحملها على كتفه من دون أي عناء، بدأ ميلان يفكر في قراره نفسه وينظر إلى الكسي الحالم طوال الوقت الذي جلس فيه مع ميلان يسرح بأفكاره ويركز بصره على أشياء مختلفة تارة ينظر إلى الأرض وتارة يوجهه نحو مجموعة من الأشخاص الواقفين وهو شارد الفكر لدقائق طويلة من غير أن يفتح فمه ويتكلم يا الهي ما هذا الشخص! انه غريب الأطوار فعلاً، يسرح بفكره طوال مدة جلوسه بجانبي يبدو انه يعاني من أزمه ما ربما سأكتشف ذلك من خلال حديثي معه، وجه ميلان الحديث إلى الكسي وقال له كيف تمكنت من الحصول على هذه الوظيفة يا الكسي؟،

انتبه الكسي إلى حديث ميلان اليه وأجابه فوراً في الحقيقة كان والدي يعمل سابقاً في هذا المعسكر وقبل وفاته بيوم واحد فقط ارسل طلب برسالة عبر البريد إلى هنا كان والدي يعلم بأن المعسكر في حاجة إلى أعداد لتوظيفها داخله وقال لي ذلك ولم اصدقه لكن هذا ما حصل بالفعل،

طلب بهذه الرسالة توظيفي وجاء الرد قبل أسبوع بموافقتهم على طلب والدي والان أنا هنا اجلس بجانبك أصيب ميلان بالدهشة من حديث الكسي الذي قاله وهو فاغر فاه ومتسع العينين لهذه المصادفة الغريبة عندما فرغ الكسي من حديثه قال له ميلان يا الهي ما هذه المصادفة، كذلك والدي كان يعمل في هذا المعسكر ولكنه أحيل إلى التقاعد ولديه هنا

بعض الأصدقاء المقربين إليه لا زالوا يعملون داخل المعسكر بعث والدي رسائل كثيرة لهم وكلمهم عني استطاعوا أن يتدبروا الأمر وعندما أعلن المعسكر عن حاجته إلى أعداد للتوظيف بعثوا لوالدي رسالة يطلبون فيها حضوري اليوم، فعلاً إنها من المصادفات الغريبة ألا تظن ذلك يا صديقي؟

أجابه ألكسي باقتضاب بالطبع إنها محض صدفة، فكر ألكسي في دخيلة نفسه وقال على ما يبدو كان والدي يعرف والد ميلان لا شك في ذلك، لا تبدو مصادفة أبدا، شعر ميلان بالأسف لوفاة والد ألكسي وقال كيف توفي والدك يا صديقي؟،

أجابه ألكسي وتعابير الحزن تبدو على وجهه لتذكره وفاة أبيه بعد أن حاول أن ينسى ذلك ولكنه لن يتمكن أبدا مات بمرض في كبده، فكر ميلان في نفسه قبل أن يعزيه من الواضح أنه كان يفرط في تناول المشروبات الكحولية يا له من بائس، تكلم ميلان وقال أسف لم أقصد أن أزعجك أبدا بهذا الحديث، رد عليه ألكسي وقال لا داعي لذلك ميلان لم يحدث شيء لا تقلق،

أنهى ألكسي حديثة ثم أضاف كان يعمل في هذا المعسكر مشرفاً على توزيع الطعام ولكنه أحيل مبكراً إلى التقاعد شعر ميلان بالشفقة على صديقه وقال له لا تقلق سأهتم بك يا صديقي ولن أتركك أبدا سأكون عوناً لك سأساعدك وأكون بجانبك في أي وقت تحتاجني فيه رد ألكسي على حديث صديقه وقال، شكراً لك ميلان أنك شخص لطيف جداً، ....يتبع

الفصل الرابـع عشر

في وسط حديثهم وجلبة أصوات المتكلمين من المجموعات التي تقف وأيضا لشدة مللهم بدؤا يصرخون ويضحكون بقهقهات مرتفعة الصوت وصخب عارم خرق هذا الصخب صوت قرقعة مزاليج وأقفال الباب الصغيرة الخاصة بمرور الأشخاص جعلهم هذا الصوت يكتمون أصواتهم وتتحول الضجة إلى صمت مطبق ودخل جميعهم في هدوء وسكون يمكن من جراءه سماع صوت حفيف الأشجار وحتى صوت هبوب الرياح وأثناء سماعهم أصوات مزاليج وأقفال الباب توجهت أنظارهم جميعاً نحو الباب كأنهم بانتظار خروج شبح من خلفه، استمرت قرقعة المزاليج والاقفال بإصدار أصوات من الداخل وبقي جميع الأشخاص الواقفين بانتظار ما سيحدث بعد فتح الباب وفجأة فتح الباب على مصراعيه وهرع من داخله شخصين يرتدون الزي العسكري وبسرعة البرق توجه كل منهما باتجاه أخذ أحدهم الجانب اليمين للباب والأخر توجه إلى ناحية اليسار بمحاذاة الباب وقفوا بصورة مستقيمة ونظامية وبهيئة معتدلة يحملون البنادق وقفوا من دون إصدار أي ضجة تذكر، جعل ذلك من الجميع بالدخول في حالة من الانشداه وعيونهم شاخصة نحو ما يحصل وبعد مضي نصف دقيقة من خروج الشخصين ووقوفهم عند الباب خرج ضابط برتبة ملازم ثاني بزيه العسكري الأنيق يحمل بيده عصا خشبية يمسكها من رأسها بيده اليمنى

ويحمل بيده الأخرى مجموعة من الأوراق المرتبة بعناية يرتدي الضابط على رأسه غطاء من الفراء بني اللون أنه ضابط بهي الطلعة ممشوق القوام بجبهة معتدلة وجسد متناسق وطول قامة اعتيادي رأسه مستدير نحيل اخسف الوجنتين عريض الفك من غير لحية وشاربه مقصوص بشكل خفيف عيناه صغيرتان بنية اللون، ظهر الضابط من خلف الباب الصغيرة وسار بخطوات واسعة ولكن بطيئة بعض الشيء متبختراً بمشية عسكرية اجتاز مسافة ثمان خطوات كأنه عد خطواته عداً مبتعداً عن الباب الذي تركه وراء ظهره ولا يزال الشخصان العسكريان يقفان في مكانهما ولم يتحركا ابدا، توقف الضابط على بقعة معينة من الأرض وبدأ يدير برأسه وينظر إلى مجاميع الأشخاص الواقفين من حوله رأسه يتحرك بينما جسمه ثابت كشجرة مغروسة في الأرض لا تتزحزح أبدا،

بعد هذا بدأ يضرب نهاية طرف العصا من أسفلها بكعب حذائه الجلدي ذو اللون الأسود اللامع كان يوجه رؤيته من جهة اليمين للمجاميع وجهة اليسار كأنه يقوم بإحصاء عددهم وحين انتهى مما كان يفعله رفع العصا موجهاً بها المجاميع وقال بصوت مرتفع تجمعوا هنا أمامي من فضلكم،

أشار الضابط على الموقع الذي حدده بواسطة العصا التي يحملها وبدؤا ينجذبون نحوه من جميع الاتجاهات من دون إصدار أي ضجة وقفوا جميعاً إلى حيث أشار لهم وهم موجهين رؤيتهم نحو الضابط لا يعلمون ماذا سيحدث بعد هذا، أصدرت تحركاتهم أصوات مختلفة ومسموعة بوضوح تام وسط هذا الهدوء كانت أصوات ناتجة عن سيرهم على الثلج وأصوات حمل حقائبهم من على الأرض كلها بدت واضحة وسرعان ما انتهوا من تجمعهم عاد الهدوء مرة ثانية، أحدق الضابط في وجوههم وبدأ

يتكلم مرحباً بكم جميعاً في معسكر سسترورتسك في البداية اقدم لكم نفسي، الملازم الثاني روسيل اعمل كمنسق لدورات تدريب للأشخاص المنخرطين حديثاً في الوظائف العسكرية، سننقلكم الأن جميعاً إلى داخل المعسكر بواسطة عجلات نقل وسنقف عند نقطة التفتيش سنضطر إلى النزول لتفتيشكم وتفتيش حقائبكم بعد ذلك تعودون إلى داخل العجلات من جديد ونستأنف طريقنا لننهي بقية الإجراءات، لا تقلقوا إنها إجراءات مبتذلة اتبعوني الآن إلى الداخل واحداً تلو الآخر، استدار الضابط نحو الخلف متوجهاً نحو الباب الصغيرة التي أغلقت خلفه مباشرة فور خروجه منها وصل قريباً من الباب تفصل بينه وبينها مسافة ثلاثة أقدام وقال إلى الشخصين العسكريين افتح الباب أيها العسكري هرع أحدهم وقام بدفع الباب دخل الضابط ومن بعده دخلت المجموعة بشكل منتظم، أن عدد المجموعة كبير ربما يصل إلى مئة وخمسون شخصاً تقريباً أو أكثر من هذا العدد، تم إعادة إغلاق الباب الصغيرة بأحكام بعد أن ولجوا جميعهم إلى الداخل، أصاب ألكسي الذهول لشكل المعسكر من داخله، لم يكن هنالك شيء يذكر من تفاصيل المكان سوى رؤيته لمسافات شاسعة من الأرض مغطاة بالثلج وحول المعسكر ومن جميع الجهات هنالك أبراج مرتفعة للحراسة والبوابة الكبيرة لدخول العجلات من خلالها التي رآها منذ قليل ولكن يمكن ملاحظة فرق واضح بين المعسكر من الداخل والمعسكر من الخارج فداخله يخلو من الأشجار والأوساخ التي رأيناها خارج المعسكر في الباحة الأمامية، فالأرض داخل المعسكر نظيفة جداً على عكس الباحة التي وقفوا بها منذ قليل فهي مكان خرب ومثير للاشمئزاز، هذا ما تمكن ألكسي من ملاحظته عند دخوله بوابة المعسكر الرئيسية،

كانت هنالك ثلاث عجلات عسكرية تقف أمامهم ذات لون بني يستقلها سائقيها المتأهبين للتحرك فور ركوب الأشخاص على متنها إنها عجلات كبيرة ومخصصة لنقل الأشخاص فقط مغطاة من الخلف بقماش خشن بني اللون لحماية الأشخاص من الطقس المتقلب أثناء سير العجلة أوقفوا العجلات بصورة منتظمة واحدة خلف الأخرى ومحركاتها تهدر بصوت مرتفع جداً توجه الضابط نحو العجلة التي في المقدمة وركب في المقاعد الأمامية التي بجانب السائق بعد أن قال موجهاً كلامه إلى المجموعة هيا بنا اصعدوا جميعكم على متن هذه العجلات أشار الضابط بيده نحو العجلات انقسمت المجموعة إلى ثلاثة أقسام تمكنوا جميعهم من الصعود من غير أي مشاكل بدءاً من العجلة التي في المقدمة إلى العجلة الثالثة في كل مرة تمتلئ عجلة ولايصبح هنالك متسع لصعود حتى شخص واحد يتوجه البقية نحو العجلة التي تليها، بعد أن ركب الجميع ولم يتبق أي أحد منهم وجه الضابط أمر إلى سائقي العجلات بالتحرك فوراً بإشارة واحدة، بدأت العجلات بالتحرك نحو الأمام وازداد صوت هدر محركاتها وظهر دخان أسود اللون من خلف العجلات،

انطلقت العجلات بسرعة ثابتة وتوقفوا بعد أن قطعوا مسافة نصف فرسخ تقريباً عند نقطة التفتيش نزل الضابط من على متن العجلة ونادى بصوت مرتفع على الجميع النزول والاصطفاف على شكل خط مستقيم واحداً تلو الآخر،

أن نقطة التفتيش هي عبارة عن سقيفة هرمية من الأعلى ومجنبة أيضا كلها صنعت من الحديد مطلية بطلاء أبيض اللون يوجد في منتصفها قضيبان من الحديد متوازيان متساويان في الطول ومن جانب القضبان

الحديدية على الجهتين مسافة لمرور العجلات العسكرية، عبرت العجلات العسكرية إلى الناحية الأخرى من نقطة التفتيش لانتظار مجموعة الأشخاص في الناحية الأخرى وقف الضابط معهم أثناء تفتيشهم وتفتيش حقائبهم إلى آخر فرد منهم، عند الانتهاء من تفتيش شخص واحد لا بد له من أن يجلس في مقعده مرة أخرى وينتظر انتهاء الجميع ليستأنفوا طريقهم ثانية، انتهى تفتيش الجميع وركبوا جميعهم العجلات ومن ضمنهم الضابط واستأنفوا طريقهم وبعد أن تحركوا لمسافة قليلة بدأت العجلات بالارتفاع والانخفاض بسبب المطبات المرتفعة والثلج الذي يجعل إطارات العجلة تنزلق وتتجه ذات اليمين وذات الشمال جعل الجميع يصابون بالهلع والذعر لعدم تمكنهم من رؤية ما يحدث خارجاً ولكن بعد فترة وجيزة من عبورهم لحفرة شعر بها بعضهم وتوقفوا بعد أن سمع صوت تنبيه العجلة الأخيرة لتوقفهم أو لتشعرهم بأن حدث خطب ما، توقفت العجلتين التي في المقدمة نزل الضابط والسائقين لينظروا ما حدث للعجلة الثالثة وجدوا العجلة الثالثة تنغمر إطاراتها الخلفية بأكملها بالوحل ويصل الوحل تقريباً إلى متن العجلة من الخلف بعد أن رأى الضابط هذا المنظر شعر بالارتباك وأسرع على الأشخاص الجالسين داخل العجلتين وأخذ يقول بصوت مرتفع إلى السائقين أسرعا واحضرا عددا من الأشخاص على الفور ستنغمر العجلة بأكملها إن لم نتمكن في الإسراع لم يعد هنالك متسع من الوقت وبسرعة البرق جاء السائقين من كل عجلة سبعة أشخاص ضخام القد وأقوياء البنية أصيب ألكسي بالدهشة من هذا المنظر الذي يدعو للارتباك ولكن ألكسي وصديقه ميلان لم يكونا من ضمنهم لأنهم

ضعفاء البنية صار عدد الأشخاص أكثر من أربعة عشر شخصاً حتى إنه نزل متبرعون إضافيون ليقدموا المساعدة اللازمة وفعلاً تم إخراج العجلة إلى بر الأمان وتخليص إطاراتها من الوحل بصعوبة وتلطخوا جميعهم بالوحل والثلج من جراء تحرك إطارات العجلة بسرعة كبيرة داخل الوحل أثناء دفع العجلة، بدأ الجميع بتنظيف أنفسهم من الوحل، أثنى الضابط على عملهم الشجاع بتخليصهم العجلة من الوحل وقال أحسنتم جميعاً لقد قمتم بعمل جيد والآن ليعد كل واحد منكم إلى مقعده حيث كان لنكمل طريقنا صعد الجميع مرة أخرى داخل العجلات الثلاث لتكمل ما تبقى لها من مسافة وبعد انطلاقهم بمدة ليست طويلة توقفت العجلات جميعها عند نقطة معينة،

صدر بعد ذلك صوت من الضابط يأمر فيها أن تفتح بوابة قال افتحوا البوابة أيها الكسالى بسرعة، هرع الحراس لفتح البوابة إنها بوابة مزدوجة من الحديد الخفيف، فتحت على مصراعيها تحركت العجلات متجهة إلى الداخل تمكن الجميع من التخمين بأنهم وصلوا إلى المقر الرئيسي للمعسكر، توقفت العجلات بعد عبور البوابة بمسافة قريبة نزل الضابط من العجلة وقال بصوت مرتفع انزلوا جميعاً أيها الشبان لقد وصلنا، أسرعوا،

نزل الجميع من العجلات وتوجهوا جميعاً نحو الضابط ولكن بصورة غير نظامية وقفوا في باحة كبيرة تحتوي على أصناف مختلفة من العجلات والآليات والمحركات الكبيرة رأى الضابط إلى تجمعهم الغير نظامي وقال تجمعوا بصورة منتظمة رجاء تعال أيها العسكري رتبهم على شكل صفوف استجاب أحد الواقفين بجانب الضابط وقام بترتيب المجموعة بشكل صفوف متناسقة ومتساوية الأعداد ووضع امام كل شخص حقيبته الخاصة

به على الأرض وعندما اكتمل ترتيبهم أخذ الضابط يتحرك أمامهم يذرع المسافة التي أمامهم جيئة وذهاباً كأنه يريد أن يلقي خطاباً ما، بد الضابط بالحديث بنبرة قاسية بعض الشيء وبصوت ثابت ليشعرهم بمدى أهمية ما يقوله لهم وقال ستدخلون على الجنرال ليقابلكم واحداً تلو الآخر، لا ترتبكوا ولا تثيروا المتاعب أبدا ولا تتكلموا إلا إذا طلب منكم تذكروا ما قلته لكم جيداً، امسك الضابط روسيا عن خطابه هو لا يزال يزرع الأرض بخطى منتظمة واستأنف كلامه وقال سنأخذ بعض المعلومات الضرورية اللازمة لتوظيف كل شخص منكم وستخضعون إلى اختبارات وفحوصات بدنية وطبية من قبل الطبيب العسكري المتواجد في المعسكر، سنأخذ الأعداد التي نحتاج إليها منكم ولكن فقط لمن يجتاز ويتخطى الاختبارات وبعد ذلك ننتقي الاختصاصات والمواهب والحرف من بينكم وسيكونون بالتأكيد من المفضلين كل شخص حسب اختصاص عمله الذي يجيده وسنضع الجميع في مكانه المناسب، كل هذا بعد أن تتبعونني إلى مقر بناية الجنرال فهو في انتظار قدومكم، فرغ الضابط من حديثه، شعر ألكسي بألم في بطنه وخوف شديد واستحوذت عليه أفكار متشائمة رددها في قراره نفسه وقال هل يا ترى سيتم اختياري من بين جميع هؤلاء الواقفين بمميزاتهم ربما يكونوا جميعهم افضل مني، لقد بدأت الشعور بالخوف ربما لا يقبلوني، آه، لو كان والدي معي الآن لما شعرت بالخوف مطلقاً سيدعمني ويقدم النصح لي، لكن لا بد لي من الثبات في هذه المواقف وان أثق بنفسي وقدراتي والا سأخرج من هنا مهزوماً، وقف ألكسي في الصفوف الوسطى للمجموعة وهو غارق بأفكاره وبجانبه يقف صديقه ميلان لم يتركه أبدا فأينما يجلس ألكسي وفي أي مكان يقف عنده يكون

ميلان موجوداً بجانبه لأنه وعد ألكسي أن يقف بجانبه ولن يتركه مهما حدث، توجهوا جميعاً نحو البناية التي أشار نحوها الضابط روسيا وهو يتقدمهم من الأمام وبجانبه اثنين من المساعدين تبعد البناية عن الباحة التي ركنت بها العجلات الثلاثة ميلا واحد تقريباً يمكنهم أن يعدوها سيراً على الأقدام وهذا ما حصل بالفعل قطعوا مسافة الميل سيراً على الأقدام وصلوا من خلالها إلى البناية وبدورهم توقفوا عند مدخلها، هي بناية كبيرة تحتوي على غرف عديدة تمكن ألكسي من رؤيتها تبينت إنها مثلها مثل بناية مركز الأمن في سانت بطرسبرغ، بعد أن أشار لهم الضابط روسيا بالتوقف استدار نحوهم وقال هذه هي بناية المقر الرئيسي التابعة للجنرال، سأدخل الآن لأحصل على موافقة إدخالكم لمقابلة الجنرال، دخل الضابط روسيا إلى مقر الجنرال داخل البناية الرئيسية وبعد مرور خمسة عشر دقيقة خرج الملازم الثاني روسيا وقف أمام المجموعة وقال بصوت مرتفع ستقابلون الجنرال ومساعده الآن ولكن أعيدوا ترتيب أنفسكم ستقفون بخط مستقيم أمام باب البناية تذكروا ما أخبرتكم به منذ قليل سأقوم بإدخالكم بنفسي بالترتيب ونبدأ من أول شخص تقدم هنا واتبعني، توجه أول شخص إلى الضابط اتبع خطاه ودخلوا البناية معاً وقف ألكسي داخل خط الأشخاص التسلسل العاشر أمامه تسعة أشخاص فقط وخلفه يقف صديقه ميلان، شعر ألكسي بالاطمئنان عندما رأى صديقه وهو يقف خلف ظهره، في كل مرة يدخل بها شخص البناية لا يتأخر في داخلها سوى بضعة دقائق،

أرادوا بذلك مقابلة جميع الأعداد الواقفين خارجاً في فترة زمنية قليلة لأن عدد المتقدمين يتجاوز المائة وخمسون شخصاً لم يكن العدد معلوم حينها فقط بالنسبة للملازم الثاني روسيا يعلم كم هو عددهم لأنه استطاع

أن يعدهم عندما كان خارجاً لاستقبالهم عند البوابة الرئيسية للمعسكر، دخل جميع الأشخاص الواقفين أمام ألكسي والآن وصل الدور إليه، استعد ألكسي وكان واثقاً من نفسه بدرجة كبيرة، دخل باب البناية دخل باب البناية وهو ملئ بالأمل ومنشرح الصدر، لاحظ إنها بناية تتألف من ممر طويل وعدد من الغرف الكبيرة تقع على جانبي الممر تبدأ من بدايته إلى النهاية إما غرفة الجنرال فهي تقع في نهاية الممر مباشرةً يمكن رؤيتها بوضوح وتبعد عن الباب الخارجي للبناية أي من بداية الممر ثلاثون قدماً تقريباً، سار ألكسي خلف الضابط متوجهين نحو الغرفة وأثناء مرورهم خلال ممر البناية لاحظ ألكسي أن جميع الموظفين داخل غرفهم منهمكين بأعمالهم بجهد كبير، توقف الضابط أمامها وقام بطرق الباب مرتين بشكل متتالي وتنحى جانباً ليسمح إلى ألكسي بالمرور بعد أن أشار الضابط بيده نحو الباب ليخبر الكسي أن ينتظر أمام الباب لحين السماح له بالدخول وبعد عدة ثواني سمع صوت من داخلها يقول تفضل بالدخول، شد الكسي على مقبض الباب ودفعها وهم بالدخول وقف في وسط الغرفة وهو يمحص الرؤية نحو جدرانها وهيكلها الداخلي هي واسعة جداً جدرانها مغلفة بورق ابيض منقوش بصورة رائعة إما بقية البناية فكان طلاء جدرانها مقتصرا من الداخل على اللون الأبيض، نظر الكسي إلى الأثاث الجميل داخل غرفة الجنرال تحتوي من الداخل على طاولة كبيرة بيضوية الشكل صنعت على ما يبدو من أجود أنواع الخشب المتوفر وحولها اثنين وعشرين مقعد من الخشب المبطن بقماش احمر قاني اللون وضعت بصورة متقابلة كل واحد يقابل الآخر، ربما هي في نفس الوقت قاعة للاجتماعات أيضا يوجد في نهايتها مكتب الجنرال الخاص به يوجد خلفه مقعد كبير خشبي

مزخرف من نفس نوعية الخشب التي صنع منه باقي الأثاث، وضع على مكتب الجنرال بعض اللوازم الضرورية من الأوراق والمحبرة ومجموعة من الأقلام المتنوعة وريشة موضوعة جميعها بعناية فائقة إما بقية تفاصيلها لم يتمكن ألكسي من إلقاء النظر إليها لنفاذ وقته فلا بد له أن يجيب على الأسئلة الموجهة له، نظر ألكسي إلى الجنرال ومساعده، يجلس الجنرال بالطرف القصي من طاولة الاجتماعات على المقعد الخشبي وبجانبه يقف مساعده على جهة اليسار للجنرال وأمام الجنرال وضعت محبرة ومجموعة من الأوراق وقلم يمسكه بيده اليمين وهو منكب برأسه نحو مجموعة الأوراق وبدوره يتحدث مع مساعده كأنه يصحح شيئا ما أو يدقق شيئا في هذه الأوراق التي أمامه،

عند دخول ألكسي من باب سار بخطى بطيئة بمسافة خمسة أقدام نحو الجنرال وتوقف ليشاهد مظهر الغرفة من الداخل وبعد مرور وقت ثلاث دقائق من تفحص ألكسي وهو يجول برؤيته نحو أثاثها رفع الجنرال رأسه نحو ألكسي نظر إلى وجهه الذي كان يحاول إخفاء خوفه ويعاني لكي يبدو شجاعاً ويستجمع قواه وثقته بنفسه أيضا، يبدو هذا واضح كل الوضوح نظراً لخبرة الجنرال العريقة في قراءة وجوه من يدخل عليه فوراً، تمكن الجنرال أن يشعر بخوف ألكسي وارتجاف جسده من الداخل كل ذلك واضحاً بالنسبة إليه،

ولكن لحسن حظ ألكسي فهذا الجنرال ليس كسابقه الذي عاصره أبيه فالجنرال السابق قاسي القلب لا يحمل ذرة من الرحمة في قلبه إما الجنرال الحالي على العكس من ذلك فهو شخص طيب القلب ورحيم في من هو أضعف منه ليس هنالك صراخ من قبله ولا زجر ولا يرفض أحدا أبدا،

وجه الجنرال الحديث إلى ألكسي وقال تقدم هنا يا بني، لا تخف يمكنك الاقتراب اقترب أكثر رجاء، شعر ألكسي بالاطمئنان فوراً بعد سماعه هذه الكلمات الطيبة، يبلغ الجنرال منتصف العمر في عقده الخامس ولكن يبدو عليه الشباب واضحاً فهو يعتني بصحته جيداً ويمارس هواية الجري شبابه يتمركز في قوامه وشكل وجهه، يرتدي الجنرال بزة عسكرية بنية اللون، شكله وسيم جداً أبيض البشرة ولكنه نحيل جداً وجه معتدل بعينين زرقاوين واسعتين لديه احمرار طفيف على وجنتيه ذو أنف طويل ورفيع لكن متناسق مع ملامح وجهه وطول قامته لا يمكن معرفته لجلوسه خلف الطاولة ولكن يمكن ملاحظة طول قامته بصورة تقديرية فكما يبدو أنه معتدل القامة بجبهة معتدلة ومستقيمة وقوام ممشوق مظهره الخارجي يدعو للاطمئنان فور رؤيته، هنالك بعض الأشخاص من يطمئن لهم القلب عند رؤيتهم لأول مرة في أول لقاء تشعر بالراحة عند التحدث إليهم تساءل ألكسي بعد أن شعر بالارتياح عند سماعه لكلام الجنرال المطمئن وقال لماذا هنالك أشخاص يطمئن لهم القلب عند أول رؤية لهم وأول حديث يدور معهم، يبدوا أنهم يملكون قلوب نقية وصافية كصفاء السماء والنهر الجاري انهم أنقياء القلوب ويملكون سحر خاص لا يمكن أن تسبر أغواره ومعرفة كنفه أبدا، إما مساعده فهو يختلف كل الاختلاف عن طبيعة سيده شتان ما بينهم من اختلاف فهو على عكسه تماماً ينغلق له القلب فور رؤيته، أن الجنرال باسم الوجه إما مساعده فهو متجهم الوجه وقبيح جداً بشرته سمراء جداً، شعر الكسي بانقباض قلبه عندما رأى مساعد الجنرال انه ضابط برتبة نقيب يبدو على وجهه الحقد والكراهية في آن واحد وبسجيته المنافقة القابعة في شخصيته المكاره والشر يقدح من بين عينيه، يدعى

النقيب سيرجيو انه ضابط ضخم القد ممتلئ الجسد لا يملك رقبة تفصل جسده عن رأسه الكبير كأنه مركب على جسده ومحني من جهة الأمام نزولاً إلى صدره كأنه يبرز من صدره بين عظمتي الترقوة، أن شكله يدعو إلى الظن بأنه جاموس بري أسود اللون ضخم، لون شعره أسود حالك بلون الفحم عينيه سوداوين صغيرتين تقترب من بعضهما البعض أنفه كبير بمنخرين واسعين وشفتيه زرقاء اللون وكبيرة من اثر تبغ السجائر والتدخين بإفراط، وهو رجل مترهل الخصر والبطن بشكل يدعو للضحك، لاحظ ألكسي جميع هذه الأشياء عند دخوله غرفة الجنرال، استجاب ألكسي إلى كلام الجنرال واقترب من الطاولة لم يعد يفصل بينهما سوى أربعة أقدام شعر ألكسي بالامتعاض لاقترابه بصورة كبيرة نحو مساعد الجنرال فاقترابه هذا اوضح جميع تقاسيم شكل النقيب سيرجيو بوضوح تام ومثير للاشمئزاز، تشاءم ألكسي من رؤيته لهذا المنظر وما يبدو عليه النقيب من حالة مزرية جعل حفيظة ألكسي تستثير وبدأ يشتمه في دخيلة نفسه ويقول يا لهذا الضابط القبيح، كيف سمح الجنرال لنفسه بأن يدع هذا الضابط مساعداً له، يبدو أن مكانه ليس هنا لا بد من وضعه داخل قطيع من الجاموس لا شك أنه لا يمكن التفريق بينهم سيختفي داخلهم فله شبه كبير وعلاوة على ذلك يبدو أنه ضابط فض ووقح، يا إلهي كيف سأتعامل معه الآن من الواضح أنه وضع بجانب الجنرال ليكون نقيضه في الفضيلة ويمثل دور الضابط الشرير كما في الروايات وضعوه في هذه الغرفة ليقلص من أعداد المتقدمين لهذه الوظيفة لا مراء في هذا،

توقف الحديث الذي دار داخل رأس ألكسي، إنها خصلة من خصال ألكسي التي تحتوي على كم من الوضاعة ولكنها تصدر منه على غير

إرادته على الرغم طبعه الخليق ومساعدته لغيره من الأشخاص بحكم ما ترعرع عليه من ثقافة ولديه من ذلاقة اللسان ودماثة الخلق ما يكفي ليجعل جميع الناس تحبه ولا تبغضه يملك ألكسي خصلة النفاق والتحدث والتكلم على الآخرين بأقذع الكلام والكلمات النابية وتفوهه بالتفاهات، هو يحب صنع الخير ولكن يكره الناس الحمقى أصحاب القلوب الغليظة من الذين يتكلمون في ما لا يعنيهم في بعض الأحيان لا يستطيع أن يكتم ما بداخله من غيض اتجاه الأشخاص الحمقى فيتكلم بظهورهم ويلعنهم ويبصق عليهم من دون أين يعلموا ذلك هذا ما يضمره ألكسي في داخله ولا يستطيع البوح به ولكنه ما يظهره فهو عكس ذلك تماماً هذا هو العيب الوحيد الذي يتصف به أنه منافق ولكن بشكل متخفي ومن دون ذرة حقد داخل قلبه، بدأ الجنرال بألقاء أسئلة معتادة ومبتذلة لدى أي شخص وقال والان يا بني اخبرني ما هو اسمك؟، أجابه الكسي الكسي ميخائيلوفتش، قال الجنرال أوه جيد، قطع مساعد الجنرال النقيب سيرجيو سير الحديث وقال آوه، ألست ابن المدعو الرقيب ميخائيل الذي أحيل سابقاً إلى التقاعد؟، أجابه الكسي اجل يا سيدي هذا صحيح، وجه النقيب سيرجيو نظره نحو الجنرال وبدأ يكلمه سيدي الجنرال كان والده يعمل هنا في المعسكر مشرفاً على توزيع الطعام على نقاطنا العسكرية والمخيمات والثكنات خارج المعسكر وهو ذاته الذي أرسل الطلب قبل أسبوع والذي وافقت عليه سعادتك! هل تذكر ذلك؟، أجاب الجنرال وبدا على وجهه نفاذ الصبر اجل يا حضرة النقيب أتذكر جيداً، دعني الأن اكمل حديثي إلى الشاب، رد عليه النقيب وهو يشعر بالحرج آسف يا حضرة الجنرال بالتأكيد واصل حديثك، تكلم الكسي في قراره نفسه بعد أن لمح

نظرة الغضب والامتعاض على وجه الجنرال وما انتابه من نفاذ صبر اتجاه النقيب سيرجيو وقال يبدو على الجنرال انه لا يطيق مساعده لا بد من أن استغل هذه النقطة لصالحي وبشكل جيد والا لن احصل على هذه الوظيفة مهما حاولت، قرر الكسي أن يستغل هذا العداء والضغينة التي يكنها الجنرال إلى مساعده النقيب باستخدام أسلوبه الخاص المعهود عليه الذي يتبعه في أحلك المواقف الصعبة التي يمر بها في أغلب الأحيان بالظهور من خلف الستار ولعب دور المظلوم والمغلوب على أمره والدخول في البؤس المتصنع كل ذلك من خلال تغيير تعابير وجهه، إنها موهبة ألكسي الفطرية ولدت معه يفعلها من دون أن يبين شيئا أبدا ولا أن يزعج بها أحد وهذا ما حدث بالفعل لعب ألكسي دوره وقام بتمثيله على أحسن ما يكون، فتح عينيه الواسعتين كأنه كلب وديع يرغب في أن يطعمه أحد ووقف وقفة المنكسر الذي لا يملك في يده من حيله ليفعلها ونظر إلى عيني الجنرال مباشرة من دون أن يرف له جفن واخذ يلتهم حديث وكلمات الجنرال بشراهة ونهم كبير أثار ذلك حفيظة الجنرال ودعاه إلى الاهتمام به كأنه ألقى عليه تعويذة الحب أو شيء من هذا القبيل سحره بنظراته التي تثير الشفقة في قلوب الآخرين، أراد النقيب سيرجيو أن يقوم بتخريب قبول ألكسي في الوظيفة ربما كان يبغض والد ألكسي أو غير ذلك ولكن بعد فوات الأوان تمكن ألكسي بطريقته الخاصة أن يوقع الجنرال في شباكه ويكسبه إلى جانبه وبدأ الجنرال يعامل ألكسي بود ولطافة أكثر من ذي قبل، استأنف الجنرال حديثه ثم قال حسناً أيها الشاب لنكمل حديثنا بدأ الجنرال يسأل ألكسي ويكتب داخل الأوراق التي أمامه وقال ألكسي في أي سن أنت؟، أجابه الكسي ولا يزال ينظر نحو عينيه واحد وعشرون يا سيدي،

هم النقيب وحاول أن يقطع سير الحديث مرة ثانية وقال يا حضرة الجنرال سنه صغي...،

أراد أن يكمل النقيب كلامه ولكن الجنرال منعه من ذلك وقام بزجره وتعنيفه وأوقفه عن الكلام وبعدها قال له سيرجيو! هل لك أن تدعني أنهى أسئلتي؟، أصاب النقيب الدهشة وتفاجئ بصراحة الجنرال ورجع خطوتين إلى الوراء وأصيب بعدها بالذهول لم ينبس ببنت شفة حتى أن ألكسي شعر بالدهشة هو الآخر ولكنه في نفس الوقت أصبح موقفه أقوى بكثير من ذي قبل، أعاد الجنرال نظره نحو ألكسي وقال له بنبرة منخفضة هل لديك يا عزيزي أي موهبة خاصة تذكر أو اختصاص معين يمكن أن تبدع من خلاله أو أي مهارة أخرى تتقنها؟، أجابه ألكسي وعلي وجهه تبدو الراحة أجل سيدي ربما لدي بعض منها فأنا أتقن الكتابة وخطي جيد جداً بالإضافة إلى إنني قارئ جيد للكتب وبشكل خاص الروايات الطويلة والمؤلفات الضخمة اقرأها من غير أن يصيبني الملل وانوي في المستقبل أن أصبح كاتباً مشهوراً اكتب الروايات الطويلة هذا كل شيء يا صاحب السعادة، أنهى ألكسي إجابته على أسئلة الجنرال بشيء من التحمس والانفعال عندما يكون الحديث عن الكتب والروايات يبدأ ألكسي بالانفعال تدريجياً والحديث بحماسة وسرعة فائقة لا يمكن فهم كلمة واحدة مما ما يقوله وهذا الانفعال في بعض الأحيان يصاحبه ارتجاف في جسده من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، أعجب الجنرال من براءة حديثه كأنها براءة الأطفال وكذلك بشدة انفعاله وطريقة حديثه السريعة ونبرة صوته الجميلة والمرهفة التي تحدث فيها إليه تمكن ألكسي من أن ينال حظوة الجنرال، قال الجنرال إلى ألكسي يا لك من شاب موهوب لا شك أنك ستنفع في

هذا المعسكر، يمكن اعتبار نفسك مقبولاً في هذه الوظيفة وسأخصص لك عمل يليق باهتماماتك وبالإضافة إلى ذلك سأساعدك بعدم خضوعك لبقية الاختبارات يمكنك الذهاب الأن وانتظار الضابط ليوزع الجميع بعد أن تنتهي الاختبارات وستباشرون العمل من الغد، حظاً موفقاً بني، رد الكسي عليه بصوت يملؤه النشاط والراحة شكراً لك سيدي، استدار الكسي للخلف وسار بخطوات سريعة متوجهاً نحو الباب، خرج من الغرفة وتنفس الصعداء وهو مسرور وفي بهجة لا يسعها قلبه استطاع في نهاية المطاف أن يكسب المعركة التي دارت بينه وبين النقيب سيرجيو وتمكن من ضم الجنرال إلى صفه، سار الكسي في ممر البناية متجهاً نحو الباب المؤدي إلى الخارج حيث يقف جميع المتقدمين للوظيفة ولم يلاحظ الكسي أو يلقي نظرة على الغرف التي من حوله لأنه لم يفكر في هذه اللحظة بأي شيء تقريباً ولا يعلم أي شيء غير انه قبل في الوظيفة وهو مرح اشد المرح، خرج الكسي من باب البناية وهو منشرح الصدر لم يشعر بمثل هذا الإحساس من قبل وقف بجانب رفاقه بعد أن لوح بيده إلى ميلان الذي سيدخل الأن لمقابلة الجنرال لأن دوره قد حان بعد خروج الكسي،

بدأ بعض المتقدمين يتوددون إلى الكسي ويقتربون منه لكي يخبرهم ماذا جرى معه في الداخل شرح ألكسي ما حصل معه في الداخل ولكن بشكل مقتضب وحاول أن يطمئنهم جميعاً بأنه ليس هنالك ما يدعو للقلق والخوف أبدا،

وقف ألكسي مع صديقه ميلان خارج البناية بعد أن خرج ميلان من مقابلة الجنرال وبعد أن ادرج اسم ألكسي ضمن لائحة المقبولين في الوظيفة إما بقية المتقدمين استمروا بالدخول لغرفة الجنرال وبدأ العدد يتناقص شيئا

فشيئاً كل شخص ينهي مقابلته يخرج ويقف بجانب الأشخاص الذين أنهوا الاختبار وهم بانتظار النتيجة النهائية،

بعد أن قابلوا الجنرال وأنهوا جميع الاختبارات التي تكلم عنها الملازم الثاني روسيا مضى من الزمن على ذلك حوالي ساعتين وبعد مدة قصيرة خرج الضابط روسيا من البناية وهو يحمل بين يده مجموعة من الأوراق وقف أمام المجموعة وقال حسناً لقد ظهرت نتائج الاختبارات وهنا معي قائمة بأسماء الناجحين في جميع الاختبارات هم ذاتهم من حظي بهذه الوظيفة، من لم يجد اسمه من بين هذه الأسماء فليعلم أنه لم يحالفه الحظ سنقوم بنقلكم خارج المعسكر وتوديعكم هل هذا مفهوم؟ أجابوا جميعاً بإيماءة من رؤوسهم، بدأ الضابط بإذاعة أسماء المقبولين على المجموعة بصوت مرتفع وواضح ومن ضمن هذه الأسماء ذكر الضابط اسم ألكسي وصديقه ميلان، عزل الضابط أسماء المقبولين بما يقارب خمسون شخصاً ناجحاً إما بقية الأعداد أخذهم الضابط نحو العجلات لنقلهم خارج المعسكر وقبل ذلك كلف بعض الأشخاص العسكريين بنقل الناجحين إلى بناية أخرى تتكون من مجموعة من الغرف الكثيرة للاستراحة فيها ووضع ملابسهم أيضا يبدو أنه مكان نومهم في المستقبل ....يتبع

الفصل الخامس عشر

بعد مرور سبعة أعوام...

بعد مرور سبعة أعوام من قبول ألكسي في الوظيفة عمل خلالها بجهد كبير تخصص خلال هذه الأعوام المنصرمة التي قضاها داخل بناية المعسكر الرئيسية كما وعده الجنرال بالعمل على آلة الكتابة لطباعة البرقيات والرسائل العسكرية التي ترسل من معسكر إلى آخر، تعامل ألكسي مع ضابط واحد خلال كل هذه الأعوام وهو ضابط متخصص يأتي إليه لاستلام البرقيات والرسائل التي يطبعها ألكسي، يجلس الضابط في كل مرة أمام مكتب ألكسي أنه مكتب صغير بعض الشيء وضع عليه بعض الأوراق وآلة كاتبة فقط لا يوجد شيء آخر يذكر، إما الضابط الذي يجلس أمام ألكسي فهو رجل يثير الكثير من التساؤلات حوله بسبب طبيعته البليدة وتصرفاته الغير مأهولة ليكون ضابط بمكانته وشكله وهيئته ضخم القد ومترهل البدن وذو قامة طويلة رأسه كبير أصلع مترهل الخدين أشبه بكلب طاعن في السن بأنف كبير ومستدير وعينين شاردتين وفي بعض الأحيان متحركتين من جميع الاتجاهات في نفس الوقت كأنه حيوان الحرباء، إما حجرة الاستراحة والنوم بعد انتهاء ساعات العمل فهي غرف مشتركة اذ اشترك ألكسي مع ثلاثة أشخاص وتحتوي الحجرة على أربعة أسرة لكل شخص سريره الخاص به، دخل ألكسي أثناء فترات استراحته ونومه

داخل هذه الحجرة في خضم حوارات ونقاشات لا تنتهي البتة تدور بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة وجد ألكسي من خلالها التسلية وتزجيه الوقت والاستفادة أيضا في بعض الأحيان وبشكل كبير ولكن الثلاثة كانوا يمنعوه من غير قصد من القراءة في فترات استراحته ولكن لم يكن ألكسي يبالي بذلك، كان أحد هؤلاء الثلاثة يدعى يوري وهو شاب في مثل سن ألكسي يحمل أفكار ليبرالية أما الشخص الثاني فيدعى زاتوف وهو أيضا شاب ولكن أكبر من الكسي ببعض الأعوام وهو شخص متدين ولديه أفكار لا بأس بها ويستطيع إقناع أي شخص يدخل معه في أي حوار ويفحمه إما الأخير يدعى آرثير هذا الشاب ملحد يدحض جميع الديانات ولكن بأسلوب دمث اضنى ذلك الكسي، ابدع الكسي بعمله بشكل جيد وتلقى الشكر والعرفان من رؤساء عمله وحصل على ترقيات عديدة جعله ذلك يكسب أموال كثيرة أدى ذلك من تحسين أحوال معيشتهم وحالة الفقر التي كانوا عليها في سانت بطرسبرغ جعل ذلك كرستيانا في حالة من الفرح الشديد التي لم تشعر به يوماً ولطالما كانت تحلم به، أصبحت كرستيانا كبيرة السن إما زاريتا أصبحت شابة يافعة في سن يسمح لها بالزواج ولكن للأسف الشديد فهي لن تتمكن من ذلك لأن حالتها من الحالات الخاصة وكان هذا الشيء يضني والدتها بشدة ويجلها في كثير من الاحيان تبكي على ابنتها من غير أن تعلم، إما شقيقها الكسي اصبح يعشق عمله لأنه يلهيه عنها ولا يتذكرها فيشقى عليها اكثر لا يريد الكسي أن يراها وهي على هذه الحالة المثيرة للشفقة والتي يرثى لها أن جميع أقرانها تزوجوا وانجبوا الأطفال بإستثنائها هي،

قرر الكسي أن يسعد شقيقته بأي شكل من الأشكال وبأي وسيلة متاحة

ويفعل لها جميع الأشياء التي تحبها ويجعل منها إنسانة جذلة عندما يرجع إلى سانت بطرسبرغ بعد ذهابه إلى عمله يذهب إلى متجر الكتب التابع إلى فلاديمير ويشتري منه اجمل الروايات الطويلة، اصبح فلاديمير عجوز كهل بعد انقضاء كل هذه السنين ومرورها، يذهب الكسي إلى متجره لا لشيء يفعله كما فعل سابقاً ولكن ليشتري بعض الكتب لأنه لا يوجد في هذا الشارع متجر للكتب سوى هذا المتجر، أن الخطأ الذي ارتكبه ألكسي لا يمكنه أن يتكرر في يوم من الأيام أنه من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها ولكنه أحجم بعدها عن ذلك لكونه في ما مضى كان صبي طائش وسار خلف أهواءه والآن هو يشعر بالذنب في كل مرة يدخل فيها متجر فلاديمير العجوز يشتري الكتب ويلعن نفسه على ما اقترفه من شيء وضيع في ما مضى، كان هذا من الأشياء المبهجة إلى قلب زاريتا التي يفعلها ألكسي ليسعد قلب شقيقته وينسيها حقيقتها التي هي عليها، وما تشعر به من نقص في شخصيتها كانت تكمله وتجمله في الاستماع إلى قراءة والدتها، أصبح ألكسي رجل ناضج اعتمد على ذاته بعد رحيل والده واستطاع أن يؤمن لقمة العيش له ولعائلته تخلص من الديون ولم يتبق أي لسدادها كما انهم تخلصوا بشكل نهائي من مالكة العمارة مارغريتا بعد أن عرضت العمارة بأكملها للبيع إلى شخص آخر وبعد مدة غير كثيرة من بيعها للعمارة جاء خبر وفاتها وتأثرت كرستيان بهذا الخبر أشد التأثر على الرغم مما كانت تفعله معهم في السابق عندما كانت تأخذ أجرة مكوثهم في قبو العمارة الحقير، عاش ألكسي خلال الأعوام التي قضاها في وظيفته برتابة وشعر بالملل فهو لم يلتحق بهذه الوظيفة إلا لكي يحقق ما كان والده يبتغيه قبل رحيله لقد أرغم وأكره على عمله ومعيشته التي يعيشها الآن حتى بعد

أن بدأ عمله يدر له المالي الكافي الذي يسد رمقهم وأكثر من ذلك أيضا ولكنه لم يرغب أن تكون حياته على هذه الحالة وقرر قراراً نهائياً ان يترك وظيفته والعمل في المجال الذي يتوق إليه قلبه وروحه معاً وهذا ما حدث بالفعل، في يوم من الأيام التي جلس فيها ألكسي على آلة الكتابة قام بطبع طلب استقالته رسمياً وقدم طلباً لمقابلة الجنرال الرئيس الاعلى لمعسكر سسترورتسك ووقع الطلب وخرج من هذا القفص الذي كان يحجم على روحه ويحبسها، شعر ألكسي حينها بأنه أشبه بعصفور حبيس أطلق سراحه وأصبح يعيش حرا طليقاً، أراد ألكسي أن يعيش كما يتصوره عقله الواسع ذي الخيال الواسع كل ما أراده هو العمل في المجال الذي يتوق له قلبه وروحه ولكنه لم يجد ضالته في هذه الوظيفة وهو يعلم جيداً أن ضالته توجد داخله ليس داخل هذا العالم المادي بل في عالم عقله في خياله في أحلام يقظته في عالم الكتب والروايات العالم الآخر الذي خلقته له والدته وعلمته كيفية العيش في داخله إنها حياة أخرى غير مادية ولكن هذه الحياة هي الحياة الحقيقية يمكن أن يعيشها مع حياته الاعتيادية المبتذلة يمكنه أن يعيش حياتين في آن واحد ويمكن لأي شخص كذلك شريطة أن تقرأ الكتب تقرأها بحب فقط عندئذ تستطيع أن تعيش حياة أخرى يمكن أن تعيش في أزمان مختلفة يمكن أن تعيش في جميع الأزمان مجتمعة في آن واحد يمكن أن تعيش الماضي والحاضر والمستقبل ....يتبع

الفصل السادس عشر

مكتبة ديفيد الأدبية...

بعد أن وقّع ألكسي استقالته من الوظيفة بصورة رسمية ومن غير رجعة توجه إلى محطة القطار وحجز مقعداً من الدرجة الثالثة للحفاظ على أمواله المدخرة من التبذير الأموال التي ينوي أن يؤسس بها فكرته الجديدة، وصل إلى محطة قطار سانت بطرسبرغ وعند نزوله من على متن القطار وقف وهو مطرق الرأس نحو الأرض غارقا في أفكاره وفيما سيفعله في المستقبل من أعمال يتوق لها قلبه وينبض لها فرحاً وجذلاً ولكن لا بد له من الإسراع في تأسيس العمل قبل أن يبدد جميع المال الذي حصل عليه من خلال وظيفته، والآن ظاهريا يشعر بضيق وحزن إما في داخله فهو سعيد ومسرور إلى ما لا يمكن لأحد تصوره وذلك لتحرره من السجن الذي كبت على أنفاسه وضيق صدره، استمر ألكسي في الصراع بين الحزن والغبطة بين الماضي الذي انصرم وبين الحاضر والمستقبل الذي سيأتي فيما بعد كل هذا كان يعتمل في دخيلته وأخذ يسير على غير هدى وباستمرار ومن دون أن يتوقف لحظة واحدة لا يعلم إلى أين ستأخذه قدميه ظل يسير ويسير ولم يجد نفسه إلا وهو داخل الشارع الذي يؤدي الى العمارة التي يسكن بها أصيب بالدهشة ولم يعلم كم من الوقت مضى بالسير من محطة القطار لحين وصوله إلى هنا وكم قطع من المسافة سيراً على أقدامه،

توقف على الطريق كان هنالك صوت يتردد داخل رأسه طوال فترة سيره صوت لا شك أنه يعرفه من قبل أنه صوت النجاح والإلهام صوت يقول له ((ستصبح كاتباً عظيماً يوماً ما))، إنها المقولة المعهودة التي لطالما تتردد على مسامع ألكسي منذ أن كان صبياً وحتى حين بلغ ألكسي هذا السن إنها مقولة كرستيان التي لا يزال ألكسي يؤمن بها وكذلك كرستيان فهي تؤمن بولدها وبقدراته الإبداعية على الرغم من أنه لم يجرب كتابة أي شيء في السابق سوى بعض أوراق مذكراته التي يحتفظ بها عندما كان صبيا صغيرا ولكنها مع هذا تقول له ستصبح كاتباً عظيماً إنه الأمل داخلها ولا شيء غيره وزراعة الأفكار الإيجابية داخل العقل الباطن، لا زال ألكسي يحتفظ داخل عقله بهذه الجملة منذ زمن بعيد ولم يعيرها أي اهتمام في يوم من الأيام ولكنها ستخرج من أغوار عقله وتظهر وبعد ذلك سيتوجب عليه أن يعمل عليها يسقيها وينميها بالحب، لدى ألكسي المعرفة التامة والإلمام بهذه الأعمال ولكنها تحتاج إلى أن يبدأ خطوته الأولى فيها والتي ستوصل به حتماً نحو النجاح ونحو ما كان يصبو إليه، قرر ألكسي أن يبدأ خطوته الأولى من الإلهام الذي جاءه من جملة والدته التي ما انفكت ترددها على مسامعه وكسر حاجز الخوف لديه قرر أن يحقق ما كانت والدته ترجوه منه وما أرادت أن يكون عليه ولدها اتخذ قراره للأبد عندما كان لا يزال في منتصف الطريق نحو المنزل، وبعدها استأنف طريقه إلى المنزل وهو يردد في قراره نفسه ويقول سأحاول أن اكتب رواية سأجرب حظي لا بد ان اكتب واكتب سأحقق حلمي وحلم والدتي، وصل الكسي إلى بوابة العمارة الواطئة وهم بالدخول،

وجد داكوتا العجوز جالساً كعادته لاحظ الكسي علامات الكبر التي

تبدو واضحة وجلية على محياه اصبح كهلاً بشكل مفرط بعد مرور هذه الأعوام، القى الكسي التحية عليه رد داكوتا عليه التحية توجه الكسي نحو باب العمارة الخشبي وولج داخل العمارة وبدوره نزل إلى الأسفل نحو القبو أراد أن يطرق الباب ولكنه تذكر أن الباب يبقى مفتوحاً على الدوام فقط يغلق عندما يحل الليل، دخل ألكسي القبو وجد والدته منكبة برأسها على قراءة رواية تتناولها بيدها وهي جالسة على الطاولة وبجانبها زاريتا وأمامهم أكواب شاي تناولوها منذ قليل ولا تزال الأكواب ساخنة نظر ألكسي إليهم وقال مرحباً أيتها الفتيات لقد عدت توقفت كرستيان عن قراءتها واستدارت نحو ألكسي بعد أن وثبت من المقعد الذي تجلس عليه وكذلك نهضت زاريتا من مكانها لاستقباله تعانق الثلاثة واخذن بتقبيله من خديه وبعدها أخذ ألكسي بيد شقيقته زاريتا وقبلها وقال لقد اشتقت إليكم، ردوا عليه الاثنين وكذلك نحن اشتقنا إليك قال ألكسي بصوت يمازجه الحزن والسعادة سأخبركم بأمر ربما سيزعجكم قليلاً ولكن فعلته بمحض إرادتي، أصيبوا بالدهشة لدى سماعهم ما قاله ألكسي وبدا عليهم الخوف وقالت كرستيان ماذا حصل يا عزيزي أليوشا؟ هل هنالك خطب ما في وظيفتك؟ أخبرني ولا تخفي عني أي شيء لم يعد قلبي يحتمل أكثر يا بني، أجابها ألكسي وهو يشعر بالأسف مما سوف يقوله لهم لقد تركت الوظيفة ومن غير رجعة، وقعت استقالة رسمية ولن أذهب هنالك مرة أخرى، وضعت كرستيان يدها على فمها من هول وشدة الصدمة واغرورقت عينيها بالدموع وقالت له ولكن لماذا! لماذا فعلت هذا الشيء؟ هل حدث خطب ما هل تعرض لك أحد في العمل؟ أخبرني بني، رد ألكسي على والدته وقال كلا أمي لم يحدث أي شيء من هذه الأشياء مطلقاً اطمئني،

لن أتمكن بعد الآن أن أكمل حياتي في هذا السجن لا أستطيع أن استمر أكثر يجب أن تفهمي هذا الشيء يا أمي، سأجد عملا آخر بأقرب وقت لا تقلقي أبدا سيكون كل شيء على ما يرام، اخذ ألكسي بيد والدته ورفعها إلى مستوى فمه ولثمها وهو يحدق إلى عينيها ويبتسم وعلى وجهه ابتسامة تحمل الكثير من المرارة إجابته كرستيان وقالت له بالتأكيد أليوشا سيكون كل شيء سيكون على ما يرام، شعر ألكسي بالقليل من الراحة بعد ما سمع كلمات والدته التي تزخر بالراحة، ابتسمت كرستيان ابتسامة تنم على أمل مشرق أرادت بذلك أن تواسي محنته وان تمازحه قليلاً وأردفت تقول له سيكون كل شيء على ما يرام ولكن إلا اذا تأكدت بأنك أحضرت معك بعض الكتب لأنه لم يتبق سوى كتاب واحد فقط وبدأت اقرأه الأن لشقيقتك وربما سأنتهي منه غداً ابتسم الكسي لها وقبل رأسها وقال للأسف الشديد لم أتذكر ذلك سأخرج غداً وأجلب لكم عددا من الكتب المسلية ومن يدري ربما ستقرؤن كتابا خاصا بي في المستقبل إلا يعجبكم ذلك؟، فغرت كرستيانا فمها واتسعت عيناها وتكلمت بارتباك شديد من جراء هذا الخبر الجميل الذي سمعته من الكسي وقالت له آوه! يا إلهي هل هذا صحيح هل هي معك الأن؟ هل قمت بتأليف رواية خاصة بك يا عزيزي؟ أين هي، هل هي معك الأن؟ أرجوك دعنا نقرأها استوقفها الكسي وهو يقول مهلاً أمي لا تتسرعي في الكلام، لم أقم بتأليف رواية ولكن انوي البدء بالكتابة، ردت عليه كرستيانا وقد شعرت بخيبة الأمل وقالت آوه! ظننت إنك قمت بتأليف واحدة يا بني، يا إلهي ما اشد حماقتي في هذه الأيام؟، قال الكسي والجذل يبدو عليه بصورة عظيمة سأبدأ بالكتابة وستقمن بمساعدتي لأنكن تمتلكن المعلومات الوافية في هذا المجال

أليس كذلك؟، إجابته كرستيانا وقالت له بكل تأكيد عزيزي اليوشا سيكون هذا من دواعي سرورنا،

لا تقلق لن نتركك وحدك امضي قدماً وستجدنا مستعدين لمساعدتك في أي وقت تحتاج فيه إلى مساعدتنا أنا وشقيقتك سنقدم لك النصح الذي تحتاج إليه لا شك في ذلك، عانق الكسي والدته بحرارة وقال لها شكراً أمي اعلم هذا ستساعدنني لا اشك في هذا أبدا، سأبدأ بالكتابة من الآن ولن أضيع وقتي أبدا سأكرس جميع وقتي للكتابة، بدأ ألكسي بالكتابة كانت لديه مجموعة من الأوراق التي يختزنها مع مجموعة كتبه التي قام بشرائها مؤخراً ويحتفظ كذلك بمحبرة وريشة للكتابة، انكب على الكتابة ولكن لا يعلم ماذا يكتب وكيف يختار موضوع ليبني عليه أسس الرواية التي ينوي كتابتها حتى مع مساعدة كرستيان وزاريتا له لم يتمكن من إيجاد أي موضوع مثير للاهتمام يستحق أن يكتب عليه روايته، استمر في الكتابة وفي كل مرة ينتهي فيها من كتابة ورقة واحدة يعيد قراءتها ويجدها لا تحتوي على أي معنى بالإضافة إلى افتقار ألكسي إلى اللغة الفصيحة التي يحتاجها أي كاتب في الكتابة وبدوره يقوم بتمزيق الورقة ويقطعها إلى قطع صغيرة حتى لا يتمكن أحد من قراءتها بعد أن يرميها، استمر ألكسي بالكتابة على نفس الطريقة والنهج الذي اتبعه وتوالت الأيام والليالي التي أضنته وأتعبته حتى أنه يبقى منهمكاً في الكتابة لساعات طويلة من الليل لم يذق طعماً للنوم خلال هذه الأيام التي بدأ يكتب فيها فقط لبضع ساعات يريح بها عينيه، وبعد مرور ستة عشر يوماً من الكتابة والتعب والإرهاق الذي أصابه تمكن أن يخرج بكتابة رواية تتألف من تسعون صفحة فكرتها وموضوعها جميل ويستحق القراءة ولكن أسلوبه في الكتابة رديء للغاية

وفيه كم كبير من الاستهجان، لم يكن ألكسي واثقاً من روايته التي كتبها بصورة سريعة وخلال أيام قلائل معدودة تدعو للارتياب ولم يكن راضياً في بادئ الأمر وانتابه الشك حولها ولم يستطع أن يؤمن بقدراته الأدبية وبالتالي أصابه الإحباط الشديد ولكن لم يصبه اليأس وقرر أن يجرب حتى وإن فشل في البداية فإن الوصول إلى النجاح لا بد أن يصحبه شيء من الفشل، فكر في قرارة نفسه بعد أن انتهى من كتابة الرواية حتى وإن فشلت في البداية فهذا لا يعني إنني لا أستطيع الكتابة أبدا، سأنقح الرواية واكتبها بشكل أوضح على أوراق جديدة وسأبحث عن محلات أدبية لنشرها سأعرض عليهم روايتي وبالتأكيد سوف يقرؤنها ويقيمونها ثم يقررون ان كانت صالحة للنشر أم لا، سأذهب غداً وابحث هذا ما سأفعله، ولكن مهلاً ألكسي لماذا اتعب نفسي بالبحث؟! أستطيع إيجاد مكتبة أدبية للنشر دون عناء، صديقي دانييل، أجل! دانييل تذكرت أنه صديق الدراسة الثانوية بالتأكيد سيساعدني في إيجاد بعض الحلول، تذكر ألكسي صديق الثانوية دانييل الذي يعمل مع والده في مكتبة لنشر الأعمال الادبية والكتب وتذكر كذلك أخر لقاء جمعه بصديقه دانييل أمام محل الخبز قبل سفره للدراسة في أمريكا قبل ستة أعوام تقريباً، عاد ألكسي إلى أفكاره وقال سأذهب إليه مباشرة غداً صباحاً ومن دون تردد، سيدلني على الطريق القويم، ارجو ذلك، بدأ ألكسي ينقح روايته ويكتبها على ورق نظيف وبشكل جيد لكي تلاقي استحسانهم، استمر بالتنقيح طوال الليل لم تغفو عينيه مطلقاً إلا حينما أنهى تنقيحها وكتابتها مرة أخرى بعدها استطاع أن يغفو لمدة قصيرة جداً حين بدأت خيوط الفجر تبزغ في الأفق وبعد أن بلغت الساعة الثامنة صباحاً استيقظ ألكسي من نومه ونهض من فراشه وهو مكفهر الوجه قام

بغسل وجهه بالماء وارتدى ثيابه وأخذ معطفه بيده ومخطوطته وخرج من المنزل وهو على عجلة من أمره وأخذ يسير على غير هدى حتى هو لا يعلم لماذا يسير بهذه السرعة والاستعجال وكانت حينها أفكاره مشوشة ومشتتة وعقله مضطرب لا يملك بداخله أي أفكار يمكنه التفكير بها،

كان عليه أن يسير لأربعة جادات لكي يصل إلى المحل الذي يعمل فيه صديقه دانييل سار الكسي بصورة سريعة كانت الريح هوجاء حين خرج من المنزل تهب عكس اتجاه سيره مما جعله يلاقي صعوبة بالغة في السير كأن الطبيعة تحارب ضده وضد ما كان يبتغيه وتمنعه من الوصول إلى هدفه ولكنه قاوم هبوب الرياح ولم يبالي بها، ارتدى معطفه أثناء سيره وقام بتزريره كاملاً حمل مخطوطته بيده بقوة لكي لا تسقط من يديه وتذهب في مهب الريح لم يكن لديه حقيبة خاصة بالأوراق فأقتصر على حمل الأوراق بيديه فقط، وبعد عناء عبر الكسي أربعة جادات وصل إلى المكتبة ووقف أمام الباب مباشرةً ولكنه تردد في الولوج إلى داخلها كان المكان رائع بالنسبة إلى ألكسي في هذه الأماكن التي يخفق لها قلبه مسك مقبض الباب وقام بدفع الباب الخشبية للمكتبة وهي باب جميلة تحتوي على نوافذ زجاجية في منتصفها وصولاً إلى حافتها من الأعلى إما من منتصفها ولغاية النهاية السفلية فهي لا تحتوي على نوافذ زجاجية أبدا كلها صنعت من الخشب ذي اللون البني الجميل، وجد ألكسي بعد أن فتح باب المكتبة في وسطها التي تعج بالأشخاص الجالسين على طاولات مستديرة صغيرة بنية اللون يجلسون على مقاعد خشبية بينة اللون أيضا، أن جميع أثاث المكتبة وكل ما فيها حتى ورق الجدران بني اللون إنها مكتبة على الطراز الكلاسيكي القديم، وقف ألكسي في وسط المكتبة وطار لبه من فرط ما

رآه من بهاء وروعة المكتبة الأدبية وما تحمله من رونق وسحر لا يقاوم يسلب الألباب، شعر ألكسي أنه يقبل الآن على عالم آخر عالم واضح المعالم وقديم الطراز شعر به حتى من خلال رائحة المكان التي تعبق برائحة الأوراق العتيقة والمجلدات القديمة الموضوعة على رفوف خشبية معلقة على جدران المكتبة من جميع الجهات، كان هنالك ثلاث طاولات يجلس عليها عدد من الأشخاص المنهمكين في الكتابة والحديث وهنالك جلبة عارمة وصخب حتى أن الأوراق أصبحت تتطاير من فوق الطاولات متنقلة من طاولة إلى أخرى منهم من كان يكتب ومنهم من كان يطبع على الآلة الكتابة تمكن ألكسي من رؤية كل ذلك وهو ما يزال واقفاً متسمراً في مكانه لم يبارحه ولم يتجرأ أن يتحرك ويخطو خطوة واحدة إلى الأمام كان الجميع منهمكا بأعمالهم ولم يلاحظوا وجوده حتى هذه اللحظة، وبعد مدة دقيقتين على وقوف ألكسي وسط المكتبة استطاع أن يلاحظ رجلا متكأ بظهره على مقعد صغير خلف مكتب خشبي قديم الطراز حجمه متوسط عليه وضعت محبرة وأقلام خشبية وكذلك عليه أوراق متناثرة من نهايتيه وغير مرتبة، جلس الرجل رافعاً قدميه للأعلى على سطح مكتبه بجزمته الجلدية سوداء اللون يضع قدم فوق القدم الأخرى ويدخن بغليونه موجهاً رأسه وعينيه نحو الأعلى ودخان التبغ يصعد إلى فوق من رأسه لم يكن الرجل عابئاً بأي شيء يدور من حوله، اقترب ألكسي من مكتب الرجل بخطى بطيئة وينظر إليه مباشرة، لم يعلم الرجل بوجود شخص ينظر إليه إلى هذه اللحظة، فكر ألكسي في قراره نفسه وقال يبدو أنه والد دانييل صاحب المكتبة لا شك في ذلك، انهمك ألكسي بالتفكير والنظر نحو الرجل الجالس ولم ينتبه لوجود صديقه دانييل داخل المكتبة، يقف

دانييل على جهة اليمين مستدير بجبهته نحو رفوف الكتب التي تقع على جهة اليمين يرفع يده إلى الأعلى وكأنه يبحث بين أكوام الكتب عن عنوان ما يقلب بيده الكتب كتاب تلو الآخر ولم يلاحظ دخول ألكسي إلى مكتبة والده وبعد مدة قصيرة من بحث دانييل وجد ضالته أخيرا وأخذ كتاب من بين الرفوف نادى على والده وبعد أن استدار نحوه وقال لقد وجدته أبي انظر ها هو! يا إلهي كم من الوقت مضى وأنا أبحث، آه، لم أعد أشعر بذراعي،

توجه دانييل نحو مكتب والده وهو يتكلم ومطرق الرأس نحو الكتاب الذي بيده، رفع دانييل رأسه نحو والده شعر بوجود شخص ما يراقب والده يقف بجانب مكتبه وجه رأسه نحو هذا الشخص توقف عن الحديث ثم أعاد توجيه الحديث إلى هذا الشخص بعد أن علم أنه صديقه الكسي وقال أوه يا إلهي أهذا أنت يا صديقي العزيز؟! اليوشا! لقد مضى عدة سنين منذ أخر لقاء حدث بيننا كم اشتقت إليك، أنا سعيد لرؤيتك مجدداً، سمع والد دانييل الحديث الذي دار بينهم ثم استقام في جلوسه على مقعده بدأ ينظر إليهما باستغراب شديد حتى انه توقف عن التدخين لم يكن يعلم أن لدى ولده دانييل صديق يكن له الاحترام والتقدير بقدر ما رآه الآن، رد ألكسي على كلام صديقه دانييل وقال وأنا كذلك يا صديقي سعيد لرؤيتك، تعانق الاثنان عناق الأصدقاء ولكن بشيء من الفتور وليس بحرارة كأنهم سبق أن تقابلوا من بضعة أيام هذا ما ألفوا عليه حينما كانوا في المدرسة الثانوية كانت علاقتهما وصداقتهما يشوبها شيء من الفتور، دائماً ما كان ألكسي يثير اهتمام صديقه دانييل حتى أن دانييل يأخذ النصح من ألكسي عند مروره في مواقف صعبة ويستشيره في كل صغيرة وكبيرة، في كل مرة يخبر

ألكسي بأنه ذات يوم سيعمل معهم في المكتبة الأدبية كان يجد في ألكسي القارئ الجيد وعرض عليه العمل مرات عديدة ولكن ألكسي يرفض هذا على الرغم من أنه يتوق للعمل في هذا المجال الذي يعشقه والذي كان ولايزال حلمه الوحيد ولكنه يخاف أن يضع خطوته الأولى، لم يقم ألكسي بأخبار صديقه عن حلمه أبدا كي لا يشفق عليه والآن بعد أن ترك وظيفته أرغم على ذلك لن يتمكن بعد الآن من إخفاء دخيلته وحتماً سيضع خطوته الأولى ويوجهها صوب حلمه وعمله الجديد في ذلك المجال،

أشار والد دانييل نحو ألكسي وقال لولده إلا تعرفنا بصديقك يا بني أجابه دانييل وقال آوه،

أجل أجل يا أبي أنه أليوشا صديقي من المدرسة الثانوية، أنه أعز أصدقائي وبالمناسبة هو قارئ جيد للكتب وخاصة الروايات الطويلة التي تتألف من صفحات كثيرة يقرأ ولا تقل عزيمته مهما كان حجم الكتاب وعدد صفحاته، تكلم والد دانييل وقال هم، أنه شيء مثير للاهتمام، يدعى والد دانييل ديفيد وهو رجل في منتصف العمر نشط جداً ولديه حس الفكاهة والدعابة في أغلب الأحيان لا يعرف اليأس أبدا ومزاجه جيد في جميع الأوقات ومن خلال حديثة إلى أي شخص حتى وإن لم يكن لديه سابق معرفة به لا بد أن يتخلل حديثه معه بعض المزاح المرهف والمرح الذي يشرح القلب ودعابته التي لا تفارقه أبدا، كان ديفيد معتدل القد والجسم متوسط القامة طوله معتدل يرتدي معطف اسود اللون طويل بعض الشيء ومفتوح من أزراره وتحته يرتدي صدرية بنية اللون وقميص ابيض وبنطال رمادي اللون ثيابه أنيقة ونظيفة إما شكله فهو وسيم شعره طويل اسود اللون ويتخلله خصل رمادية اللون مرتب ويمشطه خلف أذنيه

يرتدي قبعة منخفضة النهاية من الأعلى بنية اللون ولها حواف عريضة، وجه ديفيد حسن المظهر يمتلك ذقن وشارب مرتبة وكثيفة ومن شدة كثافة شاربه يخفي فمه من تحته لا يظهر منه أي شيء سوى ذراع الغليون الذي يدخن فيه أما انفه فكان طويلا ولكنه جميل ومتناسق مع تعابير وجهه وعينيه كبيرتين بنية اللون فيها شيء من حدة الذكاء وعمق التفكير إما بشرته فهي صافيه نضرة تحتوي على تجاعيد بشكل طفيف وقليلة مقارنة مع سنه، بدأ دانييل يتحدث وقال يا للهول،

لقد نسيت تماماً أن ادعك تجلس، اجلس من فضلك اليوشا اجلس هنا رجاء، أشار دانييل إلى المقعد الذي يقع أمام مكتب والده وهو مقعد خشبي صغير،

وضع دانييل الكتاب الذي تناوله من بين الرفوف على مكتب والده وقام بتوجيه الكلام إلى والده وقال أبي! لقد عرضت على اليوشا ان يعمل معنا في المكتبة عدة مرات ولكنه كان يرفض ذلك لا اعلم لماذا ولقد عرضت هذه الفكرة قبل أن أسافر إلى أمريكا وعند عودتي سيعمل معنا حتماً أليس كذلك اليوشا؟، أجابه الكسي بأرتباك وقال اجل بالطبع دانييل لقد كنت ارفض بسبب مرض والدي وسوء أحوال عائلتي، توقف فجأة عن الكلام نظر اليه ديفيد باهتمام كبير وقال فعلاً لا بد أن يعمل لدينا شخص بمثل مقدرتك ومواهبك فنحن ينقصنا هنا قارئ للمخطوطات لفت انتباه دانييل مجموعة الأوراق التي يحملها الكسي بيده وأثارت حفيظته انتابه فضول شديد وأراد أن يعرف ما هي محتوى هذه الأوراق وبدأ يسأل الكسي وقال له ما هذه الأوراق التي تحملها بيدك عزيزي أليوشا؟ هل بدأت تكتب؟ دعني أرى ذلك من فضلك،

مد ألكسي مجموعة الأوراق التي يحملها، مسك دانييل الأوراق وبدأ يقلب بها ويهز برأسه وقال إنها رواية! لا شك بأنك أنت الذي قمت بكتابتها أليس كذلك؟، أجابه ألكسي وقال أجل دانييل إنها رواية قمت بتأليفها مؤخراً، قبيل وفاة والدي أرسل طلب إلى المعسكر الذي كان يعمل فيه توظيفي ووافقوا على طلبه بعد أسبوعين عملت هنالك عدة أعوام تخصصت فيها على آلة الكتابة وتم ترقيتي إلى رتبة جيدة رقيب أعلى ولكن لم أتمكن من مواصلة العمل في هذا المجال، قدمت استقالة رسمية وتم الموافقة عليها، والآن أنا من غير عمل وقررت أن التجأ إلى الكتابة لنقتات عليها وخرجت بهذه الصفحات بعد أن أنهيت كتابتها تذكرت مكتبة والدك وأيقنت بأنه من المؤكد أن دانييل أكمل دراسته الآن وعاد من سفره، قررت المجيء إلى هنا لأعرض عليكم مخطوطتي دخل ديفيد وهما يتحدثان وقال آوه، هذا جيد دعني أرى بني التقط ديفيد مجموعة الأوراق من دانييل بعد أن وضع غليونه من فمه على مكتبه وارتدى نظارته فضية اللون وبدأ يقلب الأوراق ويقرأ بعينيه بصورة سريعة بعدها أخذ غليونه مرة أخرى ووضعه في فمه واستأنف ما كان يفعله، بدأ يلقي نظرة سريعة نحو الأوراق التي بين يديه، عقد حاجبيه كأنه غاضب أو ربما هذه هي طبيعته عندما ينهمك في قراءة شيء ما أو ربما هو في الحقيقة غاضب لأنه لا يحب أن يقرأ المخطوطات وهذا ما دعاه إلى التفكير بجلب شخص يقرأ المخطوطات، قرأ بصورة سريعة وبعد الانتهاء من كل ورقة يضعها على مكتبه أمامه بشكل مقلوب يضرب الورقة على المكتب بيده يصدر بهذا صوتا قويا هذا ما تعود عليه ديفيد في القراءة ربما أنه الملل ونفاد الصبر من عمله ورتابته، فرغ ديفيد من قراءة

المخطوطة واخذ يرتب الأوراق مرة أخرى ويعيد ترتيبها بضرب نهاية الأوراق من الأسفل بمكتبه وضعها جانباً ومد يده أسفل مكتبه فتح درج المكتب واخرج أوراق مالية وقال إنها جيدة يا عزيز أليوشا سأعطيك لقائها عشرون روبلاً، هل هذا يكفي؟ تفاجئ ألكسي مما فعله ديفيد وشعر بانشداه وقال متلعثما هل حقاً هل ستأخذ روايتي؟ هل ستقومون بنشرها؟ لا أصدق هذا يا إلهي شكراً لك سيدي، أجابه ديفيد وقال له لقد أخذتها بني لم يعد هنالك شك في هذا ولكن في المرة المقبلة يمكن أن تحسن لغتك الفصيحة بشكل أفضل واجعل كتاباتك ذات محتوى غني بالأفكار الجديدة كون القارئ يفتقر إلى الأفكار الجديدة وأيضا اجعل عدد صفحاتها قليلة ومقتضبة حتى لا يشعر القارئ بالملل ينبغي أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار في المستقبل، تناول ألكسي المال من يد ديفيد وشعر بغبطة تغمره رد على حديث ديفيد وقال له بالطبع سأبدو على أحسن حال في المرة القادمة شكراً لك سيدي،

نهض ألكسي من مقعده وصافح ديفيد بحرارة وقوة وهم بالخروج شيعه دانييل نحو باب الخروج وقبل أن يفضي به إلى خارج المكتبة نادى ديفيد عليه وقال أليوشا! يمكنك العمل هنا في المكتبة في أي وقت تحب، فكر في الأمر، أخبر دانييل بذلك، رد عليه ألكسي سأفكر في ذلك يا سيدي شكراً لك مرة أخرى، خرج ألكسي ومعه دانييل إلى الشارع بدأ ألكسي الكلام وقال شكراً لك دانييل علمت بأنكم ستساعدونني في ذلك كما توقعت، كان والدك لطيفا معي جداً شكراً لكم، أجابه دانييل وقال له هذا اقل ما يمكننا فعله لأجلك اليوشا، ثم اردف دانييل وقال لا تنسى ما أخبرك والدي به، فكر بما قاله لك ستتعلم هنا أشياء كثيرة وكذلك ستجني

المال، رد عليه الكسي وقال لا تقلق دانييل سأفكر في الأمر ولن انسى ما قدمتموه لي ما حييت، إلى اللقاء يا صديقي، أجابه دانييل إلى اللقاء حتماً قفل الكسي راجعاً إلى المنزل ويتمالكه فرح شديد لما اقبل عليه من إنجاز عظيم افضى ذلك إلى تحفيزه لتقديم الكثير والكثير في المستقبل... يتبع

الفصل السابع عشر

وصل ألكسي إلى المنزل في تمام الساعة العاشرة صباحاً وجد كرستيان وزاريتا مستيقظتان من نومهما وأخبرهما بما حدث له وعن المال الذي تقاضاه لقاء روايته وأنه سيعمل في غضون أيام معدودة في مكتبة أدبية ولكن بعد أن يكتب رواية أخرى أفضل من سابقتها ليقدمها إلى والد دانييل على حسب طلبه، شعرت والدته وشقيقته بالسعادة لسماعهم هذه الأخبار وأصبح لديه دافع متين الأواصر من جميع النواحي يجيز له الانخراط في الكتابة أنه شيء جديد وغريب نظراً إلى شخص لم يتعود على الكتابة وتعب التفكير، أنه أمر متعب للعقل والنفس، توالت الأيام والليالي انكب ألكسي فيها على الكتابة وبشكل مفرط، لم تدخل عليه كرستيان يوماً إلا ووجدته منهمكا في الكتابة، ويوما بعد يوم أصبح ألكسي شديد الصمت وشارد اللب يفكر في أغلب الأوقات غارقاً في الأفكار وعقله قليل الحركة لا يخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى أصبح قليل التحدث إلى والدته وشقيقته لا يتكلم إليهم إلا حين يوجهون إليه الكلام فجيبهم باقتضاب شديد، استطاع ألكسي أن يفرغ طاقته المكبوتة والمخزونة من امتناعه عن الكلام وصمته المطبق يخرج هذه الطاقة عن طريق الكتابة يكتب الأوراق تلو الأوراق لا ينفك من الكتابة أبدا أصبحت لديه بمرور الوقت المقدرة على السرد والاطراد في كتاباته بشكل لا يمكن

تصوره أبدا ولكن في مقابل كل هذا الأبداع الذي خرج به انقلب ضده وتحول إلى مساوئ أدت به إلى أضرار نفسية وجسدية، تحول إلى شخص أخر، فقد شهيته للطعام والشراب وانعزل انعزالاً تاماً عن عائلتهً وانعزل عن ذاته أيضا لم يعد يمارس أياً من الأشياء التي يحبها انقطع عن قراءة الكتب ولم يعد يجلس لسماع والدته وهي تقص القصص والروايات إلى زاريتا انقطع انقطاعاً تاماً عن كل شيء بدأ بفقدان كل شيء نحل نحولاً شديداً مرضياً وبدأ يشعر بأنه اقترب من الموت وأخذت فكرة موته تتنامى داخل رأسه كأنه أصيب بمرض نفسي واصبح تفكيره بأنه سيفارق الحياة لا مناص في ذلك اقتنع اقتناع تام بذلك وانغرس هذا الشيء داخل باطن عقله وفي أغواره حتى أخذت تقضي مضجعه أثناء نومه أصابه بذلك الأرق الشديد ولم يذق طعماً للنوم مطلقاً، وذات يوم من الأيام التي بقى فيها مستيقظاً لوقت متأخر من الليل وهو منهمك في إنهاء ما تبقى من كتابة روايته الجديدة انهك بذلك تفكيره وعقله كاد رأسه أن ينفجر من جراء التفكير الزائد أصابه القلق والتوتر وبدأ رأسه يؤلمه، انهى الكسي روايته بعناء كبير وبدروه توجه إلى فراشه ليحاول النوم ليريح رأسه قليلاً وعينيه، تهالك على فراشه بثقل جسده ووضع رأسه على وسادته لكي ينام، في كل مرة يأوي فيها الكسي إلى فراشه عند النوم تنتابه أفكار سوداوية تقضي مضجعه ويدخل بحالة من الأرق الشديد لا يستطيع النوم مهما بلغ به النعاس وتبدأ بعدها نوبة الهلع بالظهور والخوف من الموت التي تصيبه بين الحين والأخر التي اصبح يخشاها اشد الخشية حتى انه لم يعد يرغب في قدوم الليل والذهاب إلى الفراش لكي لا تصيبه هذه النوبة اصبح لديه رهبة من دخول الليل لم يعد بإمكانه النوم كالبقية هذا ما حصل لألكسي

فهذه الليلة بالذات لم يستطيع النوم وهو يتقلب في فراشه على جانبيه، وبعد هذا أضطجع على بطنه ودخل ألكسي في بداية نوبته إنها حالة مشابهة لنوبات الصرع، هنالك صوت ما يصدر من داخل رأسه لا يعلم من أين يصدر هذا الصوت هل ألكسي يحدث نفسه؟ هل هذا الصوت هو صوته في الأساس أم صوت شخص آخر؟ أم أنه هَمْس في أذنه حينها؟

أنه الصوت الذي يتردد في كل مرة يدخل فبها نوبته يردد نفس الكلمات وبنفس مستوى ارتفاع الصوت، سمع ألكس هذه الكلمات وهو لا يزال مستيقظاً لم يغط في النوم بعد هو لا يزال يفتح عينيه، تردد الصوت مرة واحدة وقال انهض ألكسي ستموت الآن!، شعر بأن هنالك شخص ما ينتظر خروج روحه لكي يلتقطها وبدأ قلبه يخفق بشدة من فرط خوفه الشديد ولسماعه هذا الصوت الغريب، وضع كلتا ذراعيه واستند بهما على الأرض ودفع بهما ليتمكن من النهوض بكل ما يمتلك من قوة تمكن بذلك من النهوض والوثوب من الفراش دفعة واحدة بكامل جسده وقبل نهوضه من الفراش نادى على والدته وتفوه بكلمتين فقط وقال أمي استيقظي!، لم يتمكن من إخراج اكثر من هاتين الكلمتين بسبب ضيق تنفسه، لم يكن ألكسي خائفاً من الموت حينها بل كان يخاف من أن يترك هذه الحياة التي فيها أشخاص يحبهم ويحبونه وكيف سيؤول حالهم بعد رحيله عنهم سينتابهم البؤس، لم يتقبل ألكسي من أن أحد ما سيبكي عليه بعد رحيله، كل هذه الأفكار حضرت داخل رأسه بثواني معدودة وبمدة زمنية بين مناداته لوالدته وعند نهوضه من فراشه، كان ألكسي يرجو أن يفارق الحياة من غير أن يشعر بمعاناة أو ألم، كانت حجرة نومه مظلمة حالكة الظلام استطاع ألكسي أن ينادي على والدته وهو يخرج من حجرة النوم

متوجهاً نحو المائدة التي توجد عليها شمعة أراد أن يضئ الشمعة ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب ضعف بدنه بعد ذلك استيقظت والدته من نومها وجرت خلفه نحو المائدة وأمسكته من أكتافه وأدارته نحوها في مقابلة وجهه وقالت وهي تصرخ وتبكي ماذا أصابك يا صغير؟

أجب أليوشا عزيزي!، اصطكت أقدامه ولم تعد قادرتان على حمله أراد أن يصل إلى الشمعة مرة ثانية بحث عن أعواد الثقاب ولكنه لم يستطيع الوقوف جثا على ركبتيه لم يعد يشعر بقدميه وهنالك شيء ما داخل فمه يمسك لسانه ويمنعه من التكلم، وأخيرا استطاع أن يتكلم ولكن بصعوبة بكت كرستيان بَكَّاءَ مراً على ما أصابه واحتضنته وقال لها سأموت الآن أمي! أيقظي زاريتا من نومها لأودعكم أرجوك افعلي هذا ليس هناك المزيد من الوقت، وثبت كرستيان من جانبه وبسرعة قصوى وهي تبكي توجهت نحو زاريتا وقامت بإيقاظها وقالت لها انهضي زاريتا لا أعلم ماذا أصاب شقيقك أنه يتنفس بصعوبة، وبدورها تناولت أعواد الثقاب وتوجهت مرة أخرى هي وزاريا التي بدأت تبكي على ألكسي لسماع والدتها ما أخبرتها به، أضاءت كرستيان الشمعة ولن لم يعد ألكسي يرى من حوله أي شيء حتى في ضوء الشمعة أصبح جميع ما حوله ضبابياً، عادت كرستيانا إلى الكسي وبدأت ترسم عليه إشارة صليب وتبكي عليه وزاريتا تحتضنه وتبكي أيضا إما الكسي فبدأ يرتجف ويرتعد من قمة رأسه إلى اخمص قدميه، نهضت كرستيانا من عنده وتوجهت إلى سريرها كانت تحتفظ بإنجيل صغير تحت وسادتها تناولته وعادت اليه وضعته على رأسه وصدره وبدأت تمرره عليه وتقرأ بعض من نصوصه التي تحفظها، هدأ الكسي قليلاً ولكن جسده استمر بالارتجاف مما جعل كرستيانا ينتابها القلق وقالت له ماذا أصابك يا

بني بحق السماء؟ تكلم أرجوك، بماذا تشعر؟، أجابها الكسي وهو لا يزال يرتجف لا اعلم يا أمي هنالك صوت ما بداخل رأسي يهمس لي وقال بأني سأموت الأن وانا ارتجف بسبب خوفي لا اكثر، قالت له كرستيانا انهض عزيزي، اجلس هنا على المقعد سيكون كل شيء على ما يرام لا تخف أبدا، أحضرت كرستيانا له كأس من الماء لكي يهدأ قليلاً، تناول القليل من الماء شعر بعدها بالطمأنينة،

ناول الكأس لوالدته وقال لها سأذهب الأن إلى فراشي لكي أنام قليلاً لا تقلقوا كل ما حدث لي بسبب الأفكار السوداوية والتفكير المفرط لقد أصبحت مجنوناً من كتابتي في الليل، ردت عليه كرستيانا وقالت له دع الكتابة يا بني والتجأ إلى عمل أخر أرجوك، لا تجعلني قلقة عليك ويحدث لك كما حدث لوالدك لقد لاقيت الشقاء بما يكفي، أجابها ألكسي سأتركها أمي، تصبحين على خير، ردت عليه كرستيان تصبح على خير عزيزي، استطاع ألكسي النوم في هذه الليلة وفي صباح اليوم التالي وعند نهوضه من الفراش قرر ألكسي وحزم أمره على ترك الكتابة والتوجه إلى عمل آخر، عمل لطالما كان يحلم به العمل في مكتبة أدبية أو متجر لبيع الكتب كليهما من الأعمال التي يطير فرحاً لها، خرج ألكسي من المنزل بعد أن غسل وجهه بالماء وارتدى ثيابه وتوجه نحو متجر فلاديمير لشراء بعض الكتب التي وعد والدته بها وبعدها يذهب إلى مكتبة والد دانييل ليريه عمله الجديد، وعند وصوله إلى المتجر وجده مغلقاً وعلقت على بابه لوحة خشبية صغيرة كتب عليها المتجر معروض للبيع، وقف ألكسي لفترة قصيرة من الزمن يقرأ ما كتب على المتجر وواصل بعدها طريقه، قرر الذهاب إلى صديقه دانييل للمكتبة الأدبية وأخبارهم بأنه ترك الكتابة

وسيعمل معهم في المكتبة كما كان يرغب دانييل، وصل ألكسي إلى المكتبة ودخل إليها وجدها كما هي زاخرة بأشخاص منهمكين بأعمالهم، استقبله دانييل وقال له أهلا بك مرة أخرى صديقي أليوشا، أين كنت طيلة هذه الأيام؟ تعال اجلس هنا، أجابه ألكسي آوه دانييل لقد كنت منهمكا في كتابة رواية جديدة وها هي سأقدمها إلى والدك، رد عليه دانييل وقال دعنا الآن من الكتابة وأخبرني هل فكرت بشأن عملك في المكتبة، يمكننا أن نعمل سوية ونؤسس متجرنا الخاص أليست فكرة رائعة، أجابه ألكسي دانييل في الحقيقة هذا ما جئت من أجله اليوم لقد قررت ترك الكتابة والعمل معكم، تكلم دانييل ببهجة شديد يا إلهي! لقد علمت ذلك أشعر الآن بارتياح شديد بعد سماعي لهذا الخبر، انهض سنخبر والدي الآن سيفرح بالتأكيد، توجه الاثنين نحو مكتب والده كان جالساً كعادته يدخن بغليونه، وجه دانييل الكلام لوالده وقال اسمع أبي، لقد جاء أليوشا ليعمل معنا هنا وأيضا جاء برواية جديدة، تكلم ألكسي إلى والد دانييل وقال تفضل سيدي هذه الرواية لقد أنهيتها ليلة البارحة، لقد تحسن أسلوبي بشكل ملحوظ كما طلبت مني، وجه ديفيد نظره نحو ألكسي وقال له آوه! بني أليوشا أهذا أنت، اجلس من فضلك، تناول مجموعة الأوراق من يد ألكسي بعد أن قدمها له، تكل ديفيد موجهاً كلامه إلى ألكسي دعنا من هذه الرواية الآن سأقرؤها فيما بعد وأخبرني هل حقاً ما سمعته من دانييل؟ هل فكرت بأمر العمل هنا؟ أجابه ألكسي وقال له اجل يا سيدي ولكن بعد أن تسمح لي بالعمل فمن المؤكد اني سأعمل حينها، رد عليه ديفيد آوه، ما هذا الكلام الذي تقوله بالتأكيد سأسمح لك بالعمل هنا بالإضافة إلى أن هنالك نقص في طاقم العمل واحتاج إلى قارئ للمخطوطات وأنت

ستنجز هذا العمل، أجابه الكسي انه لمن دواع سروري أن اعمل في هذه المكتبة الجميلة، شكراً جزيلاً لك سيدي، تكلم ديفيد وقال أذن ستبدأ من الأن بقراءة مخطوطتك وتقيمها بنفسك ها ها ها، مد ديفيد مخطوطة الكسي وأرجعها اليه وانخرطوا في قهقهات عالية من الضحك، وبعد مدة قصيرة من الحديث الذي دار بين الثلاثة خرج دانييل الكسي إلى الشارع وبدأ الكسي بتوجيه الحديث إلى دانييل وقال هل لديك معلومات حول متجر فلاديمير للكتب؟ منذ قليل قبل أن أصل إلى هنا توجهت اليه لكي اشتري بعض الكتب منه فوجدته مغلقاً ووضعت عليه لوحة خشبية كتب عليها المتجر عرض للبيع! هل لديك أي معلومات تخص المتجر؟،

أجابه دانييل للأسف الشديد اليوشا لقد توفي صاحب متجر الكتب من أسبوع مضى، لقد كان كبير في السن ووحيداً في هذا المتجر الكبير حتى انه ليس لديه أحد يرثه أو يسأل عنه، لقد تكفل والدي بتكاليف الجنازة والدفن كان صديق والدي المقرب ولنا بعض الأعمال المشتركة كما تعرف ومنذ يوم وفاته ومتجره معروض للبيع بهذه اللوحة مع محتوياته من الكتب والأثاث كل شيء معروض للبيع في المزاد بثمن ليس باهظ، امسك دانييل عن الحديث لمدة زمنية قصيرة ثم أردف يقول ألا تظن يا صديقي بأنه يمكننا أن نبدأ فتح هذا المتجر من جديد وإعادة ترتيبه سيكون عمل رائع أليس كذلك؟، أجابه ألكسي والحزن يبدو في عينيه على رحيل فلاديمير أجل عزيزي دانييل بالتأكيد سيكون عملاً رائعاً، تكلم دانييل وبدا عليه الاستغراب من كلام ألكسي الذي يشوبه عدم المبالاة وقال ولكن لماذا تتكلم بهذا الفتور وعدم المبالاة بالأمر؟ لماذا لا نعطيه مزيداً من الاهتمام ونعير هذا الأمر تفكيراً إضافيا، ألا يستحق هذا الأمر العناء،

سنؤسس عملا خاصا بنا تذكر هذا أليوشا، هل تبدو مريضاً أليوشا؟ ماذا أصابك أخبرني؟، أجابه ألكسي لا تقلق حيالي سأبدو بأحسن حال فقط أنا متعب قليلاً من ليلة البارحة لقد أجهدت تفكيري وجسدي بالكتابة، إما بالنسبة إلى المتجر أنه فعلاً يستحق العناء، ولكن من أين لنا المال الكافي؟ هل لك أن تفكر في حالي قليلاً؟، قال دانييل بالتأكيد أنا أفكر بحالتك واعرف ما هو وضعك بصراحة ولكن سنعمل معاً وستجني المال الذي يكفي لافتتاح المتجر من جديد وسأدعمك أنا أيضا وأساعدك في المال وكذلك والدي سيقوم بدعمي لا شك في ذلك لا تقلق أبدا يا صديقي، تكلم ألكسي وقال ولكن لدي طلب واحداً فقط قبل أن نبدأ بالعمل سوية أريد أن تفعله من أجلي وأرجو أن توافق على هذا الطلب لأنه رغبتي الخاصة، قال دانييل قل ما عندك أليوشا سيتحقق ما تريده في جميع الأحوال لا فرق عندي، هيا ألقى ما في جعبتك، قال ألكسي أريد أن يبقى اسم المتجر على ما هو عليه وكذلك شكله لا أريد أي تعديلات عليه فقط تعديل واحد سأجريه عندما نملك المحل، سأكون بذلك ممتناً لك ما حييت، رد عليه دانييل وقال لك ما تحب يا صديقي سيكون كل شيء كما ترغبه هل هذا يكفي؟ أجابه ألكسي أجل دانييل أنه يكفي لا يسعني أن أقول غير ذلك، سأحقق حلمي بمساعدتك أنت شكراً لك، عمل ألكسي مع دانييل في المكتبة الأدبية لمدة خمسة شهور تمكن من خلالها قراءة المزيد من الكتب والمخطوطات واكتساب المزيد من الخبرة في مجال العمل وأيضا شفي مرضه النفسي بشكل نهائي بفعل الدواء السحري الذي يتجرعه يومياً من قراءة الكتب والمخطوطات، لقد شفيت روحه وصفى ذهنه وأصبح يفكر قليلاً حتى أنه ليس لديه الوقت الكافي ليفكر فيه فهنالك

مخطوطات طويلة وكثيرة الصفحات بانتظار قراءتها ويتطلب قراءتها وقتاً طويلاً جداً، لم تعد تأتيه هذه النوبات ليلاً شعر بتحسن كبير لم يشعر بمثله من قبل، إما بالنسبة إلى المال استطاع ألكسي جمع المال الكافي من عمله في المكتبة خلال هذه الخمسة شهور وأضافها إلى أمواله المدخرة مما جعله ذلك إلى تكوين رأس مال لا بأس فيه للعمل على إعادة عمل متجر الكتب من جديد، سيعمل الكسي على حلمه أخيرا هذا هو ما كان يرجوه دوماً، سيعمل الكسي داخل المتجر وسيتذكر فلاديمير وروحه التي تطير وتحلق داخل مكتبته وسيحررها بإعادة فتح المتجر .... يتبع

النهاية

بعد مرور خمسة شهور...

بعد مضى خمسة شهور تمكن ألكسي بمساعدة صديقه دانييل من إعادة فتح متجر فلاديمير للكتب وشراء جميع محتوياته ورفوفه الزاخرة بالكتب والمؤلفات والمجلدات الكبيرة استطاع ألكسي تحقيق ما كان يصبو إليه لقد انتقل من عالم الى عالم آخر كان يعيش قبل ذلك في عالم ملئ بالبؤس والشقاء إما هذا العالم الذي يعيشه الآن مختلف كل الاختلاف عن العالم الذي يسبقه أنه عالم الأحلام والآمال شعر ألكسي داخله بالحبور والسعادة الشديدة عمل فيه بجد ونشاط ومن غير ملل لم يشعر بداخله بالتعب والإرهاق كما كان يعيش في عالمه المادي،

أصبح المتجر عزاءه الوحيد الذي يستطيع من خلاله استنشاق الهواء النقي في كل مرة يدخل فيها إلى المتجر يشعر بأنه ذهب إلى عالم ما وراء الطبيعة أصبح المتجر بالنسبة إليه بمثابة الحبيب الذي يعشقه وعدنه في هذه الأرض حتى أصبح يعشق رائحة المكان عند فتحه باب المتجر يستنشق عبق الكتب والمجلدات يشعر خلالها بالراحة وتعود إليه روحه مرة أخرى بعد أن خرجت من جسده، لقد غرقت روحه في بحر الكتب وطافت فوقه حلقت كذلك فوق السحب وسمت ووصلت إلى أعلى السموات هذا ما

كان يشعر به ألكسي في كل مرة يدخل بها المتجر، إما دانييل كان منهمكا بمساعدة والده في المكتبة الأدبية وكان يزور المتجر بين الحين والأخر وكذلك تكفل بنشر روايات ألكسي وتمكن من نشرها في الصحف وتوزيعها على متاجر الكتب الأخرى وبيعت منها نسخ كثيرة جعل هذا من ألكسي كاتب وروائي شاب مشهور ومعروف جعل من القراء يتهافتون على قراءة مؤلفاته ولكن للأسف الشديد لم يصدر منذ ذلك الحين أي عمل من أعمال ألكسي مما جعل ذلك محل اهتمام النقاد وكذلك احتج أغلب القراء المحبين من عدم إصداره أي من الأعمال الجديدة ولكن لم يعير ألكسي ذلك أي اهتمام يذكر واقتصر على الاهتمام والانشغال بالمتجر وأصبح ذلك شغله الشاغل تمنى أن يصبح في يوم من الأيام بائع للكتب وهذا ما حصل بالفعل انهمك فقط ببيع الكتب والاهتمام بعائلته وحتى لا يهمل والدته وشقيقته بانشغاله في متجر الكتب قام في بعض الأحيان بجلب زاريتا معه إلى المتجر لكي تتسلى معه في ترتيب الكتب وتزجية الوقت بقراءة الروايات المسلية والمفيدة، تجلس زاريتا بجانبه على الطاولة ويقص الكسي بعض الحكايات الروايات، إما والدته فيتركها مع مجاميع من الكتب لكي لا يصيبها الملل في البيت لجلوسها بمفردها في المنزل، هكذا عاش اليوشا البائس الصغير، وذات يوم من صباح مشرق كان الكسي منهمك بترتيب الرفوف وتنظيف الكتب من الغبار وهو يحدق إلى عارضة المتجر الزجاجية ويتذكر الماضي،

وضع الكسي الكتب في العارضة الزجاجية وقام عليها بالتعديل الذي ذكره سابقاً إلى صديقه دانييل بفتح نافذة من العارضة الزجاجية ووضع الكتب داخل رفوف ظاهرة من خلف النافذة المفتوحة تطل للخارج من

المتجر لكي يحافظ على الكتب من التلف من تغيرات الطقس المتقلبة وكذلك ليستطيع المارة من أمام المتجر من رؤية الكتب المعروضة بوضوح وقام بوضع الكتاب الكبير الذي احتفظ به منذ ذلك الحين بين الكتب المعروضة، بعد أن احدق الكسي نحو النافذة تمكن رؤية صبي صغير مهترئ الثياب بأسمال بالية يقف أمام الكتب المعروضة ويحدق بمليء عينيه على المجلدات الجميلة حتى حين اقترب الكسي من النافذة لكي يتحقق من رؤيته، كان الصبي ينظر إلى الكتب بتركيز شديد ولم يرف للصبي جفن أبدا، بدأ ألكسي يحدث نفسه وقال يا إلهي! ما هذه المصادفة العجيبة!، كان الصبي يعطي شبها عجيباً لألكسي عندما كان صبيا صغيرا حتى أنه يبدو في نفس سنه وأيضا يقف في نفس الموقع الذي وقف ألكسي عليه سابقاً، لم يصدق ألكسي ما تراه عينيه وأراد أن يتأكد أكثر خرج متوجهاً نحو الصبي ووقف بجانبه ولم يعد هنالك أي شك لديه وبدأ بالتحدث إلى الصبي قائلا له هل أستطيع مساعدتك أيها الصبي الصغير؟، رفع الصبي رأسه نحو ألكسي ونظر إليه وهو يبتسم ابتسامة عذبة طفولية ورد عليه شكراً لك سيدي فقط انظر إلى الكتب وحسب إنها تعجبني وهي جميلة جداً، قال الكسي للصبي وهل تقرأ الكتب يا عزيزي؟، رد الصبي عليه أجل سيدي اقرأ القصص وأحبها كثيراً، سأل ألكسي الصبي ما هو اسمك؟، أجابه الصبي اسمي لوكا يا سيدي «قال ألكسي وأشار إلى الرفوف التي تظهر من النافذة اسمع لوكا سأعطيك كتابا، يمكنك اختياره من هذه المجموعة أي كتاب تريد، هيا يمكنك اختيار كتاب واحد، قال الصبي بفرح حقاً يا سيدي شكراً لك، وهل يمكنني اختيار أي واحد من بينهم؟، أجابه ألكسي أجل لوكا أي واحد ترغبه ولكن بشرط أن تقرأه ويمكنك بعدها أن تأتي في أي

وقت تشاء وتأخذ المزيد مجاناً من دون أن تدفع النقود!، قال الصبي إذا سأختار هذا الكتاب الكبير ذي اللون الأسود، سار لوكا نحو الكتاب نفسه الذي سرقه ألكسي عندما كان صبيا صغيرا مما جعل ألكسي في حالة من الذهول وقال للصبي من الجيد إنك اخترت هذا الكتاب لأني لم أقرأه حتى إنني لم اطلع عليه أبدا، تناول ألكسي الكتاب وقدمه للصبي وقال له ستقرؤه وعندما تنتهي من قراءته يمكنك القدوم لنناقش الكتاب معاً عندما تنهيه ولكن ينبغي عليك أن تعدني بالاحتفاظ به، أجابه لوكا أعدك سيدي، ذهب الصبي بعد أن شكر ألكسي على الكتاب ولوح الصبي بيده مودعاً وكذلك فعل ألكسي، لم يكن ينوي كسر قلب الصبي الصغير أو أن يجعله يسرق كما حصل معه في ما مضى،

تعلم ألكسي الكثير والكثير من الدروس في هذه الحياة البائسة أصبحت لديه الحكمة الكافية لكي يمنع بعض الأشخاص من الوقوع في الهاوية والشرور حتى على الرغم من امتلاكهم شيء من نقاء وصفاء القلب وخاصة الأشخاص التي وقعت في قلوبهم حب المعرفة يمكن بعدها أن تزيغ قلوبهم بمجرد حرمانهم من هذه المعرفة، وفي نهاية حكايتنا وضع أليوشا لوحة خشبية أمام المتجر كتب عليها عبارة

((الكتاب معرفة والمعرفة مجاناً لمن لا يستطيع شراءها)).

النهاية

الفهرس

تنويه 5
شخصيات الرواية: 7
الفصل الأول 9
الفصل الثاني 17
الفصل الثالث 29
الفصل الرابع 39
الفصل الخامس 51
الفصل السادس 65
الفصل السابع 79
الفصل الثامن 97
الفصل التاسع 107
الفصل العاشر 119
الفصل الحادي عشر 131
الفصل الثاني عشر 151
الفصل الثالث عشر 159
الفصل الرابع عشر 171
الفصل الخامس عشر 189
الفصل السادس عشر 193
الفصل السابع عشر 207
النهاية 217